سنة تسعين وخمسمائة:

ففيها استعادت الفرنج خذلهم الله حصن جبيل بمعاملة من كردي فقيه كان فيه، في مستهل صفر.

وفيها وصل العزيز عثمان بن صلاح الدين صاحب مصر في صفر لأخذ الشام، وأقام يحاصرها عشرة أشهر وقطع الماء عنها.

ووصل العادل من الشرق فاجتاز بحلب وصعد إلى قلعتها، وبات بها واستخلص ولديه وبني عمه وكبراء الياروقية من اعتقال الظاهر صاحبها، ثم سار إلى دمشق معينا لابن أخيه الأفضل فأصلح بينهما على أن للعزيز من بيسان إلى أسوان، وقدم الظاهر من حلب أيضا ثم عاد كل إلى بلاده، وتزوج العزيز بابنة عمه العادل.

وأخذ الملك الأفضل من الفرنج في هذه السنة جبلة واللاذقية.

وفيها كانت محنة أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي الواعظ، وشي به إلى الخليفة الناصر أحمد بن المستضيء بأمر الله، اختلفوا فيه، وكان الزمان صيفا، فبينما هو جالس في السرداب يكتب جاءه من أسمعه غليظ الكلام، وختم على كتبه وداره وشتت عياله، فلما كان أول الليل حملوه في سفينة وحدروه إلى واسط خمسة أيام ما أكل طعاما إلى واسط، وكان قد قارب ثمانين سنة، فأقام في دار درب الديوان وعلى بابه بواب، فكان يخدم نفسه ويغسل ثوبه، ويطبخ ويستقي الماء من البئر، ولم يدخل الحمام مدة خمس سنين مقامه بواسط، ولما عاد إلى بغداد كان يقول: قرأت بواسط مدة مقامي كل يوم ختمة ماقرأت فيها سورة يوسف من حزني على ولدي يوسف، وكان يكتب إلى بغداد أشعارا كثيرة.

وفيها: توفي القزويني واسمه أحمد بن اسماعيل بن يوسف، وكنيته أبو

الخير الشافعي، تفقة بنيسابور على محمد بن يحيى صاحب الغزالي، وسمع بها وبغيرها الحديث من أبي عبد الله الفراوي، وأبي القاسم الشحامي، وأبي محمد البيهقي وغيرهم، وكان عالما بالتفسير والفقه متعبدا، وكان يختم القرآن كل يوم مرة.

ولد بقزوين سنة اثنتي عشرة وخمسمائة، وقدم بغداد حاجا سنة خمس وخمسين وخمسمائة، فوعظ بالنظامية ومال إلى مذهب الأشعري رحمه الله، وجلس يوم عاشوراء فقيل له العن يزيد بن معاوية، فقال ذاك إمام مجتهد ففجأه أحدهم فكاد يقتل،فسقط عن المنبر فأدخل بيتا من النظامية، ثم أخرجوه إلى قزوين فمات بها في المحرم.

وفيها: قتل السلطان طغريل شاه بن أرسلان شاه بن طغريل شاه بن محمد بن ملكشاه، وهو آخر الملوك السلجوقية، سوى صاحب الروم، وهو الذي كان كسر عسكر الخليفة على همذان، وكان طغريل قد بعث إلى الخليفة يطلب السلطنة فأرسل إليه جيشا مقدمه وزيره ابن يونس فكسرهم طغريل ومزقهم كل ممزق، وأخذ ابن يونس وكان محلوق الرأس فأحضروه بين يدي السلطان وألبسوه طرطورا أحمر في جلاجل، وجعل يضحك عليه وذلك سنة أربع وثمانين وخمسمائة، فهابه الملوك، ثم أن خوارزم شاه سار إليه في عساكره والتقيا على الري، فقتل وقطع رأسه وبعث إلى بغداد، فدخلوا به في جمادى الأولى على خشبة وكوساته مشققة وسنجقه وراءه مكسور منكس، وكان من أحس الناس صورة، ثم رد إلى خزانة الرؤوس فجاءت فأرة فأكلت أنفه وأذنيه، وبقي الرأس إلى سنة إحدى وستمائة فوقع حريق في خزانة الرؤوس فاحترق الجميع، وكان عدة الملوك السلجوقية نيفا وعشرين ملكا أولهم طغريل الذي أعاد القائم[1] إلى بغداد وآخرهم هذا، ومدة ملكهم مائة وستون سنة.

وفيها في جمادى الآخرة توفي بالقاهرة الشيخ الشاطبي، العالم الزاهد

ناظم القصيدة في القراءات السبع رحمه الله ودفن بالقرافة بالقرب من التربة الفاضلية بسارية، وقد زرت قبره، وشاطبه المنسوب هو إليها مدينة بالمغرب شرق الأندلس.

أخبرني شيخنا أبو الحسن علي بن محمد[٢] رحمه الله أن سبب انتقاله من بلاده إلى الديار المصرية أنه أريد على أن يتولى الخطابة بها فاحتج بأنه قد وجب عليه الحج وأنه عازم عليه فتركها، ولم يرجع إليها تورعا مما كان يلزمون به الخطباء من ذكرهم على المنابر بأوصاف لم يرها سائغة شرعا، وصبر على فقر شديد وسمع بالاسكندرية على الحافظ أبي طاهر السلفي، ثم قدم القاهرة فطلبه القاضي الفاضل للإقراء بمدرسته، فأجاب بعد شروط اشترطها عليه على ماكان فيه من الفقر، وقدم بيت المقدس زائرا قبل موته بثلاث سنين فصام به شهر رمضان واعتكف.

قال لي الشيخ أبو الحسن: سمعته وقد جاءه رجل يودعه، والرجل عازم على المسير إلى القدس، فقال: ذكر الله عنا ذلك الموضع بخير، وقال لاأعلم موضعا أقرب إلى السماء منه، بعد مكة والمدينة، قال الشيخ: فعلمت أنه رزق ثم قبولا، وقال: أقطع بأنه كان مكاشفا، وأنه سأل الله تعالى كتمان حاله ماكان أحد يعلم أي شيء هو.

قلت: وقد ذكرت طرفا صالحا من أخباره وأوصافه في أول شرحي الكبير لقصيدته الكبرى، وأخبرني عنه جماعة من أصحابه رحمهم الله تعالى.

ثم دخلت

سنة إحدى وتسعين وخمسمائة

وفيها قدم العزيز بن صلاح الدين إلى الشام مرة ثانية، فنزل على الفوار في شهر رمضان، ثم رحل إلى مصر لما سمع بقدوم العساكر مع عمه العادل، وأخيه الأفضل فرحل عائدا إلى مصر، وتبعاه إلى القاهرة، وخرج الفاضل فأصلح الحال، فدخل العادل مصر مع العزيز، ورجع الأفضل إلى الشام.

وفيها حج بالناس من بغداد سنجر الناصري، ومن الشام سراسنقر، وأيبك فطيس الصلاحيان، ومن مصر الشريف اسماعيل بن تغلب الجعفري، من ولد جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه.

وفيها: كانت بالمغرب وقعة الزلاقة[٣] وكانت عظيمة بين يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن وبين الفنش ملك طليطلة، وكان الفنش قد استولى على جزيرة الأندلس وقهر ولاتها، وكان يعقوب ببر العدوة مشغولا عن نصرتهم بالخوارج الخارجين عليه، وبينه وبين الأندلس زقاق سبتة وعرضه ثلاثة فراسخ، ويحتاج في عبوره إلى مشقة عظيمة، وطمع الفنش في المسلمين بهذا السبب، وكتب إلى يعقوب ينخيه عن العبور إليه فسار إلى زقاق سبتة فنزل عليه، وجمع الشواني، والمراكب وعرض جيشه فكانوا مائتي ألف مقاتل، مائة ألف يأكلون من الديوان، ومائة ألف مطوعة، وعبر الزقاق إلى مكان يقال له الزلاقة، وجاءه الفنش في مائتي ألف وأربعين ألفا من أعيان الفرنج والمقاتلة والتقوا، فنصر الله المسلمين، وهرب الفنش في نفر يسير إلى طليطلة، وغنم المسلمون ماكان في عسكره، فكان عدة من قتل من الفرنج مائة ألف وستة وأربعون ألفا، وعدة الأسارى ثلاثين ألفا، ومن الخيام مائة ألف خيمة وخمسون ألفا،

ومن البغال مائة ألف، ومن الحمير أربعمائة ألف حمار تحمل أثقالهم لأنهم لاجمال عندهم، ومن الأموال والجواهر والثياب مالا يحد ولايحصى، وبيع الأسير بدرهم والسيف بنصف درهم، والحصان بخمسة دراهم، والحمار بدرهم، وقسم يعقوب الغنائم بين المسلمين على مقتضى الشريعة فاستغنوا إلى الأبد، ووصل الفنش إلى طليطلة على أقبح حال وحلق رأسه حتى يأخذ بالثار وأقام يجمع من الجزائر والبلاد ويستعد، وقيل أنها كانت هذه الواقعة في سنة تسعين وخمسمائة والله أعلم(٤).

ثم دخلت

سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة

وفيها: نقل تابوت صلاح الدين رحمه الله من القلعة إلى التربة المستجدة له شمالي الجامع.

وفيها قدم العزيز إلى الشام مرة ثالثة مع العادل ونزلا على جسر الخشب، وانفصل الحال على أن خرج الأفضل منها إلى صرخد، وتسلمها العزيز، وسلمها إلى عمه العادل، وأسقط مكوسها والخطبة والسكة باسم العزيز، وأخذت قلعة بصرى من الظافر خضر بن صلاح الدين، ورجع العزيز إلى مصر.

وفيها: حج من مصر الشريف ابن تغلب في جماعة من الأعيان، وأنفق أموالا كثيرة.

وفيها: بعد خروج الحاج من مكة هبت ريح سوداء عمت الدنيا، ووقع على الناس رمل أحمر، ووقع من الركن اليماني قطعة وتجرد البيت الحرام مرارا.

وفيها: في غرة شعبان كسر عسكر الخوارزم شاه الأحول والد علاء الدين بن محمد، وكان مقدمه مملوكا له، عسكر الخليفة في عشرين ألفا مقدمه ابن القصاب وزير الخليفة، فكسروا أشنع من كسرة ابن يونس، عادوا إلى بغداد عرايا جياعا، وقطع رأس الوزير، وبعث به وبأعلام الخليفة والخزائن، وكانت الكسرة على باب همذان، وكان خوارزم شاه قد قطع جيحون في خمسين ألفا، ثم وصل همذان وشحن على البلاد إلى باب بغداد، وبعث إلى الخليفة يطلب السلطنة، وإعادة دار السلطنة إلى

الحسين بن الحسن أبو الفتح الناسخ الحنبلي، يعرف بابن الحداد حفظ القرآن، وتفقه وأفتى، وناظر لكنه قرأ الشفا لابن سينا، وكتب الفلاسفة فغير اعتقاده، وكان يبدر من فلتات لسانه مايدل على سوء عقيدته، وتارة يشفق من حبس ابن الراوندي، وتارة يشير إلى عدم بعث الأجساد، وتارة يعترض على القضاء والقدر، وله أشعار تتضمن شيئا من ذلك، توفي سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة.

وفيها: توفي يحيى بن أسعد بن يحيى بن بوش، أبو القاسم الخباز البغدادي، سمع الكثير، وكان قد افتقر في آخر عمره فكان يأخذ على التسميع أجره، جلس ليلة الأربعاء ثالث ذي القعدة يأكل خبزا فغص به بلقمة، فمات فجأة، سمع قاضي المارستان، وأبا العز بن كادش، وابن الطيوري، وأبا طالب بن يوسف، وهو آخر من روى عن أبي طالب، وكان ثقة.

ثم دخلت

سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة

ففيها: فتح الملك العادل يافا في شوال بالسيف، واستولى على من فيها قتلا ونهبا وسلبا، ثم أمر بهدمها فرميت حجارتها في البحر في ميناها، ومن عجيب مابلغني أنه كان في قلعتها من الخيالة أربعون فارسا من الفرنج العزب والبحرية، فلما تحققوا نقب القلعة وأخذها دخلوا إلى كنيستها وأغلقوا عليهم بابها، وتجالدوا بسيوفهم بعضهم لبعض إلى أن هلكوا جميعا، وكسر المسلمون الباب وهم يرون الفرنج ممتنعين، فألفوهم قتلى عن آخرهم فتعجبوا من حالهم.

وفيها: عاد الأسطول المصري إلى القاهرة غانما سبعين فارسا بذل أحدهم في فدائه ثمانين ألف دينار.

وفيها: استعادت الفرنج —خذلهم الله— قلعة بيروت من نواب سامة.

وفيها: قدم حسام الدين أبو الهيجاء السمين بغداد، وخرج الموكب للقائه في زي عظيم، فرتب الأطلاب على ترتيب الشام، وكان في خدمته عدة من الأمراء، وكان معه ولد أخيه عز الدين كور الفرس، وكان رأسه صغيرا، وبطنه كبيرا جدا بحيث كان على رقبة البغلة، وكان قد رآه عند الخريبة رجل كواز فعمل في ..عنه كوزا على شكله، وسبقه فعلقه في السوق، فلما اجتاز به ضحك، وعمل بعد ذاك أهل بغداد كيزانا وسموها أبا الهيجاء السمين على صورته، أنزله الخليفة بدار العميد غربي بغداد بعد أن عبر إلى الجانب الشرقي. وقبل عتبه باب النوبي وأكرمه الخليفة، وقام له بالضيافات، ثم أمره أن يجرد جماعة من أصحابه من عسكر الخليفة إلى همذان فجرد جماعة، فلما بعدوا عن بغداد نهبوا خزانة الخليفة

وقتلوا جماعة من عسكره ومضوا إلى الموصل والجزيرة، وعاد عسكر الخليفة إلى بغداد وقد خرجوا، فنقله الخليفة إلى الجانب الشرقي إلى دار عند النظامية كانت لسلطان دمشق قبل نور الدين بن زنكي، وهو: مجير الدين أبق، ووكل به، ثم خلع عليه بعد ذلك الجبة والفرجية والعمامة السوداء والقباء الأسود، وبين يديه الخيل بمراكب الذهب، وسار إلى همذان.

وفي عاشر محرم: توفيت الست عذراء بنت شاهنشاه بن أيوب، أخت عز الدين فرخشاه، وهي التي تنسب إليها المدرسة العذراوية بدمشق بحضرة باب النصر، وفيها دفنت.

وفي تاسع عشر شوال، توفي عمها سيف الاسلام طغتكين بن أيوب بموضع يعرف بالحمراء باليمن، وولى اليمن بعده ابنه اسماعيل، فسفك الدماء ثم ادعى الخلافة، وانتسب إلى بني أميه فقتل.

وفي ثاني عشر ذي الحجة: توفيت والدة الملك العادل بدارها من دمشق، المجاورة لدار أسد الدين شيركوه.

وفيها: حج عز الدين سامة من الشام، وله آثار بمدينة النبي صلى الله عليه وسلم من القناة وعمارة القبة على قبر أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه.

وفيها: توفي أحمد بن عيسى الهاشمي من ولد الواثق بالله، ويعرف بابن الغريق من أهل الحريم الطاهري، وكان شاعرا فاضلا فمن شعره ما اعتذر به عن الإكتحال يوم عاشوراء:

لم أكتحل في صباح يوم
أريق فيه دم الحسين

إلا الحـــــــــــزني وذاك أني
ســـودت حتـــى بيـــاض عينـــي

وكانت وفاته في ذي القعدة عن ثمانين سنة، ودفن بباب حرب.

وفيها: توفي الحسن بن علي بن حمزة أبو محمد بن الأقساسي النقيب الطاهر، نقيب العلويين ببغداد، كان فاضلا أديبا، وقال: نمت ليلة عن صلاتي فرأيت أمير المؤمنين عليا عليه السلام في جامع الكوفة وحوله جماعة فسلمت عليه، فلم يرد علي ودفعني بيده فخطر لي أنه بسبب نومي عن الصلاة.

وفيها: توفي صندل بن عبد الله الخادم المقتفوى، ويلقب عماد الدين، كان أكبر الخدم وأعقلهم أرسله الخليفة الناصر إلى صلاح الدين مرارا، وكان كثير الصدقات والخير، وولي ناظرا بواسط، ومدحه ابن المعلم الشاعر بقصائد، ودفن بالتربة التي أنشأها عند الجامع غربي بغداد.

وفيها: توفي ابن الباقلاني، واسمه عبد الله بن منصور بن عمر بن أبي بكر، ولد سنة خمسمائة، وقرأ بواسط على أبي العز محمد بن الحسين بن بندار القلانسي وغيره، وانفرد بالرواية في القراءات العشر عن القلانسي، وقدم بغداد فقرأ على أبي محمد عبد الله بن علي سبط أبي منصور الخياط وغيره، وكان حسن التلاوة، وكان قدومه إلى بغداد في سنة عشرين وخمسمائة وبعدها، وآخر ماقدمها سنة ست وسبعين وراه بعض الأعيان في المنام فقال له: مافعل الله بك؟ فقال: قد صلى علي سبعون ألفا من الأبدال، سمع أبا القاسم بن الحصين، وابن السمرقندي، وقاضي المارستان وغيرهم .

وفيها: توفي عبد الوهاب بن الشيخ عبد القادر الجيلي، ولد سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة وتفقه، ووعظ، وكان ذكيا، ولاه الخليفة المظالم وتربة

الخلاطية، وكانت مجالس وعظه تمضي في الهزل والمجون، قيل له يوما: ماتقول في أهل البيت؟ فقال: أعموني، وكان أعمش والسائل إنما سائل عن أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأجاب عن أهل بيت نفسه، وقيل له: بأي شيء تفرق بين المحق والمبطل؟ قال: بليمونه، أراد من تخضب يزول خضابه بليمونة، وكانت وفاته في شوال ودفن في الحلة، سمع أباه، وأبا القاسم بن الحسين، وابن السمرقندي، وأبا الوقت وغيرهم.

وفيها: توفي الوزير أبو المظفر عبد الله بن يونس بن أحمد الجيلي، ولقبه جلال الدين، كان في بدء أمره أحد العدول ببغداد، ثم خدم في ديوان الأبنية، ولما مات أبوه يونس توكل لأم الخليفة، ثم ولي صاحب ديوان ثم استوزره الخليفة وبعثه إلى طغريل، فكسر على ماذكر، وعاد إلى بغداد فولاه الخليفة الديوان والمخزن، ثم ولاه أستاذ دار، ثم عزله، وكان قد قرأ القرآن على صدقة بن الحداد وغيره، وتفقه على أبي حكيم النهرواني، وسمع أبا الوقت وغيره، ولما سافر إلى همذان سمع من أبي العلاء الحافظ الهمذاني، وكان فاضلا في الأصولين، والحساب، والهندسة، وله تصنيف في الأصول غير أنه شان فضله بمقاصدة السيئة، ورأيه الفاسد، وحقده وحسده، ولجاجه، وكسر عسكر الخليفة بلجاجه ومخالفته للأمراء، وكونه استعجل على لقاء طغريل، وأخرب بيت الشيخ عبد القادر وشتت أولاده، ويقال إنه بعث في الليل من نبش الشيخ عبد القادر، ورمى عظامه في اللجة، وقال هذا وقف مايحل أن يدفن فيه أحد، ولما اعتقله الخليفة كتب فتوى بأنه كان سبب هزيمة عسكر الخليفة، وذكروا أشياء اخرى فأفتوا باباحة دمه، فسلم إلى أحمد بن الوزير ابن القصاب فبقي في داره، فلما مات ابن القصاب اعتقل في التاج وأخرج في سابع عشر صفر ميتا ودفن بالسرداب.

وأما صدقه بن الحداد الذي قرأ عليه ابن يونس القرآن فهو صدقة بن

قـــواف تعير الأعين النجـــل حسنهـــا
فـــأي مكـــان فيـــه خيمـــت بـــابـــل

وأخرج إلى الجانب الغربي من بغداد، فمات ودفن في مقابر قريش في صفر.
وفيها : توفي بمصر الفقيه شهاب الدين محمد الطوسي مدرس منازل العز، وقد ذكرته في آخر كتاب الروضتين.

قيل لما كان قدم بغداد ركب بالسنجق والسيوف المسللة والغاشية المرفوعة والطوق في عنق البغلة فمنع من ذلك فسافر إلى مصر ووعظ وأظهر مذهب الأشعري وثارت الحنابلة فكان يجري بينه وبين الزين ابن نجية العجائب من السباب والتكفير، وبلغني أنه سئل، أيما أفضل دم الحسين، أم دم الحلاج؟ فاستعظم ذلك وقال: كيف يجوز أن يقال هذا؟ قطرة من دم الحسين أفضل من مائة ألف دم الحلاج، فقال السائل: فدم الحلاج كتب على الأرض «الله» ولاكذلك دم الحسين، فقال الطوسي: المتهم يحتاج إلى تزكية.

قلت: وهذا جواب في غاية الحسن في هذا الموضع، على أنه لم يصح ماذكر عن دم الحلاج والله أعلم، وكانت وفاته في الحادي والعشرين من ذي القعدة، وكان يومه مشهودا، ركب فيه الملك العادل وكبراء الدولة وخرج أهل مصر والقاهرة جميعا مشيعين نعشه إلى حيث دفن من القرافة.

وفيها: توفي الهمام العبدي الشاعر واسمه الحسن بن علي العبدي البغدادي، وذكر القوصي في معجمه أنه وفد على قاضي القضاة محيي الدين محمد بن علي القرشي، وهو على رسالته المحتوية على التعزية فأنشد.

ألا قل لناعي الفضل أقصر فإنني
تيقنت حقا أن نعيك باطل

إذا كان محيي الدين في الدست جالسا
فما مات في الدنيا من الناس فاضل

وفيها: توفي محمد بن عبد المنعم بن أبي الفضائل الصوفي الميهي شيخ رباط البسطامي، ويلقب بالركن، كان جوادا سمحا لم يكن في أبناء جنسه من يضاهيه في الكرم، وماطلب منه أحد شيئا فمنعه حتى كان يخرج وفي رجليه مداس فيرجع حافيا، ويخرج وعليه ثوبان فيرجع عريانا، وكانت له خلوات ومحاضرات، سمع من شهدة وغيرها، وتوفي في ذي الحجة ودفن في الشونيزية عند والده أبي الفضائل.

وفي هذه السنة كان الأفضل والظاهر ومن تابعهما على حصر دمشق والعسكر جاثمة بمنزلتهم، وقد حفروا عليها خندقا من أرض قنوات إلى أرض يلدا مشرقا احترازا من مهاجمة من بدمشق لهم فيها، ثم رحل الأفضل والظاهر إلى رأس الماء وافترقا، فسار الأفضل إلى مصر، والظاهر إلى حلب تاسع ربيع الأول، وخرج العادل تابعا للأفضل فكسر عسكره بموضع يعرف بالقصرين بين الغرابي والسانح، ودخل العادل القاهرة ورجع الأفضل إلى صرخد.

ثم دخلت

سنة أربع وتسعين وخمسمائة

ففيها: نزل الفرنج على تبنين، وأنفذ العادل محيي الدين بن الزكي إلى العزيز بمصر مستصرخا، فأرسل العساكر، وقدم بنفسه، فرحل الفرنج خائبين لما تحققوا من قوة العسكر الاسلامي بعد أن أقاموا عليها شهرين وسبعة أيام، وأطمعتهم أنفسهم بأخذها، ورجع العزيز إلى مصر، والعادل إلى دمشق بعد أن تقررت الهدنة مع الفرنج لمدة خمس سنين وثمانية أشهر، أولها رابع عشر شعبان سنة أربع وتسعين وخمسمائة.

وفيها: عاد الأسطول المصري من الغزو بعد أن اجتاز ببلاد لاون، ووصل معه إلى مصر من السبي أربعمائة وخمسون أسيرا.

وفيها: حج بالناس من الشام تقي الدين قراجا مملوك صلاح الدين.

وفيها: توفي جرديك النوري، وكان من أكابر أمراء نور الدين، وخدم صلاح الدين في جميع غزواته، وهو الذي قتل شاور بمصر، وابن الخشاب بحلب، وكان شجاعا جوادا، وولاه صلاح الدين القدس.

وفيها توفي الشيخ أبو الحسن بن مسلم الزاهد القادسي، من قرية بنهر عيسى، يقال لها القادسية، كان من الأبدال لازما لطريق السلف، أقام أربعين سنة لم يكلم أحدا من الناس، وكان صائم الدهر، قائم الليل يقرأ كل يوم وليلة ختمة، ذكره أبو الفرج ابن الجوزي في صفوة الصفوة[٦]، وكان زاهد زمانه.

وكانت السباع تأوي إلى زاويته، وكان الخليفة وأرباب الدولة يمشون إلى زيارته، وكانت وفاته يوم عاشوراء ودفن في رباطه بالقادسية.

وحكى عنه جماعة من مشايخ القرية أن السباع كانت تنام طول الليل حول زاويته، إذا خرج أحد من القرية في الليل إلى نهر عيسى لم يتعرض له، وأن فقيرا نام في الزاوية في ليلة باردة فاحتلم فنزل ليغتسل فجاء السبع فنام على جبته، فكاد الفقير يموت من البرد والخوف، فخرج الشيخ حسن وجاء إلى السبع وضربه بكمه وقال يامبارك قد قلنا لك لاتتعرض لأضيافنا فقام السبع يهرول، سمع قاضي المارستان، وابن الحصين، وابن الطيوري وغيرهم.

وفيها: توفي في المحرم بسنجار صاحبها عماد الدين زنكي بن مودود ابن زنكي ابن أخي نور الدين وختنه على ابنته، وكان عاقلا جوادا، ولم يزل مع صلاح الدين في غزواته مجاهدا وكان ميمونا، وكان صلاح الدين يحترمه مثل ماكان يحترم نور الدين، ويعطيه الأموال والهدايا والتحف الكثيرة، ولما توفي صلاح الدين خرج مع أخيه عز الدين إلى لقاء العادل، فلما عاد عز الدين إلى الموصل صالح عماد الدين العادل، ولما احتضر أوصى إلى أكبر أولاده وهو قطب الدين محمد، ويلقب بالمنصور.

وفيها: توفي أبو الحسن علي بن زهير قاضي البطائح ولد سنة تسع وعشرين وخمسمائة، وقدم بغداد فسمع بها الحديث من أبي الوقت وابن ناصر، وابن الجواليقي، وغيرهم وخرج إلى رحبة مالك بن طوق، فقرأ الفقه والأدب على أبي عبد الله بن المتقنة وعاد إلى البطائح فولي القضاء بالعراق ثم عاد إلى بغداد فأقام بها ثم انحدر إلى البطائح فتوفي بطريق واسط وكان ثقة صالحا، وقال: أنشدني القاسم بن علي صاحب المقامات لنفسه:

لاتخطـــــون إلى خـــــط ولاخطـــــأ
مـن بعـدمـا الشيـب في فـوديـك قـد وخطـا
فـــأي عـــذر لمن شـــابـــت ذوائبـــه
إذا سعـــى في ميـــاديـــن الصبـــا وخطـــا

وفيها: تـوفي أبو المجـد علي بن علي بـن ناصر السيـد العلوي،مـدرس الحنفية ببغـداد، ولد سنة خمس عشرة وخمسائة وتفقـه وأفتى وناظـر، وكان المستنجد الخليفة قد حبسه وطالبـه بمال، فرأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام فقـال له: يـايوسف استـوص بولـدي خيرا فهو وديعتـي عندك، فانتبه الخليفة مـرعوبا وأحضره وخاطبه، وقال: اجعلنـي في حل فقد شفع فيك من لايمكننـي رده، وأحسن إليه، وكانت وفاتـه في ربيع الأول ودفن عنـد مشهـد عبيد الله شرقـي بغـداد، وكـان صالحا شريفـا على الحقيقـة، سمع ابن الحصين وقاضي المارستان وابن السمرقندي وغيرهم.

وفيها: تـوفي مجاهد الـدين قـايماز الخادم الرومـي الحاكم على الموصـل الذي بنى الجامع المجاهدي، والمدرسة والـرباط والمارستان بظاهر الموصل على دجلة، ووقف عليها الأوقاف، وكـانت رواتب كثيرة بحيث لم يدع في الموصل بيتا فقيرا إلا وأغنـى أهله، وكان دينا صالحا عـادلا كريما يتصدق كل يوم خارجا عن الرواتب بمائة دينار، وله حكايات مشهورة.

ولما مات عز الـدين مسعود وولي ابنه أرسلان شاه حبسـه وضيق عليه وآذاه، فتوفي في الحبس، فأخرج ملفوفـا في كساء، فلما وصل إلى باب البلد قال البوابون،: قفوا حتى نستأذن له، فـألقى على قارعة الطريق حتى أذن له، وكان لعزالـدين مسعود جارية يقال لها أقصرا أولدهـا الجهة الأتابكية التي تزوجها الملـك الأشرف موسى بن العادل أبي بكر بـن أيوب، وبنت في جبـل قاسيـون التربة، والمدرسـة والمأذنة المنسـوبات إليهـا، وكان عـز الدين قد زوج مجاهد الدين هذا أم الأتابكية أقصرا المذكورة.

وفيها: توفي أبو طالب يحيى بن سعيد بن هبة الله بن زيادة الواسطي، ولد سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة، وقدم بغداد واشتغل بالأدب فبرع في الإنشاء، والكتابة، وانتهت إليه الرئاسة فيها مع تخصصه بفنون كالفقه، وعلم الكلام، والأصول، والحساب، والشعر، جالس أبا منصور الجواليقي وقرأ عليه، وسمع أبا القاسم الصباغ وغيره، وولي للخليفة عدة خدم: حجبة الباب ثم استاذية الدار، ثم كتابة الإنشاء في آخر أمره، وكانت وفاته في ذي الحجة، ودفن في مقابر قريش، ومن شعره:

قد سلوت الدنيا ولم يسلها
من علقت في آماله والأراجي
وإذا ما صرفت وجهي عنها
قذفوني في بحرها العجاج
يستضيئون بي وأهلك وحدي
فكأني ذبالة في سراج

وفيها: توفي أبو الهيجاء السمين الكردي، ولقبه حسام الدين، وقد تقدم أنه قدم بغداد، وبعثه الخليفة إلى همذان فلم يتم له أمر، واختلف الأمر عليه، وتفرق عنه أصحابه، فخاف من الخوارزمي واستحيى أن يعود إلى بغداد فسار يطلب الشام على دقوقا، فلما وصل إليها مرض وأقام بها أياما فتوفي، وبلغني أنه كان نازلا على تل فقال: ادفنوني فيه فحفروا له قبرا على رأس التل، فظهرت بلاطة عليها اسم أبيه فدفنوه عليه، وقيل كانت وفاته في آخر السنة الثالثة والتسعين.

ثم دحلت

سنة خمس وتسعين وخمسمائة

ففيها استدعى الخليفة ضياء الدين ابن الشهرزوري إلى بغداد وولاه القضاء بها، وحج بالناس مظفر الدين وجه السبع.

وفيها: أفرج عن الشيخ أبي الفرج ابن الجوزي فقدم بغداد في شعبان، وخلع عليه، وجلس عند تربة أم الخليفة وكانت تتعصب له، وساعدت في خلاصه، وانشد بيت الرضى الموسوي:

إن كان لي ذنب ولم آته
فاستأنف العفو وهب ما مضى[1]

وأنشد أيضا:

شقينا بالنوى زمنا فلما
تلاقينا كأنا ما شقينا
سخطنا بعد ما جنت الليالي
فما زالت بنا حتى رضينا
سعدنا بالوصل وكم سقينا
بكاسات الصدود وكم ضنينا
فمن لم يحيى بعد الموت يوما
فإنا بعد ما متنا حيينا

وفيها: توفي القاضي العباسي وهو:أبو جعفر محمد بن جعفر بن أحمد، وقيل أبو الحسين، ويلقب فخر الدين وعماد الدين، ولد سنة أربع وعشرين وخمسمائة، تفقه علي أبي الحسن ابن الخل، وسمع الحديث الكثير، وولي قضاء بغداد سنة أربع وثمانين وخمسمائة، وولي قضاء مكة والخطابة، ثم عزل في جمادى الآخرة سنة ثمان وثمانين بحضرة الوزير عبد الله بن يونس بسبب أنه حكم بكتاب مزور، وكانت وفاته في جمادى

الآخرة، ودفن بمقبرة العطافية عند جده النقيب أبي جعفر العباسي،سمع أبا الوقت وغيره .وابنه جعفر بن محمد العباسي، قدم دمشق وسمع بها كثيرا وببغداد من مشايخها، ومولده سنة سبعين وخمسمائة وتوفي بحماة في ذي الحجة سنة ثمان وتسعين وخمسمائة.

وفيها: في ذي الحجة توفي تقي الدين طرخان بن ماضي بن جوشن بن علي بن معافى الضرير الشاغوري الشافعي، وكان إماما للملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمهما الله مدة طويلة، ودفن خارج باب الصغير، ومولده بدمشق سنة ثماني عشرة وخمسمائة.

وفيها: توفي ابن فضلان مدرس النظامية، وهو: أبو القاسم يحيى بن علي بن الفضل، ولد سنة خمس عشرة وخمسمائة، وتفقه على محمد بن يحيى صاحب الغزالي بنيسابور، وقدم بغداد فناظر وافتى ودرس وكان مقطوع اليد وقع من الجمل فاعتلت يده فخيف عليه فقطعت، وانتفع به خلق كثير ببغداد وغيرها، وكانت وفاته في شعبان، وحمل الفقهاء جنازته إلى الوردية، سمع بنيسابور من محمد بن يحيى، وببغداد من محمد بن ناصر، وأبا الوقت وغيرهما وسمع منه ينشد:

وإذا أردت منازل الأشراف
فعليك بالإسعاف والإنصاف
وإذا بغى باغ عليك فخله
للدهر فهو له مكاف كاف

وفيها توفي خليفة المغرب أبو يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الذي كسر الفنش عام الزلاقة،وكان قام بالملك بعد أبيه أحسن قيام، نشر كلمة التوحيد، ورفع راية الجهاد، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، وأقام الحدود على عشيرته وغيرهم، وكان جوادا، سمحا، عادلا، يكرم العلماء، متمسكا بالشرع، يصلي بالناس الصلوات الخمس، ويلبس الصوف، ويقف للمرأة والضعيف ويأخذ لهم بالحق، حافظا للسانه،

وأوصى في مرض موته إلى ولده أبي عبيد الله محمد، وأن يدفن على قارعة الطريق ليترحم عليه من يمر به، وتوفي في ربيع الأول، فكانت مدة أيامه خمس عشرة سنة، وهو الذي كتب إليه سلطان بلادنا الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب في سنة سبع وثمانين يستنجده على الفرنج الخارجين عليه بساحل البلاد المقدسة، ولم يخاطبه بأمير المؤمنين، فلم يجبه إلى ماطلب وقد ذكرنا من أخباره في كتاب الروضتين في سنة سبع وثمانين، وبايع الناس بعده ولده محمد واستمر على سيرة أبيه، ثم اختلفت الأهواء وحصل النقض على البيت بموت يعقوب رحمه الله.

وفيها كانت فتنة عبد الغني الحافظ الحنبلي، وذلك يوم الإثنين الرابع والعشرين، من ذي القعدة، ذكر العز تاج الأمناء أنه اجتمع الشافعية، والحنفية، والمالكية عند المعظم عيسى، والصارم بزعش والي القلعة، وكانا يجلسان بدار العدل للنظر في المظالم فكان مااشتهر من إحضار اعتقاد الحنابلة، وموافقة أولاد الفقيه النجم بن الحنبلي الجماعة، وإصرار عبد الغني المقدسي على لزوم ماظهر من اعتقاده وهو: الجهة والإستواء، والحرف، واجماع العلماء، على الفتيا بكفره، وأنه مبتدع لايجوز أن يترك بين المسلمين، ولايحل لولي الأمر أن يمكنه من المقام معهم، فسأل أن يمهل ثلاثة أيام لينفصل عن البلد فأجيب، ورفعت جميع الخزائن والصناديق من الجامع، وبطلت صلاة الحنابلة من الجامع الظهر ومنعوا منها، ثم أذن لهم فصلوا العصر من ذلك اليوم، قلت: وسيأتي ذكر هذه الفتنة أيضا في أخبار سنة ستمائة إن شاء الله تعالى.

ثم دخلت

سنة ست وتسعين وخمسمائة

وفيها: توفي الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين، صاحب الديار المصرية، وعمره سبع وعشرون سنة وثمانية شهر وأيام، وتوجه أخوه الأفضل من صرخد إلى مصر فدخل القاهرة، ثم استصحب ولد العزيز على أنه أتابكه، وخرجا إلى الشام بالعساكر، فحصر دمشق، وأحرق جميع ماهو خارج باب الجابية من الفنادق، والحوانيت، وأحرق النيرب، وأبواب الطواحين وقطعت الأنهار، وانحرقت غلة «حرستا» في بيادرها.

وفيها: ظهر العجمي الداعي بدمشق المدعي أنه عيسى بن مريم، وأفسد جمعا من العوام، فقبض عليه صارم الدين بزغش العادلي، وصلب بعد استفتاء الفقهاء في أمره ظاهر باب الفرج على الصفصاف المجاور لحمام العماد الكاتب، وقد خرب الحمام ومايجاوره من العمران في هذا الزمان، وكان غربي جسر الصفي مقابل الطاحونة المستجدة خارج باب الفرج من البابين.

وفيها: كان قيام العامة على الشيعة وخروجهم إلى باب الصغير ونبشهم وثابا المرحل من قبره، وتعليقهم رأسه مع كلبين ميتين ثالث عشر ربيع الآخر، بعدصلب العجمي بيومين.

وفيها: توفي الأمير أبو الحسين أحمد بن حيوس الشاعر ثامن عشر ذي القعدة.

وفيها: توفي خوارزم شاه واسمه تكش بن أرسلان شاه بن أتسز من ولد طاهر بن الحسين، كان شجاعا جوادا ملك الدنيا من الصين والهند، وماوراء النهر إلى خراسان إلى باب بغداد، وكان نوابه في حلوان، وكان في

ديوانه مائة ألف مقاتل، وهو الذي كسر مملوكه عسكر الخليفة وأزال دولة بني سلجوق، وكان حاذقا بعلم الموسيقى، يقال لم يكن في زمانه ألعب منه بالعود، وحكي أن الباطنية جهزوا رجلا ليقتله، وكان يحترس كثيرا، فجلس ليلة يلعب بالعود، وشرع الخيمة فاتفق أنه غنى بيتا بالعجمية وفيه مامعناه قد ابصرتك، وفهم الباطني فخاف منه وارتعد فهرب، فأخذ وحمل إليه فقرره فأقر فقتله.

وكان يباشر الحروب بنفسه حتى ذهبت إحدى عينيه في الحروب، وكان يقول: الملك إذا لم يباشر الحرب بنفسه لايصلح للملك، لأنه يكون مثل المرأة، وكان قد عزم على قصد بغداد وجمع وحشد فوصل إلى دهستان فتوفي بها في رمضان، فحمل في تابوت إلى خوارزم فدفن عند أهله، وقام ولده محمد مقامه، وهو الذي خرج عليه التاتار، وعلى ولده جلال الدين، وماتا في محاربتهم كما سيأتي ذكره.

وفيها: توفي عبد اللطيف بن اسماعيل بن شيخ الشيوخ أبي سعد، وكنيته أبو الحسن، ولقبه ضياء الدين وهو أخو شيخ الشيوخ صدر الدين عبد الرحيم بن اسماعيل، الذي قدم رسولا على صلاح الدين من بغداد مرارا، وتوفي بالرحبة سنة ثمانين، وأما عبد اللطيف فولد سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة، وسمع الحديث من والده أبي البركات اسماعيل، ومن قاضي المارستان، وابن السمرقندي وغيرهم وكان صالحا ثقة، وكان شيخ الرباط الذي بالمشرعة شرقي بغداد، وحج ثم ركب البحر إلى مصر وزار الشافعي والقدس، والخليل، وقدم دمشق فتوفي بها في ذي القعدة ودفن بمقابر الصوفية عند المنيبع رحمه الله.

وفيها: توفي أبو جعفر أحمد بن علي بن أبي بكر بن اسماعيل القرطبي، إمام الكلاسة الزاهد العابد يوم الاثنين تاسع عشر شهر رمضان، قرأ بالموصل القرآن بالروايات على يحيى بن سعدون القرطبي.

وفيها: توفي القاضي الفاضل: وقاياز النجمي، والشهاب الطوسي، وابن العفارة بدر الدين عسكر(٨).

وفيها : توفي الرئيس مؤيد الدين بن أبي العساكر بن الصوفي رابع عشر ذي الحجة

وفيها: في رجب توفي بالقدس الفقيه مجد الدين أبو محمد طاهر بن نصر الله بن جهبل الكلابي الحلبي الشافعي، وكان فاضلا في علم الوصايا والفرائض، ودرس بالقدس الشريف ومولده بحلب في نيف وثلاثين وخمسمائة، وهو والد الفقهاء بني جهبل الذين كانوا عندنا بدمشق بالمدرسة الجاروخية: بهاء الدين نصر الله، وتاج الدين اسماعيل، وقطب الدين.

وفيها: توفي أبو الفرج عبد المنعم بن عبد الوهاب بن صدقة بن كليب الحراني، راوي جزء ابن عرفة عن أبي علي بن نبهان، وهو آخر من حدث عنه، وعن أبي القاسم بن بيان، وأحمد بن علي الحلواني، وكانت وفاته في ربيع الأول، ودفن بباب حرب وله خمس وتسعون سنة، وكان ثقة صحيح السماع، وكان يأخذ على سماعه جزء ابن عرفة دينارا.

وفيها: توفي كامل بن الفتح، أبو تمام ابن سابور الضرير، ويلقب بالظهير النحوي،بغدادي اشتغل بالأدب والشعر فبرع فيهما. ومن شعره:

وفي الأوانس من نعمان آنسة
لها من القلب ما تهوى وتختار
ساومتها نفثة من ريقها بدمي
وليس إلا خفي الطرف سمسار
عند العزول اعتراضات ولائمة
وعند قلبي جوابات وأعذار

وكانت وفاته في جمادى الآخرة ودفن بباب حرب.

وفيها: توفي البلخي الواعظ واسمه محمد بن عبد الله ويلقب بالنظام وبابن الظريف، ولد ببلخ سنة ست وعشرين وخمسمائة، وقدم بغداد فوعظ بها في النظامية ، وباب بدر، وجامع القصر، ومدرسة ابن النجيب، ودار ابن حديدة الوزير، وكان فصيحا مليح الصوت، وكان متشيعا، وأنشد يوما في النظامية:

سقاهم الليل كاسات السرى فغدوا
منه سكارى كأن الليل خمار
وصير الشوق أطواقاً عمائمهم
لا يعقلون أقام الحي أم ساروا
ونسمة الفجر إذ مرت بهم سحرا
تمايلوا وبدا للسكر آثار

فلم يبق في المجلس إلا من قام وصاح وتواجد، وأنشد أيضا:

مددت يدي في الحب نحوك سائلا
وقلت لجفني أذر دمعك سائلا
تفقهت في علم الصبابة والهوى
فمن شاء فليلق علي المسائلا

وحكي أنه نقل إلى الخليفة عنه أنه يعاشر النساء، ويرتكب المحرمات، فأرسل إليه الوزير وهو على المنبر فقال: قد رسم أن تخرج من البلد فأنشد:

أبابل لا واديك بالجود منعم
لدي ولا واديك بالرفد آهل
لئن ضقت عني فالبلاد فسيحة
وحسبك عارا أنني عنك راحل
وإن كنت بالسحر الحرام مدله
فعندي من السحر الحلال دلائل

ماكانت، ويجيء إلى بغدادويكون الخليفة من تحت يده كما كانت السلجوقية، فانزعج الخليفة وأهله، وغلب الأمصار وقيل إن خوارزم شاه توفي في هذه السنة، ست وتسعين كما سيأتي.

وفيها: كانت وقعة أخرى ليعقوب بن يوسف مع الفنش، وكان الفنش قد جند وجمع جمعا أكثر من الأول والتقوا، فهزمه يعقوب وساق خلفه إلى طليطلة، وضربها بالمجانيق، وضيق عليها ولم يبق إلا فتحها فخرجت إليه والدة الفنش وبناته ونساؤه وأهله، وبكين بين يديه، وسألنه إبقاء البلد عليهن، فرق لهن ومن عليهن به، ووهب لهن المال والجواهر، وردهن مكرمات بعد القدرة، ولو فتح طليطلة لفتح إلى مدينة النحاس(٥) وعاد إلى قرطبة فأقام شهرا يقسم الغنائم، وجاءته رسل الفنش تسأله الصلح فصالحه مدة، وأمن أهل الأندلس، وقيل إن هذه الوقعة كانت سنة إحدى وتسعين.

وفيها: توفي عبيد الله بن المظفر بن هبة الله ابن رئيس الرؤساء ويلقب بالأثير، هبة الله هو: الوزير الذي قتلته الباطنية وهو خارج إلى الحج في أيام المستضيء، وكان عبيد الله فاضلا عاقلا ومن شعره:

إن حاول الدهر اخفائي فإن له
في حبسي الآن سرا سوف يبديه
أعدني للعلا ذخرا ومن ذخرت
يداه في الدهر شيئا فهو يخفيه

وفيها: توفي محمد بن أحمد بن يحيى أبو منصور ويعرف بابن باقة، ولد بالكوفة سنة ثلاثين وخمسمائة، واشتغل بالأدب، ومات ببغداد وحمل إلى الكوفة، وكان أبوه فاضلا أيضا فمن شعره:

وكم شامت بي إن هلكت بزعمه
وجاذب سيف عند ذكر وفاتي

ولـــو علـــم المسكين مـــاذا يصيبـــه
مـــن الـــذل بعـــدي مـــات قبـــل ممـــاتي

وفيها: قتل الوزير ابن القصاب المقدم ذكره، وهو: أبو الفضل محمد ابن علي بن أحمد، ولقبه مؤيد الدين، أصله من شيراز، وقدم بغداد سنة أربع وثمانين، واستخدم في ديوان الانشاء، ترقى إلى الوزارة وقرأ الأدب على أبي السعادات ابن الشجري، وكان داهية له خبرة بأمور الحرب، وفتح البلاد، وكان الناصر الخليفة يثني عليه ويقول: لو قبلوا من رأيه ماجرى ماجرى، ولقد أتعب الوزراء بعده، وكان الخليفة قد سلم إليه ابن يونس استاذ الدار لما قبض عليه، فسلمه ابن القصاب إلى ولده أحمد، ولما خرج عن بغداد كتب الوزير إلى ابنه أحمد وهي له:

يـــا خـــازن النـــار خـــذ إليـــك أبـــا
الســـائب حلـــف الفضـــول والحمـــق
ولا تكلـــــــه إلى زبـــــــانيـــــــة
يـــأخـــذهـــم بـــالخداع والملـــق
فلســـت تـــدري أي ابـــن زانيـــة
عنـــدك ملقـــى في القـــد والحلـــق

وقيل إن رأس المؤيد ابن القصاب دفن بالري بعد أن طافوا به البلاد، ومن العجائب أنه وصل خبره مع الركابية يوم الجمعة رابع عشر شعبان، وقد اجتمع على باب ولده شمس الدين أحمد أرباب الدولة ليعبروا في خدمته إلى تربة الخلاطية نيابة عن أبيه، فجاء خادم من عند الخليفة فرد بابه وصرف أرباب الدولة عن بابه، ونقل ابنه من دار الوزارة التي تقابل باب المتولي وأسكنها ناصر بن مهدي.

وفيها: توفي أبو شجاع محمد بن علي بن شعيب بن الدهان الفرضي الحاسب البغدادي، وكان فاضلا وصنف تاريخا من سنة عشر وخمسمائة إلى هذه السنة، وكانت وفاته بالحلة السيفية، وكان قدم الشام ومدح

الشيخ تاج الدين الكندي، واسمه زيد بن الحسن، رحمهما الله تعالى بأبيات حسنة فقال:

لا بدل الله حالا قد حباك بها
مادار بين النحاة الحال والبدل

النحو أنت أحق العالمين به
أليس باسمك فيه يضرب المثل

وفيها: في رجب توفي ابن المعلم الشاعر، واسمه أبو الغنائم محمد بن علي بن فارس الهرثي —والهرث بضم الهاء وسكون الراء وآخره ثاء مثلثة، قرية تحت واسط في نهر جعفر، بينها وبين واسط عشرة فراسخ— توفي ابن المعلم بها وأصله منها، وكان رقيق الشعر، مليح المعاني أكثر في الغزل، ووصف المحبة والشوق والصبابة فمالت القلوب إليه، ومولده سنة إحدى وخمسمائة، ومدح الأمراء والرؤساء والأعيان، وديوانه مشهور ومن شعره:

يا نازلين الحمى رفقا بقلب فتى
إن صاح للبين داع باح مضمره
لاتحسبوا الصد عن عهدي يغيرني
غيري ملازمة البلوى تغيره
وماذكركم إلا وهمت جوى
وآفة المبتلى فيكم تذكره
يزداد في مسمعي تكرار ذكركم
طيبا ويحسن في عين تفكره

وقال ابن المعلم: اجتزت ببغداد بباب بدر تحت منظرة الخليفة وقد ازدحم الناس، فقلت: ماهذا؟ قالوا: الشيخ أبو الفرج ابن الجوزي جالس، فزاحمت الناس حتى شاهدته وهو يعظ فاستشهد بهذا البيت:

يـــزداد في مسمعـــي تكـــرار ذكـــركـــم
طيبـــا ويحســـن في عينـــي تفكـــره

ثـم قال: لقـد أحسن ابـن المعلم حيـث يقول هـذا البيت، فتعجبت حيث اتفق حضـوري وانشاد الشيخ هذا الشعر، ولم يعرفنـي هو، ولاأحد من الحاضرين.

وفيها: في ثالث صفـر توفي الفخر النوقاني الشافعـي، واسمه محمد بن أبي علي، ولـد سنـة عشر وخمسمائة، وتفقـه على محمد بـن يحيى صاحـب الغـزالي، وقدم بغـداد فـاستوطنهـا، وولي التدريـس بمـدرسة أم الخليفـة المجاورة لتربتهـا عند قبر معـروف، وكان فـاضلا منـاظرا، ولـه تصانيـف وجـدل، خرج حـاجـا وعاد إلى الكـوفـة وهو مـريـض، فتوفي بها ودفـن بمشهد أمير المؤمنين.

وفيها: تـوفي الصدر ابن الخجنـدي واسمه محمـد بن عبد اللطيـف بن محمد، أبـو بكر رئيس أصبهان وابـن رئيسها، وبيتـه مشهور بـالرئاسـة، والتقـدم والجاه العظيم، قـدم بغـداد في سنـة ثمان وثمانين، فأنعـم عليـه الخليفة إنعـاما كثيرا، وقربـه وخلع عليه واحترمـه وولاه تدريس النظـامية وأوقـافها، فلما خـرج الوزيـر ابـن القصاب إلى همذان خـرج معه ودخـل معهم إلى أصبهان، وولى ابن القصاب سنقر الطـويل أصبهان، وكان ابن الخجندي ليـس على يده يد، فحسده سنقـر الطويل على مكانتـه فجرت بينهما منافرة، وقيل اتهموه بمكاتبة خوارزم شاه فذبحوه.

وفيها: توفي المجير مـدرس النظامية، واسمه محمود بـن المبارك بن علي ابـن المبـارك أبـو القـاسـم، ولـد في رمضـان سنـة سبع عشرة وخمسمائة واشتغل بالأصولين، المذهب، وعلم النظر، والحساب وبرع فيها، وقرأ على أبي الفتـوح الاسفـرائينـي وغيره، وسمـع الحديـث، وكـان تفقـه أولا على مذهب أحمد بن حنبـل، ثم انتقل إلى مذهب الشافعـي، وأعطي تدريس

النظامية وخرج إلى همذان فتوفي بها في ذي القعدة سمع قاضي المارستان وأبا القاسم ابن السمرقندي، والأنماطي وغيرهم وكان صالحا دينا ثقة.

وفيها: توفي زعيم الدين ابن الناقد، واسمه نصر بن علي بن محمد أبو طالب، ولي حجبة الباب ثم ولي صاحب ديوان،ثم ولي المخزن وهو الملقب بقنبر، وإنما لقب قنبر لأنه صاد ولده قنبرا وخبأه إلى جانب مسنده، فخرج القنبر فصاح قنبر قنبر، فلقب به، وكان إذا بلغه أن أحدا لقب قنبر يسعى في هلاكه، وقيل إنه كان يميل إلى التشيع، وكانت عمامته طويلة فلقبه أهل باب الأزج قنبر —وهو ذكر العصافير— وكان إذا ركب صاحوا: قنبر قنبر، وقرب العيد فأمره الخليفة بالركوب في صدر الموكب، فجمع العوام قنابر كثيرة وعزموا على أن يرسلوها حوله في الموكب، وقيل للخليفة إن وقع هذا بقي الموكب هتكة فعزله وولى أبا سعيد بن المعوج.

وفيها: جاء في جمادى الآخرة من نقل الخبر بوفاة سابق الدين عثمان صاحب شيزر بها إلى دمشق، وعمل عزاه بالكلاسة، وهو أحد أولاد الداية الأربعة، وأمهم داية نور الدين بن زنكي رحمه الله تعالى.

ثم دخلت سنة سبع وتسعين وخمسمائة

ففيها: توفي بهاء الدين قراقوش الأسدي، وقيل أنه لم يكن مملوكا لأسد الدين وإنما كان لابن الطقطقى فصحب أسد الدين، وتقدم عنده بعد وفاة سيده.

وفيها: كانت حوادث كثيرة عظيمة منها هبوط نيل مصر، فهرب الناس إلى المغرب، والحجاز، واليمن، والشام وتفرقوا أيدي سبأ، ومزقوا كل ممزق أعظم من سنة اثنين وستين وأربعمائة في أيام الملقب بالمستنصر ابن الظاهر بن الحاكم أحد الخلفاء المصريين، فإن الناس في هذه السنة كان الرجل يذبح ولده الصغير وتساعده أمه على طبخه وشيه، وأحرق السلطان جماعة فعلوا ذلك ولم ينتهوا، وكان الرجل يدعو صديقه وأحب الناس إليه إلى منزله ليضيفه فيذبحه ويأكله، وفعلوا كذلك بالأطباء كانوا يدعونهم ليبصروا المرضى فيقتلونهم ويأكلونهم، وفقدت الميتات والجيف من كثرة ماأكلوها، وكانوا يخطفون الصبيان من الشوارع فيأكلونهم، وكفن السلطان في مدة يسيرة مائتي ألف وعشرين ألفا، وامتلأت طرقات المغرب والحجاز والشام برمم الناس، وصلى إمام جامع الاسكندرية في يوم على سبعمائة جنازة.

قال العز بن تاج الأمناء: وجاءت في شعبان زلزلة هائلة من الصعيد فعمت الدنيا، في ساعة واحدة هدمت بنيان مصر، فمات تحت الهدم خلق كثير، ثم امتدت إلى الشام والساحل فهدمت مدينة نابلس فلم يبق فيها جدار قائم إلا حارة السامرة، وكان اشتداد الغلاء والوباء بالديار المصرية من شهر رمضان بحيث بلغ ثمن الأردب ستة دنانير مصرية، وخلا أهل الأعمال، وصار إلى بلاد الفرنج منهم جمع حملوا إلى الجزائر البحرية، وأقر كثير ممن تفرق في البلاد الاسلامية بالعبودية لمن يؤويه

ويطعمه، وأشرفت الأعمال المصرية على الخراب الكلي لولا تدارك لطف الله تعالى بإجراء نيلها، والاسعاد بما كان للملك العادل فيها من الغلال التي صرفها في تقاوي البلاد ومؤن وإعانة، وبيعا، وصدقة فتماسك من كان مقيما بها، وتراجع إليها من قدر على الرجوع من أهلها.

قال أبو المظفر: ومات تحت الهدم ثلاثون ألفا وهدمت عكا، وصور وجميع قلاع الساحل، وامتدت إلى دمشق فرمت بعض المنارة الشرقية بجامع دمشق، وأكثر الكلاسة، والبيمارستان النوري وعامة دور دمشق إلا القليل، وهرب الناس إلى الميادين وسقط من الجامع ست عشرة شرفة وتشققت قبة النسر، وتهدمت بالناس وهو بين بين، وخرج قوم من بعلبك يجنون [٩] الرياس من جبل لبنان فالتقى عليهم الجبلان فماتوا بأسرهم، وتهدمت قلعة بعلبك مع عظم حجارتها ووثيق عمارتها وامتدت إلى حمص، وحماة، وحلب، والعواصم وقطعت البحر إلى قبرص وانفرق البحر فصار أطوادا، وقذف بالمراكب إلى الساحل فتكسرت، ثم امتدت إلى أخلاط، وأرمينية، وأذربيجان، والجزيرة، وأحصي من هلك في هذه السنة على سبيل التقريب فكان ألف ألف انسان ومائة ألف انسان، وكانت قوة الزلزلة في مبدأ الأمر بمقدار مايقرأ الانسان سورة الكهف، ثم دامت بعد ذلك أياما، نقلت جميع ذلك من تاريخ أبي المظفر سبط ابن الجوزي رحمه الله.

قال: وفي مستهل ذي القعدة حوصرت دمشق، جاء الأفضل، والظاهر وكان العادل بمصر، وجاء حسام الدين بشارة من بانياس نجدة لهما فقاتلوا دمشق أياما، وكان بها المعظم عيسى بن العادل، وبلغ العادل فجاء ونزل نابلس وبعث فأصلح الأمراء، وزحف الأفضل، والظاهر فوصلوا إلى باب الفراديس، وأحرقوا فندق تقي الدين، فقاتلهم المعظم وحفظ البلد فأقاموا نحو شهرين، وبعث العادل فأوقع الخلف بين

الأخوين، فرحلوا سلخ ذي الحجة، وجاء العادل فدخل دمشق ومضى المعظم،وشركس، وقراجا فحاصروا بانياس وبها حسام الدين بشارة فقاتلهم فقتل ولده وأخرجوه من البلاد وتسلمها شركس، وتسلم قراجا صرخد وحج بالناس طاشتكين، وكان الخليفة قد أفرج عنه ورد إليه أقطاعه وماله.

وفيها؛ توفي عز الدين إبراهيم بن المقدم، وكان شجاعا عاقلا وله قلعة بارين، وفامية، ومنبج، والراوندان، ودفن بدمشق بمقبرة باب الفراديس، وكان له بنات وابن وهو المقتول بعرفات.

وفيها توفي ناظر نهر الملك ببغداد، واسمه ابراهيم، بن محمد بن إبراهيم، وكان متزهدا يلبس القطن الفوط ويعدل في الرعية ويحسن اليهم، أمر الخليفة الناصر بصلبه فصلب على كرسي جسر بغداد، وعليه القميص الفوط على جانب نهر عيسى، فمر به الخليفة وهو مصلوب في وسط الجذع ، فقال: يتنمس علينا ارفعوه إلى رأس الجذع، وكان شجاعاً مهيبا وحزن الناس عليه.

وقبل ذلك في سنة ست وثمانين واقعة أبشع من هذه، وكان ببغداد عبد الرشد بن عبد الرزاق الكرجي —بالجيم— الصوفي يتفقه بدار الذهب، وكان ورعا عاقلا عابدا، وكان ببغداد صوفي يقال له النفيس يضحك منه ويسخر به، وكان يدخل على الخليفة فدخل يوما مدرسة دار الذهب فجعل يتمسخر، فقال له الكرجي: اتق الله نحن نبحث العلم وأنت تهزل ماهذا موضعه، فدخل على الخليفة وبكى بين يديه وقال: ضربني الكرجي وعيرني، فغضب الخليفة وأمر بصلبه، فأخرج وعليه ثوب ازرق من ثياب الصوفية إلى الرحبة ونصبوا له خشبة ليصلبوه، فقال: دعوني أصلي ركعتين فصلى وصلبوه، فجاء خادم من عند الخليفة فقال: لاتصلبوه وقد فات فلعن الناس النفيس الصوفي

وبقي أياما لايتجاسر يظهر ببغداد، ورأى الكرجي بعض الصالحين في المنام فقال: مافعل الله بك؟ فقال: وقفني الحق بين يديه، فقلت: ياإلهي رضيت ماجرى علي؟ فقال: أو ماسمعت ماقلت في كتابي:(ولاتحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا)[١٠] الآية، أي أني أردت أن تصل إلى مرتبة الشهداء.

وفيها: توفي الشيخ أبو الفرج ابن الجوزي الواعظ، واسمه عبد الرحمن ابن علي بن محمد بن علي بن عبد الله بن عبد الرحمن بن القاسم بن محمد ابن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، أبو الفرج ابن أبي الحسن القرشي التيمي، وجعفر الجوزي منسوب إلى فرضة من فرض البصرة، يقال لها جوزة، وفرضة النهر ثلمته التي يستقى منها، قال سبطة أبو المظفر: ولد جدي ببغداد بدرب حبيب في سنة عشر وخمسمائةتقريبا، وتوفي أبوه وله ثلاث سنين، وكانت له عمة صالحة، وكان أهله تجارا في النحاس، ولهذا رأيت في بعض سماعاته: وكتب عبد الرحمن الصفار، فلما ترعرع حملته عمته إلى مسجد أبي الفضل بن ناصر فاعتنى به وأسمعه الحديث، وقرأ القرآن وتفقه، وقد ذكر من مشايخه في المشيخة نيفا وثمانين شيخا، وعني بأمره شيخه ابن الزاغوني وعلمه الوعظ واشتغل بفنون العلم، وأخذ اللغة عن أبي منصور الجواليقي، وصنف الكتب في فنون قيل بلغت مصنفاته نحو ثلاثمائة مصنف، وحضر مجالسه الخلفاء والوزراء والأمراء والعلماء، والأعيان وأقل ماكان يحضر مجالسه عشرة آلاف، وربما حضر عنده مائة ألف، وأوقع الله له في القلوب القبول والهيبة، وكان زاهدا في الدنيا متقللا عنها، وسمعته يقول على المنبر في آخر عمره: كتبت بإصبعي هاتين ألفي مجلدة، وتاب على يدي مائة ألف، وأسلم على يدي عشرة آلاف يهودي ونصراني، وكان يجلس بجامع القصر بالرصافة، وجامع المنصور وباب بدر، وتربة أم الخليفة وغيرها وكان يختم القرآن في كل سبعة أيام ولايخرج من بيته إلا إلى الجامع للجمعة، وللمجلس ومامازح

أحد قط، ولالعب مع صبي، ولا أكل من جهة لايتيقن حلها، ومازال على ذلك الأسلوب حتى توفاه الله تعالى.

وقد ذكرنا محنته التي زاحم بها الأنبياء، والعلماء، والفضلاء، والأولياء وتلقى ذلك بالصبر والحمد والشكر، وقد أثنى عليه العلماء فذكره أبو عبد الله محمد بن الدبيثي في الذيل الذي ذيله على تاريخ السمعاني فقال:

شيخنا الإمام جمال الدين ابن الجوزي صاحب التصانيف في فنون العلم من التفاسير، والفقه، والحديث والتواريخ وغير ذلك، وإليه انتهت معرفة الحديث وعلومه، والوقوف على صحيحه من سقيمه، وله فيه المصنفات من المسانيد والأبواب والرجال، ومعرفة الأحاديث الواهية، والموضوعة، والإنقطاع والإنفصال، وكان من أحسن الناس كلاما وأتمهم نظاما، وأعذبهم لسانا، وأجودهم بنانا.

تفقه على أبي بكر الدينوري، وقرأ الوعظ على الشريف أبي القاسم العلوي وأبي الحسن بن الزاغوني ، وبورك له في عمره وعمله، فروى الكثير، وسمع الناس منه أكثر من أربعين سنة، وحدث بمصنفاته مرارا.

قال: وأنشدني بواسط لنفسه:

يا ساكن الدنيا تأهب
وانتظر يوم الفراق
وأعد زادا للرحيـ
ـل فسوف تحدي بالرفاق
وابك الذنوب بأدمع
تنهل من سحب المآق
يا من أضاع زمانه
أرضيت ما يفنى ببـاق

فصل

في نتف من كلامه:

قال لـه قائل: مـانمت البارحـة من شوقـي إلى المجلس، فقـال: نعم، لأنك تريد أن تتفرج، وإنما ينبغي أن لاتنام الليلة لأجل ماسمعت.

وقيل له: إن فلانا أوصى عند الموت، فقال: طين سطوحه في كانون .

وقال له قـائل: أيما أفضل أسبح، أم أستغفر؟ فقـال: الثياب أحوج إلى الصابون من البخور.

وقال في قوله عليه السلام:« أعمار أمتي مابين الستين إلى السبعين»(١١) إنما طالت أعمار القدماء. لطول البادية، فلما شارف الركب بلد الإقامة قيل حثوا المطي.

ووعظ الخليفـة يومـا فقال: يـاأمير المؤمنين إن تكلمت خفـت منك، وإن سكت خفت عليك، فأنا أقـدم خوفي عليك على خوفي منك لمحبتي لدوام أيـامك، إن قـول القائل اتـق الله خير من قـول القائل إنكـم أهل بيت مغفور لكم، وقد قال الحسن البصري: لئـن تصحب أقواما يخوفونك حتـى تبلغ المأمـن خير مـن أن تصحـب أقوامـا يـؤمنـونك حتـى تبلـغ المخاوف، وكـان عمر بن الخطـاب يقول: إذا بلغني عـن عامل أنـه ظلم الرعية، ولم أغيره فأنا الظالم.

ياأمير المؤمنين: كان يوسف عليه السـلام لايشبع في زمان القحط لئلا ينسـى الجياع، وكـان عمـر يضرب بطنه عـام الرمـادة ويقـول: قرقـر إن شئـت أو لاتقـرقـر فـوالله لاشبعت والمسلمـون جياع ، فتصـدق الخليفـة المستضىء بصدقات كثيرة وأشبع الجياع، وأطلق الحبوس.

وقال في قول فرعون :(أليس لي ملك مصر)[١٢] ، أيفتخر فرعون بنهر ماء أجراه ماأجرأه، وقال في قصة الذين عبدوا العجل: لو أن الله خار لهم ماخار لهم.

وذكر قصة معاذ بن جبل في القراءة، فقال: طاب له ارتضاع ثدي التلاوة فمر على وجهه، فقيل له : أفتان أنت؟ ليس الكل على طريقتك، الولد لاتعد عليه الرضعات إنما تعد على الأجانب لاثبات نسب الرضاع.

وقال يوما وقد طرب أهل المجلس: فهمتم، فهمتم.

وسئل عن قوله عليه السلام:« لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله». فأعطاها عليا، فأين كان أبو بكر؟ فقال: لما كان يوم بدر قام أبو بكر ليقاتل، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم:«متعنا بنفسك»، ولما كان يوم خيبر سلم الراية إلى علي فقال له:« أخرج» فقعود من قعد بالأمر كخروج من خرج بالأمر. ولكن في قوله متنعا بنفسك، فضيلة.

وسئل ، لم لم ينص النبي صلى الله عليه وسلم على خلافة أبي بكر؟ فأجاب: إنه قد جرت أشياء تجري مجرى النص منها قوله:«مروا أبا بكر فليصل بالناس»، و«اقتدوا باللذين من بعدي» و«هلموا أكتب لأبي بكر كتابا لئلا يختلف عليه المسلمون» فهذه أحاديث تجري مجرى النص، فهمها الخصوص غير أن الرافضة في إخفائها كاللصوص.

قال السائل: لما قال: أقيلوني، ماسمعنا مثل جواب علي: والله لاأقلناك، فقال: لما غاب علي عن البيعة في الأول أخلف مافات بالمدح في المستقبل ليعلم السامع والرائي أن بيعة أبي بكر وإن كانت من ورائي فهي رأيي، ومثل ذلك الصدر لايرائي، وماأحسن استدلاله حين قال: رضيك رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا أفلا نرضاك لدنيانا.

وسأل سائل: ماالذي وقر في صدر أبي بكـر؟ فقال: قوله ليلة المعراج: إن كان قال فقد صدق فله السبق.

وسأل آخر: سيف علي نزل من السماء فسعفة أبي بكر من أين؟ فقال: إن سعفة أبي بكر هزت يـوم الردة فأثمرت سبيا جاء منـه مثل ابن الحنفية لأمضى من سيوف الهند.

ثم قال: ياعجبـا الرافضة إذا مات لهم مبت تركوا معـه سعفة من أين ذا الصلح؟! .

سأل سائل: مامعنى قولـه صلى الله عليه وسلم:« من أراد أن ينظر إلى ميـت يمشي على وجه الأرض فلينظـر إلى أبي بكر»؟ فقـال: الميت يقسـم ماله، ويلبس الكفن، وأبو بكر أخرج المال كله وتجلل بالعباء.

وقال في قولـه تعالى:(ونزعنا مافي قلـوبهم من غل)[١٣] قال علي: والله إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان، وطلحة، والزبير منهم.

ثم قال أبو الفرج: إذا أصطلح الخصوم فما بال النـظارة؟!

وقال: قال جبريل للرسول عليه السلام: سلم على عائشة ولم يواجهها بالخطاب احتراما لزوجها، وواجهه لمريـم لأنه ماكان لها زوج فمن يحترمها جبريل كيف يجوز في حقها الأباطيل.

وسئل عن لعنة يزيد بن معاويـة، فقال: قد أجاز أحمد بن حنبل لعنته ونحن نقول: مانحبه لما فعل بـابن بنت نبينا، وحمله آل رسول الله صلى الله عليـه وسلـم سبـايـا إلى الشـام على أقتـاب الجمال. وتجرئه على الله

ورسوله رضيتم بهذه المصالحة في قولنا: مانحبه وإلا رجعنا إلى أصل الدعوى يعني جواز لعنته، ثم قال: أما أبوه ففي خفارة« الصبحة» فدعوه من أيديكم وأنتم في حل من الابن، قال: وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:« من دخل دار أبي سفيان فهو آمن» وما رآها يزيد قط ودخلها.

ثم قال: لاتدنسوا وقتنا بذكر من ضرب بالقضيب ثنايا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلها، وجعلها يزيد غرضا لبلوغ غرضه.

قلت: كان أبو الفرج رحمه الله مبتلى بالكلام في مثل هذه الأشياء، لكثرة الرافضة ببغداد وتعنتهم له في السؤالات فيها، وكان بصيرا بالخروج منها بحسن إشارته، وذكر يوما حديث داود وهبة آدم له من عمره ستين سنة، وأن الله تعالى أتم لداود مائة ولآدم ألفا، ثم قال: المتوسط بين اثنين إذا كان كريما غرم.

ولأبي الفرج أشعار كثيرة، قيل إنها نحو عشر مجلدات، وقد ذكره العماد الكاتب في الخريدة وأثنى عليه فمن الأشعار المنسوبة إليه:

يا صاحبي إن كنت لي أو معي
فعج على وادي الحمى نرتع
وسل عن الوادي وسكانه
وانشد فؤادي في ربا المجمع
حي كثيب الرمل رمل الحمى
وقف وسلم لي على لعلع

واسمع حديثا قد روته الصبا
تسنده عن بانة الأجرع
وابك فما في العين من فضله
ونب فدتك النفس عن مدمعي

وانـــــزل على الشيـــــح بـــــواديهم
وقـــل ديـــار الظـــاعنين اسمعـــي
رفقـــا بنضـــو قـــد بـــراه الأســـى
يـــا عـــاذلي لـــو كـــان قلبـــي معـــي
لهفـــي على طيـــب ليـــال خلـــت
عـــودي تعـــودي مـــدنفـــا قـــدنعـــي
إذا تـــذكـــرت زمـــانـــا مضـــى
فـــويـــح أجفـــاني مـــن مـــدمعـــي
يـــانفـــس كـــم أتلـــو حـــديـــث المنـــى
ضـــاع زمـــاني بـــالمنـــى فـــاقطعـــي

ومنها:

في شغـــل مـــن الـــرقـــاد شـــاغـــل
مـــن هـــاجـــه البرق بسفـــح عـــاقـــل
يـــاصـــاحبـــي هـــذي ديـــار ربعهـــم
قـــــــــد أخبرت شمائل الشمائل
واطـــــربي إذا رأيـــــت أرضهـــــم
هـــــذا وفيهـــــا رميـــــت مقـــــاتلي
مـــا للصبـــا مـــولعـــة بـــذي الصبـــا
أصبـــا فـــوق الغـــرام القـــاتـــل
مـــا للهـــوى العـــذري في بـــلادنـــا
أيـــن العـــذيـــب مـــن قصـــور بـــابـــل
يـــابـــانـــة الشيـــح سقيـــت أدمعـــي
ولا ابتليـــــت بـــــالهوى تمايلي
ميلـــك عـــن زهـــو وميلي أســـى
مـــاطـــرب المخمـــور مثـــل الثـــاكـــل
لله در العيـــــش في ظـــــلالهم
ولي وكـــم أســـار في المفـــاصـــل

ومنها:

تملكـــــــوا واحتكمــــــوا وصـــــــار قلبـــــــي لهم

تصرفـــــوا في ملكهـــــم فـــــلا يقـــــال ظلمـــــوا

إن وصلـــــوا محبهـــــم أو قطعـــــوا فهـــــم هـــــم

اصبر على مـــــا شـــــاءوا شـــــاء الـــــذي قـــــد حكمـــــوا

يـــــا ليـــــت شعـــــري إذ غـــــدوا أأنجـــــدوا أم أتهمـــــوا

تشتـــــاقهـــــم أرض منـــــى ومكـــــة وزمـــــزم

فصل

في وفاة أبي الفرج رحمه الله

جلس يوم السبت سابع رمضان تحت تربة أم الخليفة المجاورة لمعروف الكرخي، قال سبطة أبو المظفر: وكنت حاضرا، فأنشد أبياتا قطع عليها المجلس وهي:

الله أسأل أن تطول مدتي
وأنال بالإنعام ما في نيتي
لي همة في العلم ما من مثلها
وهي التي جنت النحول هي التي
خلقت من العلق العظيم إلى المنى
دعيت إلى نيل الكمال فلبت
كم كان لي من مجلس لو شبهت
حالاته لتشبهت بالجنة
أشتاقه لما مضت أيامه
عطلا وتعذر ناقة إن حنت
ياهل لليلات تقضت عودة
أم هل إلى وادي منى من نظرة
قد كان أحلى من تصاريف الصبا
ومن الحمام مغنيا في الأيكة
فيه البديهات التي مانالها
خلق بغير تصبر ومبيت
برجاحة وفصاحة وملاحة
يقضي لها عدنان بالعربية
وبلاغة وبراعة ويراعة
ظن النباتي أنها لم تنبت
وإشارة تبلي الأديب وصحبة
في رقة ماقالها ذو الرمة

قلت: أظن هذه الأبيات نظمها في أيام محنته إذ كان محبوسا بواسط، فمعانيها دالة على ذلك، والله أعلم.

ثم قال أبو المظفر: ونزل من المنبر فمرض خمسة أيام، وتوفي ليلة الجمعة بين العشائين في داره ببغداد.

قال: وحكت لي والدتي رحمها الله أنها سمعته يقول قبيل موته: إيش أعمل بطواويس —يرددها— قد جبتم لي هذه الطواويس.

وحضر غسله شيخنا ضياء الدين ابن الجبير وقت السحر، واجتمع أهل بغداد وغلقت الأسواق، وجاء أهل المحال، وشددنا التابوت بالحبال وسلمناه إليهم، فذهبوا به إلى تحت التربة مكان جلوسه فصلى عليه ابنه أبو القاسم علي اتفاقا، لأن الأعيان لم يقدروا على الوصول إليه، ثم ذهبوا به إلى جامع المنصور فصلوا عليه وضاق بالناس، وكان يوما مشهودا لم نصل إلى حفرته عند قبر أحمد بن حنبل إلى وقت صلاة الجمعة، وكان في تموز وأفطر خلق كثير ممن صحبه ورموا نفوسهم في خندق الظاهرية في الماء وماوصل إلى حفرته من الكفن إلا قليل، وأنزل في الحفرة والمؤذن يقول: الله أكبر، وحزن الناس عليه حزنا شديدا، وبكوا بكاء كثيرا، وباتوا عند قبره طول شهر رمضان يختمون الختمات بالقناديل والشموع والجماعات، ورآه تلك الليلة رجل صالح في منامه وهو على منبر من ياقوت مرصع بالجواهر وهو جالس في مقعد صدق والملائكة جلوس بين يديه، والحق سبحانه حاضر، يسمع كلامه. قال: وأصبحنا يوم السبت عملنا عزاءه، وتكلمت فيه وحضر خلق عظيم.

قال: ومن العجائب إنا كنا جلوسا عند قبره عند انفضاض العزاء، وإذا بخالي محيي الدين يوسف قد صعد من الشط وخلفه تابوت فعجبنا وقلنا: ترى من مات في الدار؟ و إذا بها خاتون أم ولد جدي، والدة محيي

الدين وعهـدي بها في ليلة الجمعة التي مـات فيها جدي في عافيـة قائمة ليس بها مـرض، فكان بين موتها ومـوته يوم وليلـة، وعد الناس ذلـك من كراماته لأنه كان مغرى بها في حـال حياته، وأوصى جدي أن يكتب على قبره:

يـا كثير العفـو عمـن ... كثـر الـذنـب لـديـه
جـاءك المذنـب يـرجـو الـ ... ـصفح عـن جـرم يـديـه
أنـا ضيـف وجـزاء الضـ ... ـيف إحسـان إليـه

وفي هذا البيت تضمين.

obeikandl.com

فصل

في ذكر أولاده

قال أبو المظفر:وكان له من الأولاد الذكور ثلاثة: عبد العزيز، وهو أول أولاده، وأبو القاسم علي، وأبو محمد يوسف، فأما عبد العزيز وكنيته أبو بكر: تفقه على مذهب أحمد وسمع أبا الوقت، وابن ناصر، والأرموي، وجماعة من مشايخ والده، وسافر إلى الموصل ووعظ وحصل له القبول التام، فيقال إن بني السهروردي حسدوه فدسوا إليه من سقاه السم فمات بالموصل سنة أربع وخمسين في حياة والده.

وأما أبو القاسم: فكتب الكثير، وسمع الحديث من ابن البطي وغيره، وهو الذي أظهر مصنفات والده وباعها مع العسر فيمن يزيد، ولما مضى والده إلى واسط كانت كتبه في داره بدرب دينار، فتحيل عليها بالليل والنهار حتى أخذ منها ماأراد وباعها ولابثمن المداد، وكان أبوه قد هجره منذ سنين، فلما امتحن أبوه صار إلبا عليه للمعادين، وتوفي سنة ثلاثين وستمائة وله ثمانون سنة.

وأما أبو محمد يوسف ولقبه محيي الدين، فولد في سنة ثمانين وخمسمائة، وسمع الحديث الكثير وتفقه ووعظ بعد وفاة أبيه تحت تربة والدة الخليفة، وقامت بأمره أحسن قيام، ثم ولي الحسبة في جانبي بغداد في سنة أربع وستمائة إلى تسع وستمائة، ثم وليها من سنة خمس عشرة وستمائة إلى ..... وسلك طريق العقل، والسداد وترسل عن الخلفاء إلى الملوك، وأول ترسله عن الإمام الظاهر ابن الناصر في سنة ثلاث وعشرين وستمائة إلى أولاده العادل:الأشرف.والمعظم.والكامل، وآخر ماانفصل عن الشام في سنة خمس وثلاثين وستمائة إلى بغداد، وفي تلك السنة توفي صاحب الروم والأشرف والكامل، ثم ولي أستاذية الدار في سنة أربعين للإمام المستعصم بن المستنصر بن الظاهر.

قلت: وبقي على ذلك إلى أن قتله التاتار لعنهم الله سنة استولوا على بغداد وهي سنة خمس وخمسين وستمائة مع من قتلوه من الأكابر الذين خرجوا مع الخليفة إليهم على ماسنذكره إن شاء الله.

قال أبو المظفر: كان لجدي عدة بنات منهن والدتي رابعة، وشرف النساء، وزينب وجوهرة وست العلماء الكبرى، وست العلماء الصغرى، وكلهن سمعن الحديث من جدي وغيره:

وقال الشيخ أبو الفرج في كتابه المنتظم في أخبار سنة إحدى وسبعين خمسمائة وفي هذه السنة عقد عقد ابنتي رابعة بباب حجرة الخليفة، وحضر قاضي القضاة والعدول والخدم والأكابر على أبي الفتح بن رشيد الطبري، قال: وزوجت ابني أبا القاسم بابنة الوزير يحيى بن هبيرة في ذلك اليوم، وكان الخاطب ابن المهتدي[١٤].

قال أبو المظفر: هذه رابعة والدتي هي تزوجها ابن رشيد الطبري، وهو أو ل أزواجها ولم يطل عمره معها، ثم زوجها جدي بوالدي بعد موت ابن رشيد، وقد سمعت الحديث على ابن البطي، وثابت بن بندار، ومعظم مشايخ جدي، قال أبو الفرج: وزفت إلى ابن رشيد في المحرم سنة اثنتين وسبعين في دار الجهة بنفشا جهة الخليفة، وجهزتها بمال عظيم.

قال أبو المظفر: ماقصد جدي بهذا الكلام إلا الإعلام بمكانته وعلو منزلته عند الخليفة، وإن أحدا من أبناء جنسه لم يصل إلى مرتبته.

فصل

وفي هذه السنة أيضا وهي سنة سبع وتسعين وخمسمائة توفي في مستهل شهر رمضان العماد الكاتب الأصفهاني، وكان كاتب الإنشاء في الدولتين النورية، والصلاحية، وكان مبرزا في النظم والنثر، عارفا بالأدب، حافظا لدواوين العرب، وقد ذكرت له ترجمة حسنة في تاريخ دمشق في حرف الميم، وأخباره مفرقة في كتابي الذي سميته بالروضتين، وقد ذكر هو نفسه أيضا في كتابه الذي سماه بالخريدة ومن شعره:

بالله يا ريح الشمال تحملي
مني التحية نحو ذاك المنزل
خفي على حمل السلام وخففي
عن قلب صب الصبابة مثقل
قولي لمن شغل الفؤاد بحبه
ويخال أن فؤاده منه خلي
حلت عقود دموعه وعقوده
وعهوده معقودة لم تحلل
سقيا الأحباب تبدل ودهم
بعدي ولم أنقض ولم أتبدل
الطاعنين وودهم مستوطن
والراحلين وذكرهم لم يرحل
في بعدهم حال المعنى المبتلى
حزنا وعين الساهر المتململ
يا راكبا يطوي الفلا مستعجلا
هيجت أحزاني فلا تستعجل
أقفلت باب مسرتي وفتحت من
دمعي وحزني كل باب مقفل
عرج وعج نحو الحمى سقي الحمى
أعدل فليس عن الحمى من معدل

ومنه

أيـــاســـاكنـــامصر عفـــاالله عنكـــم
وعفـــاكـــم ممـــاألاقيـــه منكـــم
أبيـــت على هجـــرانكـــم متنـــدمـــا
ومـــن ينـــأعنكـــم كيـــف لايتنـــدم
فـــإن كنتـــم لم تعلمـــوا مـــالقيتـــه
مـــن الـــوجـــدوالأشـــواق فـــالله يعلـــم
بقيتـــم وعشتـــم ســـالمين مـــن الأذى
ومنيـــة قلبـــي أن تعيشـــواوتسلمـــوا.

وفيها: تـوفي مكلبة بـن عبد الله المستنجدي، وكـان صالحا يقـوم الليل سمع المؤذن يقول وقت السحر في المئذنة:

يـــارجـــال الليـــل جـــدوا
رب صـــــوت لايـــــرد
مـــــايقـــــوم الليـــــل إلا
مـــن لـــه عـــزم وجـــد

فبكى مكلبة بكاء شديدا، وصاح: يامؤذن زدني، فقال المؤذن:
قـــدمضـــى الليـــل وولى
وحبيبـــــي قـــــد تجلى

فصاح مكلبة ومات. فأصبح جمع مـن أهل بغداد على باب داره، وكان يوما عظيما لم ير ببغداد مثله، فالسعيـد من وصل إلى كفنه ، وقطع الكفن ودفن بالوردية.

وفيها: توفي أبو منصور بن نقطة المزكلش كان يقول:

كان وكـان. ولايعرف الخط، وهو: أخـو عبد الغنـي بن نقطة الـزاهد، وهو: عبد الغني بـن أبي بكر بن شجاع، كان له زاويـة ببغداد يأوي إليها الفقراء، وكـان دينا جـوادا سمحا لم يكن ببغـداد في عصره من يقـارنه في التجـريد. كـان يفتح عليـه قبل غـروب الشمس بـألف دينـار فيفرقهـا، والفقـراء صيام لايـدخـر لهم منهـا شيئا ويقـول: نحـن لانعمـل بأجـرة —يعني لانصـوم ونذكر مـانفطر عليه— وكـانت والدة الخليفـة الناصر تحسن الظن به، زوجته بجارية مـن خواصها، ونقلت معها جهازا يساوي عشرة آلاف دينـار، فما حـال الحول وعنـده منه سـوى هـاون، فجـاء فقير فوقف على الباب وقال: لي ثلاثة أيـام ما أكلت شيئا، فأخـرج الهاون وقال: لاتشنـع على الله كـل بهذا ثلاثين يـومـا، وتـوفي عبد الغنـي رابـع جمادى الآخرة سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ودفن بزاويته.

وأخـوه أبـو منصـور ابـن نقطة المزكلـش كـان ينشـد كـان، وكـان في الأسواق، ويسحـر الناس في رمضـان، فقيل له: مـاتستحي أخـوك زاهد العراق، وأنت تزكلش في الأسواق فقال مواليا:

قـد خـاب مـن شبـه الجزعـة إلى الـدرة
وشـابـه قحبـة إلى مستجنـة حـرة
أنـا مغنـي وأخـي زاهـد إلى مـرة
في الـدار بئـريـن ذي حلـوة وذي مـرة

وأجـرى حـديـث قتـل عثمان وأن عليـا كـان بـالمدينـة ولم يقـدر على الوصول إليه، فقال ابن نقطة:

«ومن قتل في جواره مثل ابن عفان واعتذر»

«يجب عليه أن يقبل في الشام عذر يزيد»

فأراد الشيعة قتله،فوثب عليه ليلة، وكان يسحر الناس في شهر رمضان، وكان الإمام الناصر تلك الليلة في المنظرة وهو واقف يسحر ويقول: أي نياما: قوما. قوما السحور، قوما. فعطس الخليفة. فقال ابن نقطة: يامن عطس في الروزنة، يرحمك الله قوما. فبعث الخليفة إليه مائة دينار وحماه من الشيعة فمات بعد قليل.

وفيها: توفي مسند الشام في وقته أبو طاهر بركات بن ابراهيم بن طاهر الخشوعي، شارك الحافظ أبا القاسم في كثير من شيوخه الدمشقيين سماعا، والغرباء إجازة، وعمر حتى ألحق الصغار بالكبار، أخبرنا عنه جماعة رحمه الله.

ثم دخلت

سنة ثمان وتسعين وخمسمائة

والغلاء بمصر مستمر، ثم تناقص لاستقبال جمادى الآخرة لما ظهر من زيادة نيلها، وأقلع في أواخرها ولله الحمد.

قال أبو المظفر: كان الملك الأفضل بحمص عند شيركوه، وهو أخو زوجته سعدى ابنة ناصر من محمد بن شيركوه الكبير، فجاء إلى عمه العادل فالتقاه عند ثنية العقاب فأكرمه وعوضه عن ميافارقين سميساط وسروج، وقلعة نجم، وقرايا في المرج ومصر وتسلم الظاهر فامية من ابن المقدم، ونزل العادل على حماة فصالحه الظاهر ورجع العادل إلى حمص.

وجاءت في شعبان زلزلة عظيمة فشققت قلعة حمص، ورمت المنظرة التي على القلعة، وأخربت حصن الأكراد وتعدت إلى جزيرة قبرس، وامتدت إلى نابلس فأخربت مابقي.

وقال العز بن تاج الأمناء: هذه الزلزلة العظمى التي هدمت بلاد الساحل: صور، وطرابلس، وعرقة، وشعثت كثيرا من البلاد الاسلامية الشمالية، ورمت بدمشق رؤوس منائر الجامع، وبعض شراريفه من شماله فقتلت رجلا مغربيا بالكلاسة، ومملوكا تركيا لرجل صيرفي ساكن في درب السمسياطي عند تنفس الصبح من يوم الاثنين السادس والعشرين من شعبان، الموافق العشرين من آب وأعقبها زلزلة خفيفة في ضحوة الغد.

قال أبو المظفر: وفيها شرع الشيخ أبو عمر محمد بن أحمد بن محمد ابن قدامة شيخ المقادسة رحمه الله تعالى في بناء الجامع بالجبل، وكان بقاسيون رجل فامي يقال له أبو داود محاسن، فوضع أساسه وبلغ قامه، وأنفق عليه ماكان يملكه، وبلغ ابن زين الدين مظفر الدين صاحب

إربل فبعث إلى الشيخ أبي عمر مالا فتممه ووقف عليه وقفا، وبعد ذلك أراد ابن زين الدين ان يسوق الماء إليه من برزة، وبعث ألف دينار لذلك، فقال الملك المعظم عيسى بن العادل: طريق الماء كلها قبوروكيف يجوز أن تنبش عظام المسلمين، اشتروا بغلا واعملوا مدارا وبالباقي مكانا أوقفوه عليه، ولاتؤذوا أحدا، ففعلوا.

وحج بالناس من العراق وجه السبع. ومن الشام خشتر بن الهكاري.

وفيها: توفيت بنفشا ابنة عبد الله جارية المستضىء، وكانت كريمة صالحة كثيرة الصلاة والصدقات، عمرت الربط والمساجد والجسر ببغداد، وتصدقت بأموال كثيرة على العلماء والفقراء والمساكين، وهي التي اشترت دار الوزير ابن جهير بباب الأزج ووقفتها على الحنابلة، وفوضت نظرها إلى الشيخ أبي الفرج ابن الجوزي، وهي التي أشارت على المستضىء بولاية الإمام الناصر، وكان في عزمه أن يولي الخلافة ولده الأمير أبا منصور فرأى الناصر لها ذلك، فلما ولي الخلافة أنزلها في الدار التي كانت بها والدته وأحسن إليها، ولما توفيت تولى أمرها والدة الخليفة وجهزتها أحسن جهاز، ودفنتها في تربتها المجاورة لمعروف الكرخي وذلك في ربيع الأول.

وفيها: توفي أبو الثناء حماد بن هبة الله بن حماد الباخرزي، ولد سنة إحدى عشرة وخمسمائة، وهي السنة التي ولد فيها نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله تعالى، وسمع الحديث ببغداد، ومصر، والاسكندرية، سمع بمصر أبا محمد بن رفاعة السعدي، وبالاسكندرية الحافظ أبا طاهر السلفي، وببغداد ابن السمرقندي وغيرهم، وحدثنا عنه جماعة، ومات بحران في ذي الحجة وأنشد لنفسه:

تنقل المرء في الآفاق يكسبه
محاسنا لم يكن فيها ببلدته

أمـــا تـــرى بيـــدق الشطـــرنـــج أكسبـــه
مـــن التنقـــل فيهـــا فـــوق رتبتـــه

وفيها: توفي هبة الله بـن الحسن بن المظفر أبو القاسـم الهمذاني، ويقال له ابن السبط، والسبط هو جده المظفر، كان سبطا لأحمد بن علي بن لال الفقيـه الهمـذاني، ولـد هبة الله في سنـة عشر وخمسمائة وهـو محدث، ابـن محدث، وكانـت وفاته في بـاب المراتب ببغداد في المحـرم، ودفن بالـريان سمع أبا القـاسم بن الحصين وقاضي المارستان، وابن السمـرقندي وأنشد لغيره:

إذا الفتـــى ذم عيشـــا في شبيبتـــه
فمايقـــول إذا عصر الشبـــاب مضـــى
وقـــد تعـــوضـــت عـــن كـــل بمشبهـــه
فماوجـــدت لأيـــام الصبـــا عـــوضـــا

وفيها: توفي الشيـخ علي بن محمد بن غليس اليمني الـزاهد. كان مقيما بكـلاسة جـامع دمشـق في شرقيها، وتـوفي يوم الاثنين سـابع عشر شهـر رمضـان سنـة ثمان وتسعين وخمسمائة، ودفـن بمقبرة بـاب الصغير قبلي الحظيرة التي فيهـا قبر معاوية وغيره بغرب، وحكـي عنه كرامـات جليلة، حكى عنه جماعات من المشايخ السادة مثل شيخنا أبي الحسن السخاوي، وأبي القاسـم الصقلي، وأبي البركات ميمـون الضرير، وأبي الحسـن ابن أبي جعفر وغيرهم.

أخبرني أبو علي حسن بن عبد الله بن صدقة الصقلي، الشيخ الصالح، وفقـه الله قـال: سمعت شيخنـا السخـاوي يقـول: سمعت ابـن غليـس يقـول: كنت مسـافرا مـع قافلـة، فرأيـت في المنام كـأن سبعا اعترضهـم، فقطع الطريـق عليهم فوقفوا حائريـن، فتقدمت إليه وقلـت: ياكلب الله أنت كلـب، وأنا عبـد الله فاخضـع وارجع لمن سكـن له مـافي السموات

والأرض وهو السميع العليم، فذهب وانفتحت الطريق للقافلة، ثم انبهت فسرنا قليلا وإذا بالقافلة قد وقفت، فسألت: مالخبر؟ فقيل: السبع على الطريق فتقدمت إليه وهو مقع على ذنبه فقلت ذلك الكلام، وتقدمت إليه فادخلت يدي في فمه، وقلبت أسنانه وشممت من فيه رائحة كريهة.

قال الشيخ السخاوي: فقلت له: إنه يأكل اللحم ومايتخلل، قال: وأدخلت يدي فقلبت خصيتيه وإذا هما مثل خصيتي القط.قال: وأخبرني الشيخ ميمون الضرير عن صاحب لابن غليس قال: أمرني بإيقاد السراج، ولم يكن به زيت فأوقدت الفتيلة فوقدت، ثم أمرني في الليلة الثانية فأوقدتها فوقدت، ثم أمرني في الليلة الثالثة بايقادها، فقلت: أفلا زيت في السراج، قال: وإيش فضولك في هذا لو سكت لكانت تقد أبدا، أو كما أخبرني الشيخ أبو القاسم الفضل. قال: مات مهر لابن غليس، فحزن عليه كثيرا فقيل له: لم تحزن عليه؟ غيره يقوم مقامه، فقال إنه فرس صالح كان معي في سفري بالعراق فآواني الليل مع جماعة إلى قرية، وكانت ليلة باردة ذات ريح ومطر، فلم يقدر لنا مكان نأوي إليه إلا موضع صغير، فقلت لأصحابي: إن تركنا الفرس خارج البيت هلك بالبرد وخفنا عليه، وإن أدخلناه معنا خفنا من بوله وتلويثه الجماعة لصغر المكان، فتقدمت إليه وقلت له: نحن ندخلك معنا بشرط أن لاتفعل مايتأذى به الجماعة من بول وغيره، ثم أدخلناه فبات ليلته لم يتحرك بحركة يتأذى منها، ولم يبل، فلما أصبحنا أخرجناه معنا، فلما صار خارج الباب بال نحو قربة ماء، أو كمال قال، قال: وحدثني محمد بن أبي جعفر قال: ابن غليس مايسوى فليس، رحمه الله.

وفيها: توفي بدمشق خطيبها الدولعي الكبير، الملقب بضياء الدين، واسمه: أبو القاسم عبد الملك بن زيد بن ياسين التغلبي، والدولعية قرية من قرى الموصل، ولد سنة ثماني عشرة وخمسمائة قبل جمال الدين

ابن الحرستاني بسنتين، وقدم بغداد فتفقه بها على مذهب الشافعي، وسمع الحديث، ثم قدم دمشق فاستوطنها وصار خطيبها ودرس بالزاوية الغربية من جامع دمشق المنسوبة إلى الشيخ نصر المقدسي رحمه الله تعالى، وكان متزهدا، حسن الأثر، حميد الطريقة، مهيبا صارما في قول الحق سمع جامع الترمذي من أبي الفتح الكروخي، وكتاب السنن للنسائي من أبي الحسن علي بن أحمد اليزدي، وسمع من الحافظ أبي القاسم ابن عساكر، والقاضي أبي سعد بن أبي عصرون، وقرأ عليه الفقه وغيره، وكانت وفاته يوم الثلاثاء ثاني عشر ربيع الأول، ودفن بباب الصغير في قبور الصحابة، وقبره ثم مشهور يزار، وكانت جنازته مشهودة امتلأ بها جامع دمشق مثل صلاة يوم الجمعة، المسقف، والصحن، والرواقات وخارج الأبواب، حدثنا عنه والدي رحمه الله، وابن أخيه جمال الدين محمد الذي تولى الخطابة وغيرهما، وطلبه شرف الدين ابن عصرون أن ينوب عنه في القضاء فأبى، فاستناب جمال الدين بن الحرستاني، وأخبرني القاضي الخطيب عماد الدين ابن الحرستاني أن قاضي القضاة محيي الدين ابن الخطيب حضر إلى الجامع، وقدم ولده الزكي الطاهر، فصلى بالناس صلاة واحدة، وأراد أن يأخذ المنصب له، فمضى جمال الدين الدولعي، إلى علم الدين أخي السلطان فأخذ أخيه توقيعا بمنصب الخطابة مكان عمه فبقي فيه سبعا وثلاثين سنة على ماسنذكره في سنة وفاته، وهي سنة خمس وثلاثين وستمائة.

فيها توفي المؤيد أسعد بن القلانسي بدمشق فجأة، رابع عشر ربيع الآخر.

وفيها: توفي حسام الدين بشارة، الذي كان صاحب بانياس قبل شربس في السادس والعشرين من ربيع الآخر.

وفيها توفي قاضي دمشق محيي الدين أبو المعالي محمد بن علي بن محمد بن

يحيي القرشي، وجميع من ذكرنا من أجداده ولوا القضاء بدمشق، وجده الأعلى يحيى بن علي بن عبد العزيز، وهو جد الحافظ أبي القاسم بن عساكر لأمه، ويعرف بابن الصائغ، ذكره الحافظ في ترجمته وترجمة والده في تاريخ دمشق، وذكر أيضا ترجمة ولديه محمد بن يحيى، وسلطان بن يحيى وهما خالا الحافظ أبي القاسم، ولم يرفع نسب أحد منهم بما يتصل بأمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه كما تدعيه ذريته في زماننا، ولو كان ذلك الاتصال صحيحا لما خفي على الحافظ أبي القاسم، ولو كان يعرفه لما أغفل ذكر هذه المنقبة لأجداده وأمه وأخواله.

تولى أبو المعالي قضاء دمشق أولا نيابة عن الشيخ شرف الدين أبي سعد الله بن محمد بن عصرون، ثم تولى قاضي القضاة في أيام السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله وبأمره في سنة ثمان وثمانين وخمسمائة، وبقي على ذلك إلى أن توفي في هذه السنة في سابع شعبان ودفن بتربته في الجبل، ولما فتح صلاح الدين مدينة حلب أضاف إليه أيضا قضاءها وكان عالما صارما كاتبا حسن الخط واللفظ، وهو أول من خطب بالبيت المقدس شرفه الله تعالى لما فتحه السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة بخطبة فائقة من إنشائه قد ذكرتها في كتاب الروضتين، وكان بيده الأوقاف التي للجامع وغيره، ثم عزل عنها في جمادى الأولى سنة وفاته، وتولاها شمس الدين ابن التيتي ضمانا، ثم في صفر من سنة أربع وستمائة عزل الشمس ابن التيتي عنها وتولاها الرشيد ابن أخته ضمانا بزيادة ثلاثة آلاف دينار، ثم في تاسع شعبان من هذه السنة سنة أربع وستمائة أبطل ضمانها وتولاها المعتمد والي دمشق، وكان محيي الدين قد اختل في آخر عمره، وجرت له قصة مع الإسماعيلية بسبب قتل شخص منهم يعرف بالفافا، ولذلك فتح له بابا سرا إلى الجامع لصلاة الجمعة، ودرس عنه عماد الدين ابن الحرستاني وأثنى عليه في فصاحته وحفظه لما يلقيه في درسه، قال: وتوفي وله ثمان وأربعون سنة، وكذا ولده الزكي

الطاهر، وكـان رحمه الله يحرص على كتابة عقيدة الغزالي الملقبـة بالمصباح، ويـأمـر بتحفيظ الصغـار لها، وكـذا أخيـه مـن بعـده، وكان ينهـى عـن الاشتغال بكتـب المنطق والجدل، ولقد استدعـى بكتب من كانـت عنده من سكان مدرستـه التقوية فقطعها بحضور الجمع في مدرستـه بالكلاسة قبالـة الشباك الصلاحـي، وثم كان يـذكر الدرس العـام للتفسير فقطعها ومالكها حاضر.

قال: وكـان قد تنـزل ذكر نيـابته عـن ابن عصرون، فـأرسل السلطـان صلاح الـدين مجد الدين ابـن النحاس والد العماد إليـه، وأمره أن يضرب على علامتـه في مجلسه ففعل بـه ذلك، فلزم بيتـه حياء من النـاس فطلب ابن عصرون مـن يستنيبه فـأشير عليه بالخطيب ضياء الـدين الـدولعي، فأرسل إليه فنـاب عنه وعن ابنه إلى أن عزل، قال: وكـان قد اختلط عقله في آخر عمره، فبينما هو في داره يوما وعنده جماعـة من أكابر دمشق ثار به الخلط، فخرج من ساعته على الهيئة التـي كان عليها في داره، فوجد بغلة، لبعض من كان عنـده فركبها فخيف عليه فارتدفه غـلام صاحب البغلة، فخـرج على وجهـه إلى الميـدان فلحقه الجماعـة، وأمـر لـه بضرب خيمـة، وبات والناس عنده تلك الليلة، ثم أدخل من الغد فبقي أياما ومات.

ثم دخلت

سنة تسع وتسعين وخمسمائة

وهي سنة مولدي، ففي سلخ المحرم ليلة السبت ماجت النجوم في السماء شرقا وغربا، وتطايرت كالجراد المنتشر يمينا وشمالا، ولم ير هذا إلا في مبعث النبي صلى الله عليه وسلم، وفي سنة إحدى وأربعين ومائتين، وكانت هذه السنة أعظم، قاله أبو المظفر سبط ابن الجوزي.

وقال العز بن تاج الأمناء: في سلخ المحرم رئي في السماء نجوم متكاثفة متطايرة شديدة الاضطراب إلى غاية، قال: وشرع في عمارة سور قلعة دمشق في الشهور الأواخر من هذه السنة، وابتدىء ببرج الزاوية الغربي القبلي منها المجاور لباب النصر.

قال أبو المظفر: وتمت عمارة رباط المرزبانية الذي بناه الخليفة على نهر عيسى، ورتب فيه الشيخ شهاب الدين عمر السهروردي وعنده جماعة من الصوفية.

وفيها: بعث الخليفة الخلع وسراويلات الفتوة إلى العادل وأولاده، فلبسوها في شهر رمضان، وأخذ الظاهر قلعة نجم من أخيه الأفضل بأمر العادل، وابتدىء بعمارة قلعة دمشق.

وحج بالناس من العراق طاشتكين.

قال وفيها: توفيت والدة الإمام الناصر واسمها زمرد خاتون أم ولده المستضيء، كانت صالحة كثيرة المعروف والصدقات، دائمة البر

والصلات، متفقدة لأرباب البيوت، وحجت فأنفقت مالا عظيما نحو ثلاثمائة ألف دينار، وكان معها نحو ألفي جمل، وتصدقت على أهل الحرمين وأصلحت البرك والمصانع، وعمرت التربة عند قبر معروف والمدرسة إلى جانبها، ووقفت عليها الأوقاف، وتوفيت في جمادى الأولى وحزن الخليفة عليها حزنا لم يحزنه ولد على والدة، وفعل في حقها مالم يفعله أحد من أمثاله، وصلى عليها في صحن السلام ومضى بين يدي تابوتها إلى دجلة من ناحية التاج، ثم حملت في الشبارة نهارا والوزير ناصر بن مهدي قائم مشدود الوسط، وأرباب الدولة في السفن، وصعدوا بتابوتها إلى التربة، وأمر الخليفة أن يمشي الناس من دجلة إلى تربتها المجاورة لمعروف والمسافة بعيدة، وكان الوزير سمينا فكاد يهلك وقعد في الطريق نحو من ثلاثين مرة، وعمل لها العزاء شهرا كاملا، وأنشدت المراثي ، وختمت الختمات طول الشهر، وفرق الخليفة بعد الشهر أموالا كثيرة في الزوايا، والربط، والمدارس، وخلع على الأعيان، ومن لم يخلع عليه أعطاه مالا، وأمر بأن يفرق جميع ماخلفته من ذهب، وفضة، وحلي، وجواهر، وثياب في جواريها ومماليكها فقسم بينهم، وحمل ماكان في خزانتها من الأشربة، والمعاجين، والعقاقير إلى المارستان العضدي، وكان يساوي ألوفا، وحزن عليها أهل بغداد حزنا عظيما لأنها كانت محسنة إلى الناس.

قال وفيها: توفي القاضي أبو الفضل أحمد ابن قاضي القضاة أبي طالب علي بن هبة الله بن محمد بن البخاري، استنابه أبوه في القضاء بحريم دار الخلافة فلم يزل على ذلك حتى توفي والده فانعزل، ثم ولي سنة أربع وتسعين فأقام حتى ولي ضياء الدين بن الشهزوري في رمضان سنة خمس وتسعين وخمسمائة، فأقره على حاله، ثم عزله في ذي الحجة من السنة المذكورة فلزم بيته إلى أن توفي في ذي الحجة من هذه السنة، وصلي عليه بالنظامية ودفن عند أبيه بمشهد موسى بن جعفر، وكان نزها عفيفا.

وفيها: توفي عبد الله بن الحسن بن زيد أبو محمد الكندي، أخو الشيخ تاج الدين زيد بن الحسن الكندي العلامة، وكان عبد الله أصغر من الشيخ وكان جوادا، سمع ببغداد أبا الفضل بن ناصر وغيره، واستوطن دمشق إلى أن توفي بها في ذي القعدة، وصلى عليه أخوه تاج الدين بجامع دمشق، ودفن بجبل قاسيون.

قلت: وهو والد أمين الدين أبي العباس أحمد، الذي ورث عمه تاج الدين، وكان آدم اللون[١٦] رحمهم الله.

وفيها: توفي علم الدين سليمان بن شيرويه بن جندر، أخو العادل لأمه في التاسع والعشرين من المحرم ودفن بداره بدمشق، وهي التي وقفها مدرسة للشافعية المعروفة بالفلكية، بحارة باب الفراديس، وقف عليها قرية الخان.

وفيها: توفي الأمير سيف الدين إيازكوج الأسدي بمصر سابع عشر ربيع الآخر.

وفيها: توفي الفقيه برهان الدين مسعود بن شجاع الحنفي مدرس المدرسة النورية بدمشق في خامس عشر جمادى الآخرة، ودفن بالمقبرة التي بجبل قاسيون غربي دار ابن سمندار، وكان هو وابن العقادية ممن يشتغل على الشيخ على البلخي رحمه الله.

قال أبو المظفر وفيها: توفي عبيد الله بن على بن نصر أبو بكر البغدادي، يعرف بابن المارستانية أحد الفضلاء المعروفين بجمع الحديث، والطب، والنجوم، وعلوم الأوائل وأيام الناس، وصنف كتابا سماه ديوان الإسلام في تاريخ دار السلام، قسمه ثلاثمائة وستين كتابا إلا أنه لم يشتهر، وهو الذي صنف سيرة ابن هبيرة، وهو الذي قرأ كتب عبد السلام بن عبد الوهاب بن عبد القادر يوم أحرقت كان يقرأ

الكتاب ويقول: ياعامة هذا عبد السلام يقول في هذا الكتاب: من بخر زحل بكذا وكذا، وقال: ياإلهي ياعلة العلل نال ماأراد، وكان ابن المارستانية محمولا على ابن عبد القادر، وكان الخليفة قد أمر الوزير أن يخلع عليه ويبعثه رسولا إلى الكرج بتفليس فخلع عليه خلعة سوداء سنية وخرج من دار الوزير بين يديه الحجاب وأرباب الدولة، فوقف له عبد السلام بن عبد الوهاب الذي أحرق كتبه وتقدم إليه وقال له سرا بينهما: الساعة من بخر زحل أنا أم أنت؟ فقال: أنا، ولما قضى الرسالة وعاد من تفليس توفي بمكان يقال له جرخ بند، في ذي الحجة وقد تكلموا فيه فذكره ابن الدبيثي في الذيل، فقال عبيد الله بن نصر بن حمرة —بحاء مهملة وراء مهملة— أبو بكر ابن أبي الفرج ويعرف بابن المارستانية جمع الكتب، وادعى الحفظ وسعة الرواية عمن لم يلقه ولم يأخذ عنه، وكان ينتسب إلى أبي بكر لصديق، وكان أبوه ينكر ذلك، وكان أبوه وأمه يخدمان المارستان، ولهذا نسبت أمه إليه، وأطلق الناس القول في جرحه بهذه الأسباب، حتى قال أبو جعفر الواثقي:

دع الأنساب لاتعرض لتيم
فأين الهجن من ولد الصميم
لقد أصبحت من تيم دعيا
كدعوى حيص بيص إلى تميم

فطعن فيه ابن الدبيثي طعنا كثيرا، وقال في كتابه أخبرنا: والدي، أنبأنا: قاضي المارستان، وهذه قحة عظيمة وأبوه عامي لايعرف الحديث ولاسمعه، وكان قصده أن يقال عنه محدث ابن محدث.

قلت: هذا غلو من قائله لايلزم من كونه عاميا أن لايكون له سماع في صغره يوما، فلا يسمع قوله ولاسمعه فإنها شهادة على نفي.

قال: وماتم كتابه المسمى بديوان الإسلام، ولو تم لظهرت فضائحه، سمع الكاتبة شهدة، وشيوخ ذلك العصر.

وفيها: توفي زين الدين ابن نجية الواعظ، واسمه أبو الحسن علي بن ابراهيم بن نجية الحنبلي، ولد بدمشق سنة ثمان وخمسمائة ونشأ بها، وهو سبط الشيخ أبي الفرج الحنبلي جد بني الحنبلي الدمشقيين، فهو ابن عمة نجم بن عبد الوهاب بن أبي الفرج، ونجم هذا والد الناصح ابن الحنبلي وأخوته، اشتغل ابن نجية المذكور بالتفسير، والوعظ، وبعثه نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله رسولا إلى بغداد في سنة أربع وستين وخمسمائة، فسمع بهدا عبد الخالق بن أحمد بن يوسف وغيره، وصاهر سعد الخير الأنصاري على ابنته، ثم سكن مصر قبل دولة صلاح الدين، وفي أيامه، وكان له منه منزلة جليلة، وهو الذي نم على عمارة اليمني الشاعر، وأصحابه بما كانوا عزموا عليه من قلب الدولة، فشنقهم صلاح الدين على ماذكرناه في كتاب الروضتين، وقد ذكرنا من أحوال زين الدين هذا في كتاب الروضتين أشياء منها: ماكاتب به صلاح الدين في تفضيل مصر على الشام وغير ذلك، وكان صلاح الدين يكاتبه ويحضر مجلسه هو وأولاده العزيز وغيره، وكان له جاه عظيم وحرمة زائدة وكان يجري بينه وبين الطوسي العجائب، لأن الطوسي أشعري، وابن نجية حنبلي وكلاهما واعظ، جلس يوما ابن نجية في القرافة بالجامع فوقع عليه وعلى جماعة ممن عنده السقف، فعمل الطوسي خطبة، وذكر فيها قوله تعالى:(فخر عليهم السقف من فوقهم)[١٧] وعاينوا كلبا يشق الصفوف،فقال ابن نجية: هذا من هناك، وأشار إلى مكان الطوسي، وكان ابن نجية ينشد على المنبر شعر الملك الصالح طلائع بن رزيك وزير خليفة مصر فمنه:

مشيبك قد نضا صبغ الشباب
وحل البازي وكر الغراب
تنام ومقلة الحدثان تعطي
وما ناب النوائب عنك ناب

وكيف بقاء عمري وهو كنز
وقد أنفقت منه بلا حساب

قال أبو المظفر: وكان ابن نجية قد اقتنى أموالا عظيمة، وتنعم تنعما زائدا بحيث أنه كان في داره عشرون جارية للفراش نساوي كل جارية ألف دينار، وأما الأطعمة فقد كان يعمل في داره مالايعمل في دور الملوك، وتعطيه الخلفاء والملوك أموالا عظيمة كثيرة، ومع هذا مات فقيرا كفنه بعض أصحابه وتمزقت الأموال، وحالت الأحوال، وكانت وفاته بمصر ودفن بالقرافة.

وفيها: توفي أبو الحسن علي بن الحسن بن اسماعيل العبدي، من عبد القيس ، ولد سنة أربع وعشرين وخمسمائة بالبصرة، وبرع في علم الأدب والترسل، وسمع الحديث ببغداد من ابن ناصر وطبقته، ثم عاد إلى البصرة فتوفي بها في شعبان.

وأنشد لنفسه:

لاتسلك الطرق إذا أخطرت
لو أنها تفضي إلى المملكة
قد أنزل الله تعالى (ولا
تلقوبأيدكم إلى التهلكة)(١٨)

وفيها: توفي أبو القاسم علي بن نجي بن أحمد الصوفي البغدادي،ويعرف ببسط حامد البناء، سمع قاضي المارستان وطبقته، وتوفي ببغداد، ودفن بباب الأزج وكان أنشد لنفسه:

أي شيء يكون أعجب من ذا
ان تفكرت في صروف الزمان

حـــادثـــات السرور تـــوزن وزنـــا

والبـــلايـــا تكـــال بـــالقفـــزان

وفيها: توفي القاضي ضياء الدين الشهرزوري وهو: أبو الفضائل القاسم بن يحيى بن عبد الله بن القاسم وهو ابن أخي القاضي كمال الدين محمد بن عبد الله بن القاسم، قاضي قضاة الشام في الأيام النورية، وبعض الصلاحية إلى أن توفي سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة، وأوصى بالقضاء لابن أخيه ضياء الدين المذكور، فأقام قليلا، استقال من القضاء لما فهم من غرض صلاح الدين تولية أبي سعد ابن عصرون، فأقاله ورتبه للرسالة بينه وبين الخليفة، فترسل عنه إلى بغداد مرارا، ولد ضياء الدين في سنة أربع وثلاثين وخمسمائة وتفقه ببغداد على يوسف الدمشقي بالنظامية، وسمع الحديث، وعاد

إلى الشام، وبيته مشهور بالرئاسة والتقدم والقضاء والفضل، وآخر قدومه رسولا عن صلاح الدين في سنة ثمان وثمانين، ثم قدمها رسولا عن الأفضل عقيب موت صلاح الدين، ولما أخذ العادل دمشق أخرجه منها بسبب الأفضل، فاستدعي إلى بغداد في سنة خمس وسبعين، فولاه الخليفة قضاء القضاء، ورد إليه أمور المدارس والأوقاف الشافعية و الحنفية وغيرها، وكانت مطالعات الخليفة تصدر إليه دائما، وحظي عنده، وحصلت له منه منزلة لم تحصل لغيره من الغرباء، وكانت زوجته ست الملوك تدخل على أم الخليفة الناصر، وتحسن إليها، وأقام ببغداد فلم تطب له، واشتاق إلى الشام فطلب الانفصال فلم يجبه الخليفة، فدخلت ست الملوك على أم الخليفة وسألتها في مخاطبة الخليفة في الإذن له في العود إلى الشام، فسألته فأذن له.

قال أبو المظفر: وسمعت بعض عوام بغداد يقولون كان سبب عزله أن مسح يوما القلم في شرابة الدواة، ولم يمسحه في الخرقة الزرقاء التي

عند الدواة، وبلغ الخليفة فعزله، قال: وهذا ليس بشيء، ولم يعزله الخليفة إنما هو اشتاق إلى الشام ولم يعتد قواعد العراق، وخاف على نفسه أن يبدو منه مالايليق فطلب الخروج إلى الشام، وكان قد حسده أرباب الدولة على قربه ومنزلته من الخليفة، وميله إليه فخاف من التحريف عليه، فكانت مدة ولايته بها سنتين وأربعة أشهر، ولما سافر عن العراق جاء إلى حماة فأقام بها وولي القضاء فعتب عليه ذلك بعد قضاء بغداد، فقال: ماعزلت من قضاء بغداد، وحماة، والشام، والشرق، والغرب، في ولايتي فإذا نظرت في بعض ولاياتي فليس ذلك بعيب، وكانت وفاته بحماة منتصف رجب ودفن بها، ولقد حكي لي أنه لما احتضر جعل يسبح ويذكر الله وتتفرقع أصابعه حتى قضى، وكان فاضلا جوادا، سخيا، لم يكن في أبناء جنسه أكرم منه، وذكره العماد الكاتب في الخريدة وأثنى عليه ومن شعره:

في كل يوم تترى للبين آثار
وما له في التئام الشمل إيثار
يسطو علينا بتفريق فواعجبا
هل كان للبين فيما بيننا ثار
يهزني أبدا من بعد بعدهم
إلى لقائهم وجد وتذكار
ماضرهم في الهوى لو واصلوا دنفا
وما عليهم من الأوزار لو زاروا
يا نازلين حمى قلبي وإن بعدوا
ومنتصفين وإن صدوا وإن جاروا
ما في فؤادي سواكم فأعطفوا وصلوا
وما لكم فيه إلا حبكم جار

وفيها: توفي أبو البركات محمد بن أحمد بن سعيد البكري، ويعرف بالمؤيد وكان أديبا، فاضلا، شاعرا ومن شعره أبيات حسنة شائعة قالها

في الوجيه النحوي، وكان الوجيه قديما على مذهب أحمد فآذاه الحنابلة فتحنف، فآذاه الحنفية فانتقل إلى مذهب الشافعي، فجعلوه يدرس النحو في النظامية فقال المؤيد:

ألا مبلغ عني الوجيه رسالة
وإن كان لا تجدي لديه الرسائل
تمذهبت للنعمان بعدا ابن حنبل
وذلك لما أعوزتك المآكل
وما اخترت رأي الشافعي تدينا
ولكنما تهوى الذي هو حاصل
وعما قليل أنت لا شك صائر
إلى مالك فافطن لما أنا قائل

وفيها: توفي أبو زكريا يحيى بن طاهر بن محمد الواعظ، ويعرف بابن النجار البغدادي، ولد يوم عرفة سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة، وسمع الحديث الكثير من أبي الفضل الأرموي وطبقته، وتوفي في ذي الحجة، ودفن بالمختارة شرقي بغداد وأنشد في مجلسه:

عاشر من الناس من تبقى مودته
فأكثر الناس جمع غير مؤتلف
منهم صديق بلا قاف ومعرفة
بغير فاء وأخوان بلا ألف

وفيها: ولد مصنف هذا الكتاب الفقير إلى الله تعالى عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم بن عثمان بن أبي بكر بن ابراهيم بن محمد المقدسي الشافعي، ليلة الجمعة الثالث والعشرين من ربيع الآخر عفا الله عنه، عرف بأبي شامة، لأنه كان به شامة كبيرة فوق حاجبه الأيسر، يكنى أبا القاسم محمد، وكانت ولادته من هذه السنة برأس درب الفواخير

بدمشق داخل الباب الشرقي، وأصل جده ابي بكر من بيت المقدس، كان أبوه أحد الأعيان بها، ولعل محمدا الذي انتهى إليه النسب هو أبو بكر محمد بن أحمد بن أبي القاسم علي الطوسي المقرىء الصوفي إمام صخرة بيت المقدس، ذكره الحافظ أبو القاسم في تاريخ دمشق.

قال ابن الأكفاني: قتلته الفرنج خذلهم الله عند دخولهم بيت المقدس في شعبان سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة، وهو أحد الشهداء الذين رؤوسهم بالمغارة المقصودة بالزيارة في مقبرة ساملة بالقدس الشريف، فانتقل ولده أبو بكر إلى دمشق، فأقام بها فولد له ولدان: عثمان بن أبي بكر، وعبد الرحمن بن أبي بكر الذي كان معلما بباب الجامع الشامي، وسيأتي ذكره، وكثر الله نسلهم بدمشق ومسكنهم بنواحي الباب الشرقي، فأولد عثمان بن ابراهيم بن عثمان جد مصنف الكتاب، توفي في شعبان سنة خمس وسبعين وخمسمائة، ودفن بمقبرة باب الفراديس، فأولد ابراهيم

ابن عثمان ولدين: أبا القاسم بن ابراهيم ، توفي يوم الجمعة تاسع شهر رمضان سنة أربع وستمائة، ودفن بمقبرة بين الباب الشرقي وباب توما، واسماعيل بن ابراهيم توفي في ثالث عشر ربيع الأول سنة ثمان وثلاثين وستمائة، فأولداسماعيل ولدين: ابراهيم بن اسماعيل، ومولده ليلة الاثنين الخامس والعشرين من محرم سنة إحدى وتسعين وخمسمائة، ومصنف الكتاب عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم، وحبب الله تعالى إليه من صغره حفظ الكتاب العزيز، وطلب العلم، فجعل ذلك همته فلم يشعر والده به إلا وهو يقول: لقد ختمت القرآن حفظا.ثم أخذ في معرفة القراءات السبع والفقه، والعربية، والحديث، وأيام الناس ومعرفة الرجال وغيرها من العلوم، وصنف في ذلك مصنفات كثيرة سيأتي ذكرها، وحج مع والده سنة إحدى وعشرين وستمائة، ثم حج في التي بعدها أيضا، ثم سافر إلى البيت المقدس زائرا سنة أربع وعشرين، وسافر إلى الديار المصرية سنة ثمان وعشرين، واجتمع بشيوخ هذه البلاد في ذلك الوقت

بمصر، والقاهرة، ودمياط، والاسكندرية، ثم لزم الإقامة بدمشق عاكفا على ماهو بصدده من الاشتغال بالعلم وجمعه في مؤلفاته، والقيام بفتاوى الأحكام وغيرها، وكان في صغره يقرأ القرآن في جامع دمشق، ينظر إلى مشايخ العلم كالشيخ فخر الدين أبي منصور ابن عساكر، ويروى طريقه في فتاوى المسلمين، وحاجة الناس إليه وسماع الحديث النبوي عليه، وهو يمر من مقصورة الصحابة رضي الله عنهم إلى تحت قبة النسر لسماع الحديث إلى المدرسة التقوية، لإلقاء دروس الفقه، ويرى إقبال الناس عليه وترددهم إليه مع حسن سمته واقتصاده في لباسه فيستحسن طريقته ويتمنى رتبته في العلم، ونشره له، وانتفاع الناس بفتاويه، فبلغه الله من ذلك فوق ماتمناه، وظهر الشيب في لحيته ورأسه، وله خمس وعشرون سنة، فجعل الله تعالى له الشيخوخة صورة ومعنى، فنظم في ذلك بعض الفضلاء:

إن يشب إذا بلغ خمسا وعشرين
فما كان المشيب فيه بعاب
جهل الناس قدر شيخوخة العلـ
ـم فجلت أنواره في الشباب
نور الله الوجه والقلب منه
إن فيه هداية المرتاب
هو شيخ معنى فعاجله الشيـ
ـب وقار الله على الأتراب
فحوى الفضل يافعا ومسنا
إن زلفى له وحسن مآب

ورويت له منامات حسنة كانت مبشرات له بما وصل إليه من العلم، وما يرجوه من الخير، منها: أن والدته رحمها الله أخبرته وهو إذ ذاك صغير يتردد إلى المكتب، وأبوه رحمه الله يعجب من حبه المكتب وحرصه على القراءة على خلاف المعروف من عادة الصبيان، فقالت الوالدة: لاتعجب فإني لما كنت حاملا به رأيت في المنام كأني في أعلى مكان من المئذنة عند

هلالها، وأنا أؤذن فقصصتها على عابر فقال: تلدين ذكرا ينتشر ذكره في الأرض بالعلم والخير.

ورأى هو في صفر سنة أربع وعشرين وستمائة كأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد أقبل إلى الشام، منجدا لأهله على الفرنج، خذلهم الله: وكان له به خصوصية من إفضاء أمره إليه، والتحدث معه في أمور المسلمين، وهو يمشي إلى جانبه ملاصقا منكبه حتى كان الناس يسألونه عنه وعما يريد أن يفعل وهو يخبرهم، وكأنه واسطة بينه وبين الناس.

وفي هذه السنة رأى أيضا كأنه والفقيه عبد العزيز بن عبد السلام —سلمه الله— داخل باب الرحمة بالبيت المقدس، وقد أرادوا فتحه، وثم من يمنع من فتحه ويدفعونه لينغلق، فما زالا يعالجان الأمر حتى فتحا مصراعيه فتحا تاما بحيث اسند كل مصراع إلى الحائط الذي خلفه.

ورأى أيضا في جمادى الآخرة من هذه السنة كأن المسلمين في صلاة الجمعة في حر شديد وهو خائف عليهم من العطش ولاماء ثم يعرف، فنظر إلى قليب ماء قريبا منه وحوض، فخطر له ان يسقي من ذلك القليب ويسكب في الحوض حتى يشرب منه الناس إذا انصرفوا من الصلاة، فاستقى شخص قبله لايعرفه دلوا أو دلوين، ثم أخذ منه فاستقى دلاء كثيرة لم يعرف عددها وسكب في الحوض.

ورآه المهتار هلال بن مازن الحراني متقلدا هيكلا، وهو يقول: انظروا فلانا كيف تقلد كلام الله، ورأت امرأة كبيرة كأن جماعة صالحين اجتمعوا بمسجد قرية بيت سوا، وهي قرية من قرى غوطة دمشق، وكأنهم سئلوا ماشأنهم قالوا: ننتظر النبي صلى الله عليه وسلم يصلي بنا، قالت: فحضر، يعني مصنف هذا الكتاب، فصلى بهم، وجاءه رجل يستفتيه وهو بالمجلس الكبير الذي للكتب في صدر الإيوان بالمدرسة العادلية، وهو

الموضع الذي يجلس فيه غالبا للفتوى وغيرها، ومنه يخرج إلى الصلاة بالمدرسة، فتعجب فقيل له مم تتعجب؟ قال: هذا مكان مارأيته قط.

قال: ورأيت في المنام كأني كنت بهذه المدرسة العادلية ، وفيها خلق كثير وكأن قائل يقول للناس: تنحوا فالنبي صلى الله عليه وسلم يمر، قال: فنظرت فخرج علينا من المجلس الذي للكتب ومر كما هو إلى المحراب.

ورأى الصلاح الصوفي أول ليلة من جمادى الآخرة سنة خمس وخمسين وستمائة كأن مصنف الكتاب متوجه إلى الحج، ومعه من الزاد جميع مايحتاج إليه تزوداً تاماً يعجب منه الرائي.

ورأى حسن الحجازي في شهر رمضان سنة سبع وخمسين وستمائة كأن قائلا في عالم الغيب، لايراه بل يسمع صوته، يقول: الشيخ أبو شامة نبي هذا الوقت، أو كما قال. ورآه مرة أخرى فوق قنطرة عالية، وتحت القنطرة حنطة كثيرة.

ومن ذلك منامات حسنة رآها له أخوه الشيخ برهان الدين أبو اسحاق ابراهيم بن اسماعيل وهو أسن منه بنحو تسع سنين وكان من الصالحين، رأى والدهما رحمه الله يقول له: عليك بالعلم انظر إلى منزلة أخيك، فنظر فإذا هو في رأس جبل والوالد والرائي يمشيان في أسفله.

ورأى في صفر سنة سبع وخمسين وستمائة كأن مصنف الكتاب متمسك بحبل قد دلي من السماء، وهو مرتفع فيه، فسأل إنسانا عن ذلك في المنام، فانكشف لهما البيت المقدس، والمسجد الأقصى، فقال: ذلك الإنسان: من بنى هذا المسجد؟ فقال: سليمان بن داود، فقال: أعطي أخوك مثل ماأعطي سليمان، فقال له: كيف ذلك؟ فقال: أليس سليمان أوتي(ملكا لاينبغي لأحد من)[١٩] بعده، أليس أعطى كذا وكذا،

وعدد أنواع ماأوتي؟ فقال: بلى، قال: وكذا أخوك أوتي أنواعا من العلم كثيرة أو كما قال.

قال: رآه الشرف الصرخدي فوق سطح بيت منعزل، وهو يؤذن، ثم بعد الآذان قرأ(واستمع يوم ينادي المنادي من مكان قريب)[٢٠] ورأى أيضا كأن القيامة قد قامت، ومصنف الكتاب راكب على حمار، وهو مسرع، فقيل له في ذلك، فقال: أطلب النبي صلى الله عليه وسلم على الحوض، ورأى الشرف ابن الرئيس ايضا القيامة ووصف من أهوالها، قال: ورأيت فلانا يعني صاحب هذا الكتاب فسألته عن حاله فقلت له: ماذا مالقيت؟ قال: لقيت خيرا.

وإنما سطرت هذه المنامات وغيرها تحدثا بنعم الله تعالى كما أمر سبحانه في قوله تعالى:(وأما بنعمة ربك فحدث)[٢١] وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم:« لم يبق من المبشرات إلا الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له»[٢٢] اللهم اوزعنا شكر هذه النعم واختم بخير واسترنا في الدنيا والآخرة وآمنا مكرك ولاتنسنا ذكرك.

سمع المذكور جماعة من المشايخ والعلماء من أصحاب أبي الوقت، والحافظ أبي طاهر السلفي، وأبي الفرج الثقفي، وأبي طاهر بركات بن ابراهيم الخشوعي، وغيرهم، وجمع وألف، وهذب وصنف في فنون العلوم النافعة كتبا كثيرة، ومصنفات جليلة مختصرة، ومطولة تم أكثرها وسمعها ووقفها، وكثرت النسخ بها، فأول ماأظهر من مصنفاته شرح القصائد النبوية مجلد، ومنها: شرح قصيدة الشيخ الشاطبي رحمه الله الذي سماه ابراز المعاني من حرز الأماني، وهما شرحان أصغر وأكبر، والأكبر إلى الآن لم يتم والأصغر مجلدان.

ومنها: اختصاره لتاريخ دمشق وهما أيضا أكبر وأصغر وكلاهما تام، فالأكبر بخطه في خمسة عشر مجلدا، والأصغر في خمسة مجلدات، ومنها:

كتاب الروضتين في أخبار الدولتين في مجلدين، ومختصره في مجلدة صغيرة ومنها: الكتاب المرقوم في جملة من العلوم، يجمع عدة مصنفات في مجلدين الأول فيه خطبة العلم الكبرى التي سماها خطبة الكتاب المؤمل للرد إلى الأمر الأول، وكتاب نور المسرى في تفسير آية الإسراء ، وشرح الحديث المقتفى في مبعث النبي المصطفى وضوء السارى إلى رؤية معرفة الباري، والمحقق من علم الأصول فيما يتعلق بأفعال الرسول، وكتاب البسملة، والباعث على إنكار البدع والحوادث وكتاب السواك، وماأشبه ذلك، ومختصر كتاب البسملة وغير ذلك، ومنها: كشف حال بني عبيد والواضح الجلي في الرد على الحنبلي، وإقامة الدليل الناسخ لجزء الفاسخ، والأصول من الأصول، ومفردات القراءة، وشيوخ الحافظ البيهقي، ومقدمة في النحو، والألفاظ المعربة، والقصيدة الدامغة وقصيدتان في منازل طريق الحج ونظم مفصل الزمخشري، ونظم العروض والقوافي ونظم شيء من متشابة القرآن، وشرح عروس السمر، وابتدأ كتبا كثيرة لم يتفق إلى الآن إتمامها، ونجز في سنة تسع وخمسين وستمائة التي تعقبها سنة ستين فيها كتاب جامع أخبار مكة والمدينة وبيت المقدس شرفهن الله تعالى، ومختصر تاريخ بغداد وتقييد الأسماء المشكلة، ورفع النزاع بالرد إلى الإتباع والمذهب في علم المذهب، ونية الصيام ومافي يوم الشك من الكلام، وشرح نظم المفصل، والإعلام بمعنى الكلمة والكلام، وشرح لباب التهذيب، والأجوزة في الفقه، وذكر من ركب الحمار، ومشكلات الآيات، ومشكلات الأخبار ، وكتاب القيامة، وشرح أحاديث الوسيط، وتعاليق كثيرة في فنون مختلفة من غير ترتيب على طريقة التذكرة لأبي علي الفارسي، وأمالي ثعلب، وأمالي الزجاجي، ونحو كتاب المجالسة واختصار جملة من الدواوين.

وقد نظم أحد الفضلا بعض هذه المصنفات في أبيات كتبها له فقال:

هـذا الشهـاب الثـاقـب الفهـم الـذي
قـد فـاق في بحـر العلـوم وشطـه
أكـرم بتحقيـق واتقـان وتصـ
ـنيف لـه وبـراعـة في ضبطـه
وعنـايـة مـن ربـه فيما يحاو
لـه بـه فـأحلـه في وسطـه
فكـلامـه في الفقـه يشبـه مـا تقـد
م مـن كـلام الشـافعـي وسبطـه
يبنـي على نـص الكتـاب وسنـة
للمصطفـى في رفعـه أو حطـه
ومـذاهـب العلماء يلحظهـا فيفتـي
بـالمرجـح عنـده مـن قسطـه
ويفسر القـرآن والأخبـار عـن
حـذق بمفهـوم الكـلام وربطـه
وينـص أسماء الـورى وحـديثهـم
ووفـاتهم فكـأنهم مـن رهطـه
شرح الصـدور بشرحـه لقصـائد
نبـويـة في قبضـه أو بسطـه
والشـاطبيـة جـولـوا أفكـاركـم
في شرحهـا إن كنتـم مـن شرطـه
ولـه كتـاب الـروضتين وهـذب التـ
ـاريخ مختصرا لـه مـن شحطـه
وكتـابـه المرقـوم فيـه مصنفـا
ت في علـوم حـازهـا في مـرطـه
منهـا المحقـق والسـواك وبـاعـث
مـع مبعـث أحسـن بـه وبقمطـه
والضـوء والإسرا وبسملـة ومـن
شـدهـا الـذي أحيـا بحسـن محطـه

ولنظمـــــه في النحـــــو والأوزان والأ
حكـام لم يـك مـا مضـى مـن سمطـه
وقـد ابتـدا كتبـا فـإن أبقـاه مـن
قـوّاه أكملهـا بجـودة سفطـه
رفـع النـزاع ومشكـل الآ
يـات والأخبـار ممـا شـده في قمطـه
أرجـو لـه عفـو الإلـه فـإنـه
مـا زال يطلـب عفـوه في خطـه

كـان المذكور لايكـاد يكتب في فتـوى، أو شهادة، أو طبقـة سماع، أو نسـخ كتاب إلا أردف اسمـه بكتابة عفـا الله عنـه، وكـان حريصـا على الإجتهاد في الأحكـام المختلف فيهـا، فيفتي بما يـراه أقرب إلى الحق، وإن كان خلاف مذهبه تبعا للأدلة.

ونظم بعض الأدباء فيه:

أيها الحاسـدون فضـل شهـاب الـد
يـن عبـد الـرحمن رب المعـالي
لاتطيقـون مـا أطـاق دعـو التهـ
ني فلـن تـدركـوه غير خيـال
متعـب نفسـه صبيـا وكهـلا
ثـم شيخـا مـواظـب الاشتغـال
ومحب مجالـس العلـم والديـ
ـن جميعـا مجانـب الأنـذال
جـد حـرصـا على الفـوائد منهـا
وسـؤالا عـن مشكـل الأقـوال
لا يـرى غير قـارىء لكتـاب
أو مجيبـا بـالحق للسـؤال

كـــم كتـــاب أنهاه حفظـــا وشرحـــا
واطـــلاعـــا عـــلا رؤوس الـــرجـــال
لا يماري ولا يبـــاري ولا ينفـــــ
ـــك عـــن نشره علمـــه للمـــوالي
ولهذا يحب دينـــا فمـــن
أبغضـــه نـــال لعنـــة المتعـــالي
إن عبـــد الـــرحمن فيـــه فنـــون
مـــن علـــوم معهـــا كـــريـــم خـــلال
حـــاز مـــذ كـــان بـــالقنـــاعـــة عـــزا
مـــع بهاء وهيبـــة وجـــلال
واعتـــلاء على الأمـــاثـــل في بتـــــ
ـــبت جـــواب لـــه وحســـن ســـؤال
نـــاشر العلـــم قـــائل الحق كـــم
نصر الشرع عـــن صحيـــح الجدال
صـــائن نفســـه ومـــا فيـــه مـــن
علـــم وديـــن عـــن مهنـــة وابتـــذالي
وســـواه في الـــبذل إن خـــاب أو
أنجـــح يسعـــى أيـــامـــه والليـــالي
فـــارســـا راجـــلا يمـــر ويـــأتي
نحـــو قـــاض وتـــارة نحـــو والي
ذو التصـــانيـــف المغنيـــات بعـــون الـــ
ـــله عـــن مصنفـــات قيـــل وقـــال
مـــن يـــرد قـــدر فضلـــه فليطـــالـــع
كتبـــه فهـــي عين عين الكمال
ليرى مـــا آتـــاه خـــالقـــه جـــل
مـــن العلـــم مـــن جليـــل الفعـــال
فمـــواليـــه في الهدى ومعاديـــــ
ـــه وحســـادة معـــا في ضـــلال

وهـــو مـــن نفســـه الأبيـــة في عـــز
ز ومـــن علمـــه رخـــي البـــال
وهـــو مـــن قنعـــه غنـــي وراض
لا يـــدانيـــه في الغنـــى ذو المال

وكتب إليه بعض الأدباء وأنشده إياها بجامع دمشق بحلقته عند رأس يحيى بن زكريا عليهما السلام،في زمن كان يسمع فيه تاريخ دمشق الذي اختصره وغيره وذلك ثامن ذي الحجة سنة ثمان وأربعين وستمائة قصيدة منها:

هو الشيخ شيخ العلم والحلم والهدى
وناهيك من علم القراءة من فحل
هناء له منا بصحة جسمه
فصحته في جسمه صحة العقل
ولما اعتراه ما اعتراه تألموا
جميع الورى كالنفس والصحب الأهل
وعوفي بحمد الله والحمد لم يزل
دواء له هذا شعار ذوي الفضل

ووالده كالسيد السلمي خذ
بكنيته والشيخ في ورع الشبلي
وفي العلم بحر قد تدفق موجه
ويملا منه بالجواهر ما يملي
فهذب تاريخ الشآم دراية
وتهذيبه قد صح عند ذوي العقل
كما أنه علامة الوقت بمفرد
بعلم حديث المصطفى سيد الرسل
فحاشا حياة العلم من فقد مثله
وحاشا أحاديث النبي من الجهل

ومسألة في شرح بسملة لها
سمو وشرح الشاطبية يستعلي
بنظم عروض والمفصل قبله
رويته تروي الورى ديمة الهطل
فحاشا يدي التصنيف أن لا تنج من
عزيز وحاشا الروضتين من المحل
وحاشا الفتاوى أن تعطل بعده
وحاشا جمال البحث يخلو من الحفل
كثير المعالي والمعاني مفنن
تقي زكي طيب الفرع والأصل
يقول لنا ما لا سمعناه قبله
وقال لنا ما سدت إلا بمن قبلي

وكتب إليه أيضا قصيدة منها:
يقصد المجلس الأجل جنابا
عالم الأرض كيف قال أصابا
وسماه فيها شموس علوم
وبدور تهدي وتدعى الشهابا

ملك الفضل بل خليفة علم الدين
وازداد من الفنون عجابا
وفتى وهو في المعالم مفت
فهو يهمي صبا ويهمي صوابا
سله والله تلق جوابا وجو
ادا فهو شيخ في الفضل ينمي شبابا
وهو بحر قد ساغ عذب فرات
وسواه لم يلق إلا سرابا

وكتب إليه قصيدة منها:

سرعـــــــت امتـــــداحـــــا
لامـــــــاه مستقيـــــــــم
ركـــــن ديـــــن الله في الـــــد
نيـــابـــأنـــواع العلـــوم
كهـــــــف تصنيـــــــف تحلى
حلـــة الطـــرز الـــرقيـــم
و إذا ألـــــــف في تـــــأ
ليفـــــه ألـــــف الحميـــم
هـــذب التـــاريـــخ حتـــى
راق في خســـــن وسيـــــم
ولـــــه في الشرح شرح النــــــ
ـــــفس والصـــدر الكظيـــم
فتعجـــــــب منـــــــه إذا
انقـــص أنمـــى في الجسيـــم
ولـــــه الشـــامـــة في تـــــر
جمة في حـــــرف ميـــــم
تلـــــك أسماء ابـــــن اد
ريـــس يـــاشهـــاب عميـــم
رم شمـــل الـــدهـــر حتـــى
خلـــف الميـــت الـــرميـــم
فهـــو بـــالكـــل اعتيـــاض
مـــن حـــديـــث وقـــديـــم
بـــربـــر فيـــه بحـــر
بحـــر عـــرفـــان عظيـــم
زاخـــر كـــل غـــريـــب
وعجيـــــب ويتيـــــم
فهـــو ينـــدي وهـــو يبـــدي
أنفـــس الـــدر النظيـــم
ملـــك الفضـــل انفـــرادا
فيـــه مـــن غير قسيـــم

ولمفـــــت وفتـــــى فضـــــ
ـــــل عليـــــم كـــــريـــــم

وكـان يحضر عنـده بـالجامـع والتربـة الأشرفيـة جماعـة مـن الأكـابـر والفضلاء لسماع التـاريخ والروضتين وغيرهما من تصـانيفه،فنظم الـرئيس الأصيل الفـاضل محيـي الدين يحيـى بن علي بن محمـد التميمي مـن بني القلانسي:

أنـــا والله والجماعـــة طـــرا
مـــن سماع التـــاريـــخ في بستـــان
وريـــاض أنيقـــة أطلقتهـــا
بـــأزاهيرهـــا النـــا الـــروضتـــان
أيـــد الله شيخنـــا فلقـــد ابـــ
ـــدع في الاختصـــار والتبيـــان
فهـــو قطـــب الحجـــى وبـــدر المعـــالي
وشهـــاب الفتيـــا وشمـــس البيـــان
دام في نعمـــة ورفعـــة قـــدر
ســـالما مـــن نـــوائب الحدثـــان
مـــا تغنـــى ورق على غصـــن بـــان
وتسنـــى بـــرق على نعمان

وكان المصنـف عفا الله عنه محبا للعـزلة والانفراد، غير مـؤثر للتردد إلى أبـواب أهل الـدنيـا، متجنبا المزاحمة على المنـاصب لايـؤثـر على العافيـة والكفاية شيئا، ومن شعره:

الثـــوب واللقمـــة والعـــافيـــة
لقـــانـــع مـــن عيشـــة كـــافيـــة
ومـــا يـــزد فـــالنفـــس ليســـت بـــه
وإن تكـــن مملكـــة راضيـــة

وله أيضا:

أنـا في عـز القنـاعـة
رافـل في كـل سـاعـة
رب أتممهـا بخير
في معـافـاة وطـاعـة

وله أيضا:

أردت راحـة سري
ممـا يضيـق صـدري
لما ألاقـي مـن الخلـ
ـلق مـن جفـاء وغـدر
وحسـد واغتيـاب
فيـا ضيـاعـا العمـري
فـاخترت أن اتنحـى
وأستقـل بـأمـري
فلسـت أمشي إلى مـن
يـرى خطيرا لقـدري
لأجـل دنيـا فمشيـي اليـ
ـه بـالعلـم يـزري
لكـن إلى عـالم أو
شيـخ نبيـه الـذكـر
في الـديـن يقصـد للـ
ـعلم والتقـى لا الفخـر
أمـا إذا أحـوجتنـي
ضرورة مـن فقـر
فـلا يكـون فـربي
يمـن فيهـا بصبر

obeikandl.com

يارب فاشرح صدري
للخير وأشدد أزري
ولا تكلني إلى الخلـ
ـلق أنت حسبي وذخري
هب لي مدى الدهر ستـ
ـرا حتى أوسد قبري
واختم بخير واعظم
من جنة الخلد أجري

وله أيضا:

نزهت نفسي وعرضي
وصنت هذي البقية
لما انعزلت ببيتي
قولا وفعلا ونية
وبقيت علقتي بالـ
ـمدارس الفقهية
وسوف أخلص منها
حقا ورب البرية

إني عبد ضعيف
أخاف نعت المنية
ولست أرضى لنفسي
دوام هذي البلية
إلى الممات فربي
له هبات عليه
وكان معرفة الله
النعمة الأخروية

obeikandl.com

أنـــــــــا لها بــــــــانشراح
راضيـــــــة مـــــــرضيـــــة

وقال فيما ينبغي أن يكون عليه المصلي:
الـــق سمعـــا واحضر بقلـــب وعقـــل
بــــا لمصلى ورتـــــل القـــرآنـــا
وتــــدبــــر آيــــاتــــه وتفكـــــر
واجمع الهم مقبـــــلا يقظـــــانـــا

أي مقبلا عليه متيقظا.

وكتب إلى من كان عنده أصل المصنف بكتاب الوسيلة إلى كشف العقيلة بخط مصنفه شيخنا السخاوي رحمه الله يستعيرة منه:

يـــــا مـــــن نــــــراه وسيلـــــة
يحوز كــــــــل فضيلــــــــــة
ومــــن مــــدى الــــدهــــر يسعــــى
فيما يسر خليلـــــــــــــــــــة
مـــــازال يتعــــب صــــب
يهوى وصـــــــال العقيلـــــــة
وطــــالـــــب العلـــــم يهو
ى كثيره وقليلـــــــــــــــــه
فـــــابعـــــث إليـــــه معينـــــا
لـــــه كتـــــاب الــــــوسيلـــــة

وقال أيضا:
بـــدمشـــق سقـــى الإلـــه ربـــاهـــا
وحماهـــــاذكـــــرى أولي الألبـــــاب

وعجيب أشجارها حين تبدو
مزهرات تشيب قبل الشباب

وله أيضا أبيات في حصر السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لاظل إلا ظله، على ماصح في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم من حديث أبي هريرة قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:« سبعة يظلهم الله في ظله يوم لاظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ بعبادة الله، ورجلان تحابا في الله فاجتمعا على ذلك وتفرقا، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه، ورجل دعته امرأة ذات حسب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لاتعلم شماله ماأنفق يمينه»[٢٣] فقال في حصرهم:

إمام محب ناشىء متصدق
وباك مصل خائف سطوة الباس
يظلهم الله الجليل بظله
إذا كان يوم العرض لاظل للناس
أشرت بألفاظ تدل عليهم
فيذكرهم بالنظم من بعضهم ناس

أي من هو ناس بعضهم.

وله في هذا المعنى:

وقال النبي المصطفى إن سبعة
يظلهم الله العظيم بظله
محب عفيف ناشىء متصدق
وباك مصل والإمام بعدله

وله أيضا:

لا تقم في مدينة ليس فيها
خمسة إن أردت دار قرار
قهر ملك وعدل قاض
وطب حاذق مع سوق ونهر جار

وله أيضا:
قول ابن أدهم قول الناصحين لنا
العجب والحرص ثم السخط فاجتنبوا
ثلاثة حجبت عن اليقين قلو
بنا فلا بد من أن ترفع الحجب
نسر بالمدح والموجود يفرحنا
والقلب سخط من المفقود يضطرب

وله في حصر السبع الموبقات الوارد في الحديث الصحيح:
أكل مال اليتيم والشرك والسحـ
ـر وأكل الربا وقذف المبرا
والتولي يوم زحف وقتل نفس
سبع قد أوبقت من تجرا

وله أيضا:
فلا تحفل بمن يغتاب شخصا
ويحسده فيذكر من هناته
فمن حسناته تهدى إليه
فإن نفدت تحمل سيآته

ثم دخلت

سنة ستمائة

قال أبو المظفر:سار نور الدين بن عز الدين صاحب الموصل إلى تل عفر فأخذها، وكانت لابن عمه قطب الدين بن عماد الدين صاحب سنجار، فاستنجد القطب بالملك الأشرف ابن العادل، فجمع جمعا كثيرا والتقى مع نور الدين فكسره وأسر جماعة من أمرائه منهم المبارز سنقر الحلبي، وولده الظهير غازي، وذلك في شوال، ثم اصطلحا في ذي الحجة، وتزوج الأشرف أخت نور الدين، وهي الأتابكية بنت عز الدين مسعود صاحب التربة بجبل قاسيون.

وفيها: تمكن ناصر الدين ابن أرتق بقلعة ماردين، وقتل زوج أمه نظام الدين الذي كان قد قهره واستولى عليه.

وفيها: حج بالناس من العراق طاشتكين.

وفيها توفي الحافظ أبو محمد عبد الغني بن عبد الواحد بن علي بن سرور المقدسي الجماعيلي، ولد بجماعيل قرية من أعمال نابلس في سنة إحدى وأربعين وخمسمائة في ربيع الآخر، وكان أكبر من الموفق عبد الله ابن أحمد بأربعة أشهر لأن مولد الموفق في شعبان من سنة إحدى وأربعين وخمسمائة، والموفق ابن عمه الحافظ.

قرأ عبد الغني القرآن وسمع الحديث الكثير، وسافر إلى الأمصار، وكتب كثيرا، وصنف، وقدم بغداد هو والموفق في سنة ستين أو إحدى وستين في السنة التي توفي فيها الشيخ عبد القادر، فنزلا في مدرسته، وماكان يمكن أحدا من النزول بها، ولكنه لما رآهما تفرس فيهما الخير

والصلاح فأكرمهما وسمعا عليه، ثم توفي الشيخ عبد القادر بعد قدومهما بخمسين ليلة، وكان ميل عبد الغني إلى الحديث والموفق إلى الفقه، فاشتغلا في الفقه على أبي الفتح ابن المنى، ثم قدما دمشق بعد أربع سنين، وسافر عبد الغني إلى مصر والاسكندرية ثم عاد إلى دمشق ونزل إلى الجزيرة وسمع بها وعاد إلى بغداد ثم رحل إلى أصبهان فسمع بها ثم عاد إلى دمشق، وكان لما دخل أصبهان وقف على كتاب أبي نعيم الحافظ في معرفة الصحابة، فأخذ عليه في مائة وتسعين موضعا فطلبه بنو الخجندي ليقتلوه، فاختفى وخرج من أصبهان في إزار، ولما دخل الموصل قرأ كتاب الجرح والتعديل للعقيلي، وفيه جرح أبي حنيفة، فثار عليه الحنفيةوحبسوه ولولاالبرهان البرلي الواعظ خلصه لقتلوه، فإنه قطع الكراسة التي فيها ذكر أبي حنيفة ففتشوا على اسم أبي حنيفة فلم يجدوه فأطلقوه (فخرج منها خائفا يترقب)[٢٤] فلما قدم دمشق كان يقرأ الحديث بعد صلاة الجمعة بحلقة الحنابلة، ويجتمع الناس إليه فحصل له قبول، وكان رقيق القلب سريع الدمعة فحسدة الدماشقة ودخلوا عليه بطريق الناصح ابن الحنبلي فحسنوا له أن يعظ بعد الصلاة تحت قبة النسر، ففعل فشوش على عبد الغني الدولعي، وجماعة من الدماشقة، وصعدوا إلى القلعة ووالياها صارم الدين بزغش فقالوا: هذا قد أضل الناس ويقول بالتشبيه فعقدوا له مجلسا وأحضروه، فناظرهم فأخذوا عليه مواضع، منها:« ولاأنزهه تنزيها ينفي حقيقة النزول».

ومنها قوله:« كان الله ولامكان وليس هو اليوم على ماكان» ومنها: مسألة« الصوت والحرف» فقالوا له:إذا لم يكن على ماكان فقد أثبت له المكان، وإذا لم تنزهه تنزيها ينفي حقيقة النزول فقد أجزت عليه الانتقال، وأما الحرف والصوت فإنه لم يصح عن إمامك الذي تنتمي إليه فيه شيء، وإنما المنقول عنه أنه كلام الله لاغير، وارتفعت الأصوات، فقال له صارم الدين: كل هؤلاء على ضلالة وأنت على الحق؟ قال: نعم، فأمر

الأمراء فنزلوا إلى جامع دمشق فكسروا منبر عبد الغني وماكان في حلقة الحنابلة من الدرابزينات ومنعوهم من الصلاة، ففاتهم صلاة الظهر، فجمع الناصح ابن الحنبلي السوقة وقال لئن لم نرجع إلى مكاننا فعلنا وصنعنا ،فأذن لهم القاضي في ذلك وخرج عبد الغني إلى بعلبك، ثم سافر إلى مصر، فنزل عند الطحانين وصار يقرأ الحديث، فأفتى فقهاء مصر بإباحة دمه، وكتب أهل مصر إلى الصفي ابن شكر وزير العادل يقولون: قد أفسد عقائد الناس ويذكر التجسيم على رؤوس الأشهاد، فكتب إلى والي مصر بنفيه إلى المغرب، فمات قبل وصول الكتاب، وكانت وفاته بمسجد المصنع يوم الاثنين الثالث والعشرين من ربيع الأول، ودفن بالقرافة عند الشيخ أبي عمر بن مرزوق، وكان إذا اجتاز بذلك المكان يقول: روحي ترتاح إلى ههنا فدفن فيه.

قال أبو المظفر سبط ابن الجوزي: وكان زاهدا عابدا ورعا يصلي كل يوم وليلة ثلاثمائة ركعة —ورد أحمد بن جنبل— ويقوم الليل وعامة دهره صائم، ومادخر شيئا قط، وكان جوادا سمحا إذا فتح بشيء من الدنيا حمله بالليل إلى أبواب الأرامل واليتامى، فألقاه إليهم ومضى لئلا يعرفوه، وكان يرقع ثوبه بيمينه وكان قد ضعف بصره من كثرة المطالعة والبكاء، وكان أوحد زمانه في علم الحديث، سمع بأصبهان الحافظ أبا موسى محمد بن عمر المديني وغيره، وببغداد عبد الله بن النقور، ويحيى ابن ثابت بن بندار وغيرهما، وبدمشق أبا المكارم عبد الواحد بن المسلم ابن هلال وغيره، وبمصر عبد الله بن بري النحوي وغيره وبالاسكندرية أبا طاهر السلفي الحافظ وغيره، وسأله السلفي يوما: من هو محمد بن عبد الرحمن الذهبي؟ فقال له:المخلص. وكان له ثلاثة أولاد محمد، وعبد الله، وعبد الرحمن، سيأتي ذكرهم إن شاء الله تعالى.وله مصنفات كثيرة منها الكمال، في معرفة رجال الصحيحين وأبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجة في نحو عشر مجلدات.

قلت وفيها: توفي الحافظ بهاء الدين أبو محمد القاسم بن الحافظ الأكبر أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن عبد الله بن الحسين المعروف بابن عساكر، ودفن على أبيه بمقبرة باب الصغير خارج الحظيرة التي فيها قبر معاوية وغيره من الصحابة رضي الله عنهم من جهة الشرق، وكان قد شارك أباه في أكثر شيوخه سماعا فأجازه.

صنف عدة مصنفات، وخلف أباه في القيام بهذا الشأن وإظهار كتب أبيه وإسماعها بالجامع ودار الحديث النورية، وبيض تاريخ دمشق بخطه في ثمانين مجلدا، ورحل إلى مصر وأسمع بها، وكانت وفاته يوم الخميس ثامن صفر، ودفن بعد العصر ولي منه إجازة رحمه الله تعالى.

وفيها: يوم الجمعة العشرين من ربيع الآخر توفي، إمام الملك الناصر ضياء الدين أبو بكر محمد بن يوسف بن أبي بكر الآملي الطبري المقري، المعروف بخواجا إمام، سمع الحافظ أبا العلاء الهمذاني وغيره واعتنى بكتب القراءات سماعا ونسخا، وفي خطه كثير من تصحيف وتحريف، ودفن بعد الصلاة في الجبل رحمه الله.

وفيها: قدم بغداد أبو الفتوح بن أبي نصر الغزنوي رسولا من صاحب غزنة، وجلس بباب بدر وقال: ياأهل بغداد هنيئا لكم أنتم تحظون بأمير المؤمنين، ونحن محرومون، وتشاهدون سدة سيادته، ونحن محجوبون وأنشد متمثلا:

الأقل لسكان وادي العقيق
هنيئا لكم في الجنان الخلود
افيضوا علينا من الماء فيضا
فنحن عطاش وأنتم ورود

وكان يمكنه أن يصرح بمراده فيقول:

الآقـــــل لسكـــــان دار الســــــلام

ولكنه أتى به على لفظه ليعلم إنه تمثل به.

وأول هذه السنة سافر الشيخ شمس الدين أبو المظفر يوسف سبط ابن الجوزي الواعظ رحمه الله من بغداد إلى الشام، وقد ذكر صفة تنقله في البلاد في تاريخه الذي سماه «مرآة الزمان» فقال: في أول هذه السنة سافرت عن بغداد إلى الشام، وهي أول رحلتي فاجتزت بدقوقا، فجلست بها، يعني عقد مجلس الوعظ، قال: وبها خطيبها الحجة وكان يعظ بها، ثم قدمت إربل، فاجتمعت بشيخ فاضل كيس ظريف يقال له محيي الدين الشاتاني فأنشدني مقطعات لغيره وهذه الأبيات منها:

رحمت أســـــود هـــــذا الخال حين بـــــدا
في حمرة الخد مـــــرميـــــا بـــــإبصـــــار
كـــــأنـــــه بعـــــض عبـــــادا المجـــــوس وقـــــد
ألقـــــى بمهجتـــــه في لجة النـــــار

وجلست بإربل، ثم قدمت الموصل، وجلست بها، وحصل لي القبول التام، بحيث أن الناس كانوا ينامون ليلة المجلس في الجامع من كثرة الزحام، وأدركت بها جماعة من العلماء، فسمعت النقورية على أبي طاهر أحمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد الطوسي الخطيب وغيره، ثم قدمت حران فجلست بها وسمعت الخطيب فخر الدين ابن تيمية وابن الطباخ وعبد القادر الرهاوي وغيرهم، ثم قدمت منها إلى حلب وجلست بها وسمعت شمائل النبي صلى الله عليه وسلم من الافتخار، وأسباب النزول من عبد الرحمن ابن الأستاذ وغيرهما، ثم قدمت دمشق فنزلت بقاسيون عند المقادسة وجلست به، وبجامع دمشق فكانت مجالسي ولله الحمد والله مثل غدوات الجنة، ثم زرت بيت المقدس وجلست به وقبر الخليل عليه السلام وعدت إلى قاسيون فأقمت به إلى سنة ثلاث وستمائة، ورجعت إلى حلب.

قال: وصحبت الشيخ أبا عمر شيخ المقادسة، وشاهدت منه الزهد في الدنيا والورع والفضل والتواضع، ومن أخيه الموفق ونسيبه العماد وهو أخو الحافظ عبد الغني مايرويه عن الصحابة والأولياء الأفراد فأنساني حالهم أهلي وأوطاني، ثم عدت إليهم بعد ذلك على نية الإقامة عسى أن أكون معهم في دار المقامة.

قال: وحضر مجلسي بجامع دمشق في سنة عشر وستمائة القضاة والأشراف والأعيان، والملك المعظم عيسى بن العادل رحمه الله وشيوخنا جمال الدين الحصيري، وتاج الدين الكندي، والقاضي شمس الدين بن الشيرازي، والقاضي شمس الدين بن سني الدولة، وكان مجلسا عظيما احتوى على عشرة آلاف وزيادة على باب مشهد علي، وكان بدمشق قارئان أحدهما يقال له النجيب البغدادي، والآخر يقال له الشرف بن مي صوته مزعج، وكان النجيب إذا قرأ أطربنا وابن مي إذا قرأ ينغصنا، فحكيت للجماعة أن جدي رحمه الله قرأ بين يديه قارئان فأطربا الجمع فأنشد:

ألا ياحمامي بطن نعمان هجتما
على الهوى لما تغنيتما لي
ألا أيها القمريتان تجاوبا
بلحنيكما ثم اسجعا لي علانيا

قال: وقرأ بين يديه قارىء حسن الصوت فأطرب الجماعة، ثم قرأ بعده آخر مزعج الصوت فنغص الجماعة، فقال جدي: كان لبعضهم جاريتان مغنيتان إحداهما تغني طيبا، والأخرى مزعجا، فكان إذا غنت الطيبة الصوت يمزق ثيابه، وإذا غنت القبيحة الصوت يقعد يخيط مامزق، فحكيت للجماعة حكاية الجاريتين المغنيتين، وكان الشيخ الكندي قاعدا في القبة التي في وسط المجلس، فقال: يابني كلنا اليوم نخيط.

قلت: كانت مجالس الوعظ التي للمذكور من محاسن الدنيا ولذاتها، فكأن الله قد جمع له حسن الصورة وطيب الصوت، وظرافة الشمائل في الإيراد والجوابات واللباس وسائر الحركات، فكان يزدحم في مجلسه مالايحصى من الخلق رجالا ونساء، والنساء بمعزل عن الرجال في جامع دمشق، وجامع الجبل حضرت مجالسه في صغري وكبري في الموضعين مرارا، وكان لايفارق أحد مجلسه إذا انفض إلا وشوقه مستمر إلى عودته في الأسبوع الآخر، فإنه كان يجلس كل سبت، وتبسط السجادات والحصر، والبسط في كل المواضع القريبة من المنبر مابينه وبين القبة في يوم الجمعة، ويبيت الناس ليلة كل سبت حلقا يقرؤون القرآن بالشموع كل ذلك فرحا بالمجلس مسابقة إلى الأماكن، وعادة الدمشقيين التفرج في أيام السبت، ويبطلون عن أشغالهم بالمدينة وينقطعون في بساتينهم، وكانوا لايفوتون حضور المجلس، ثم ينصرفون منه إلى فرجهم فلا ينقضي يومهم إلا بالتذاكر لما وقع فيه من المحاسن وانشاد الأشعار والتحدث بمن أسلم فيه أو تاب، وإيراد ماكان فيه من سؤال وجواب، ولم يزل على ذلك مدة سنين، ثم اقتصر على المجلس في الأشهر الثلاثة:رجب وشعبان ورمضان كل سبت، فانقطع بمنزله عند ترتبه بالجبل إلى أن توفي سنة أربع وخمسين وستمائة، وسنعود لذكره في سنة وفاته إن شاء الله تعالى.

قال أبو المظفر: ولما أردت فراق دمشق في سنة ثلاث وستمائة قاصدا حلب، جلست بقاسيون وودعت الناس فلم يتخلف بدمشق إلا القليل، وامتلأ جامع الجبل بالناس فصاحوا علينا من الشبابيك والأبواب: لا، لا، لا، يعنون قوموا فاخرجوا، فخرجنا إلى المصلى وكان شيخنا تاج الدين الكندي حاضرا، فلما خرج من الباب زحموه فانكشف رأسه ووقعت عمامته فعز علي وسألته أن يمضي إلى دمشق ولايحضر في المصلى، فامتنع وقال: لاوالله حتى يتم المجلس وتاب في ذلك اليوم زيادة على خمسمائة شاب، وقطعوا شعورهم، وكان سيف الدين بن تميرك حاضرا، وجرى

الكلام في المغناطيس، وأنه يعشق الحديد قلت والخبازي[٢٦] تعشق الشمس، ولهذا كلما مالت الشمس إلى جهة مال الخبازي إليها فصاح سيف الدين بن تميرك: يامولاي شمس كلنا اليوم خبازي.

قال العز ابن[٢٧] تاج الأمناء:

وفيها: احترقت خزانة السلاح لحامية دمشق التي تعمل النشاب، وذهب جميع مافيها ليلة الاثنين خامس جمادى الآخرة.

وفي سابع عشري رمضان توجه أسطول الفرنج من عكا عشرون قطعة، ودخل يوم العيد من فم رشيد إلى قرية فوة من عمل الديار المصرية ونهبها، وأقام بنواحيها يومين، ثم خرج من حيث دخل غانما سالما، ولم يسمع أن أحدا أقدم على هذا الفعل منذ فتوح الديار المصرية، ثم في سنة تسع وستمائة دخلوا من فم دمياط إلى قرية بورة ففعلوا نحو ذلك، وسيأتي ذكره.

وفي هذه السنة أخذت العملة المشهورة من مخزن أيتام سيف الدولة ابن السلار بن بختيار من قيسارية الفرش بدمشق، ومبلغها ستة عشر ألف دينار مصرية، ومصاغ، وبقيت سنين إلى أن ظهرت، واعتقل بسببها خلق كثير، ومات منهم جماعة ثم ظهرت على المعروف بابن الدخينة.

وفيها: قتل الفقيه القزويني الزاهد بباب الكلاسة من جامع دمشق، حالة خروجه إلى زيارة القدس بيد اسماعيلي واجهه يظهر أنه يصافحه، وضربه بسكين في خاصرته، وانحرف عنه منهزما فوقع القزويني إلى الأرض وحمله أصحابه إلى داخل الكلاسة فمات في وقته، ودفن بمقابر الصوفية على الشرف القبلي، وأما القاتل فإن بعض أصحاب القزويني لحقه إلى الزيادة فتناول عصا أعمى وأدخلها بين رجلية فوقع، وركبه

وأخـذ السكين مـن يـده، واجتمـع النـاس يضربـون العجمـي ظنـا أنـه الاسماعيلي، وكادوا يفلتون الاسماعيلي منه ثم عرفـوا القصة، فأوثقوا أكتاف القتال، وحملـوه إلى المعتمد فحمل إلى السجن فـأقام به إلى أن عـرض له مرض، وحمل إلى البيمارستان فهلك.

obeikandl.com

ثم دخلت

سنة إحدى وستمائة

ففي جمادى الآخرة، وقيل الأولى عزلُ الخليفة الناصر ولده أبا نصر محمدا، عدة الدنيا والدين عن ولاية العهد، بعد أن دعي له بذلك على المنابر سبعة عشر عاما، ومال إلى ولده علي ورشحه للخلافة فاخترم في إبان شبابه، فألجأت الضرورة إلى أن رجع الحق إلى نصابه، فعهد إلى أبي نصر فتولى بعهده ولقب بالظاهر، كما سيأتي، وأما صورة العزل فإنه ألجىء إلى أن كتب خطه مما سنذكره.

قال أبو المظفر: اجتمع أرباب الدولة في دار الوزير ابن مهدي، والقضاة والعلماء والفقهاء والأمراء، وأخرج الوزير رقعة خط ولي العهد إلى والده مضمونها أنه حين ولاه العهد، لم يكن يعلم مايجب عليه فيه، ولاقدر ذلك، وأنه يسأل أباه إقالته وعزله، وأنه لايصلح لذلك، وشهد عليه أبو منصور بن سعيد ابن الرزاز، وأبو أحمد بن زهير العدلان بذلك، وأن الخليفة أقاله، وأنشأ محمد بن محمد القمي الذي ناب في الوزارة وعزل في أيام المستنصر، وكتب المكين كتابا يقول فيه:

« أما بعد: فإن أمير المؤمنين كان قد قلد ولده أبا نصر محمدا ولاية العهد في المسلمين، ورشحه بعده لإمرة المؤمنين، وألقى عليه هذا القول الثقيل، ونهج له من مراشد الدنيا والدين أوضح سبيل، مؤملا فيه الاستقلال بأعبائه، والإتيان بما يبين عن اضطلاعه وغنائه، والتخلق بأخلاقه التي هي من أخلاق الباري مكتسبة، وعلى التقوى مؤسسة، فلما آن أوان تكامل رشده، وبلغ المبلغ الذي أمل فيه سداد رأيه وقصده، رأى من نفسه القصور عن التزام شروط الخلافة، ومايجب عليه من الرحمة

للأمة والرأفة، فأقر بالعجز عن تأدية حق الأمة في أمره، وأشهد عليه أنه لايصلح لها فيما مضى ولافيما بقي من عمره، وخلع نفسه مما كان أمير المؤمنين فوضه إليه، واعتمد فيه عليه، ولم يسع الخليفة إلا استخارة الله تعالى في إقالته، وطلب رضاه في حل عقدة ولايته، فأسقط اسمه من السكك والمنابر والأقلام والمحابر، ولما خلعه لم ير أن يعين أحدا ليلقى الله بذمته يوما من الأيام غير متعلقة بوزر يخص الخاص ويعم العام، وقد وافق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث جعلها شورى في الستة المذكورين من أعيان المهاجرين، ولما قال له عبد الله ابنه: مايمنعك أن تعين من تراه أهلا؟ فقال: لاوالله لاأتحملها حيا وميتا» وذكر القمي كلاما طويلا، وكتب نسخا إلى الأطراف، وحج خالي أبو محمد يوسف في هذا العام وقرأ الكتاب بمكة عند البيت المحرم وبالمدينة عند قبر النبي عليه أفضل الصلاة والسلام.

قال: وفي جمادى الآخرة عقيب هذه الوقعة وقع حريق بدار الخلافة لم يجر في الدنيا مثله، فتحت أبواب الدار بالليل، وركب الوزير ابن مهدي وأرباب الدولة إلى خزانة السلاح فرأوا النار قد لعبت فيها، واجتمع جميع من ببغداد من السقائين، والفراشين، بالقرب، والروايا، والصناع والفعلة وأقاموا يوما وليلة يقلبون الماء على النار وهي تزداد فاحترق جميع ماكان في الخزانة من السلاح، والأمتعة، والقسي، والنشاب، والرماح، والجروخ، والسيوف، والجواشن، والزرديات، وقدور النفط، والخوذ المرصعة بالجواهر، واليواقيت، وعملت النار وساعدها الهواء ودبت إلى الدور والتاج، والدار البيضاء، فخرج الخليفة منها إلى دجلة، واحترقت خزانة فيها رأس البساسيري، وطغريل وغيرهما، ويقال إن قيمة ماذهب ثلاثة آلاف ألف دينار وسبعمائة ألف دينار، وكان في ذلك عبرة لمن اعتبر، وفكرة لمن افتكر.

قال وفيها: جاءت الفرنج إلى حماة بغتة، وأخذوا النساء الغسالات من

باب البلد على العاصي، وخرج اليهم الملك المنصور بن تقي الدين وثبت وأبلى بلاء حسنا، وكسر الفرنج عسكره، ووقف في الساقة من الرقيطا إلى باب حماة، وامتلأت أيديهم بالمكاسب وأسروا من حماة شهاب الدين أحمد بن شداد البلاعي، من قرية بلاعة وكان فقيها شجاعا تولى حماة مرة، وسلمية أخرى، وحمل إلى طرابلس، فهرب وتعلق بجبال بعلبك.

ووصل الى حماه سالما، ولولا وقوفه ما ابقوا من المسلمين احدا ، وحج بالناس من العراق وجه السبع، ومن الشام صار م الدين بزغش العادلي والي قلعة دمشق، وزين الدين قراجا صاحب صرخد وغيرهم.

قال وفيها: توفي عبد المنعم بن علي بن الصقلي أبو محمد الحراني، ولقبه: نجم الدين، قدم بغداد أول مرة في سنة ثمان وسبعين وخمسمائة، وتفقه على أبي الفتح ابن المنى، وسمع الحديث الكثير من أبي الفتح ابن شاتيل، وأبي السعادات بن رزيق، وجدي رحمه الله وغيرهم، وعاد إلى حران ووعظ بها وحصل له القبول التام، فاستشعر منه الفخر محمد بن تيمية خطيب حران، وخاف أن يتقدم، فلما رأى النجم ذلك عاد إلى بغداد ووعظ بها ، وحضرت مجالسه بمسجد باب المشرعة، وكان يقصد التجانس في كلامه وسمعته ينشد:

وأشتاقكم يا أهل ودي وبيننا
كما حكم البين المشت فراسخ
فأما الكرى عن ناظري فمشرد
وأما هواكم في فؤادي فراسخ

وكان صالحا دينا نزها عفيفا كيسا لطيفا متواضعا كثير الحياء، وكان يزور جدي بالنظامية،ويسمع معنا الحديث، وكانت وفاته يوم الخميس سادس عشر ربيع الأول، وصلي عليه بالنظامية ودفن بباب حرب، وخلف ولدين: النجيب عبد الله، والعز عبد العزيز صارا تاجرين لديوان الخلافة.

وفيها: توفي محمد بن سعد الله بن نصر أبو نصر بن الدجاجي الواعظ الحنبلي في ربيع الأول، ودفن بباب حرب ومولده سنة أربع وخمسمائة سمع أبا منصور القزاز وغيره، وأنشد لنفسه:

نفس الفتى إن أصلحت أحوالها
كانت إلى نيل التقى أحوى لها
وإن تراها اسددت أقوالها
كان على حمل العلى أقوى لها
فلو تبدت حال من لهالها
في قبره عند البلى لهالها

قال العز بن تاج الأمناء: وفي شهور هذه السنة الأواخر تغلبت طائفة من الفرنج البحرية، يعرفون بالبنادقة على قسطنطينية، وأخرجوا الروم منها بعد حصر وقتال، وحازوا مملكتها، وانتهبوا ذخائرها، وما حوته كنائسها من آلات ورخام، وحملوه إلى الديار المصرية، والشامية فبيع، ووصل منه إلى دمشق رخام كثير، وكان سامة يعمر داره فحصل له منه شيء لم يكن قبله مثله، وزخرفها.

قلت: هي الدار التي جعلها البازارائي رسول الخليفة مدرسة للشافعية.

قال وفيها: توفي العدل أبو محمد المعروف بعدل الزبداني سابع عشر المحرم بدمشق[٢٨].

وفيها: توفي القاضي محيي الدين بن عصرون في أول ربيع الأول بدمشق.

وفيها: توفي الأمير علم الدين كرجي الأسدي بدمشق، ثالث عشر

ربيع الآخر وصلى العادل عليه بمرج باب الحديد ودفن بالجبل، ووصل الخبر بموت بوزبا التقوي غريقا ببلاد المغرب في خدمة ابن عبد المؤمن.

وفيها: قتل قاضي دارا ظاهر حلب بالمنزلة المعروفة في السعدي في أواخر ذي القعدة.

وفيها: في ربيع الآخر توفي الشاعر الحلي علي بن الحسن الملقب بشميم، وكان قليل الدين ذا حماقة ورقاعة، وله حماسة ورسائل، وقال أقمت مدة آكل في يوم شيئا من الطين وضعته أشتمه فلا أجد له رائحة فسميت لذلك شميما ذكره ابن المستوفي في تاريخ إربل.

ثم دخلت
سنة اثنتين وستمائة

فيها: استوزر الخليفة نصير الدين ناصر بن مهدي العلوي الحسني، وخلع عليه خلعة الوزارة القميص والدراعة، والعمامة، والسيف، وخرج من باب الحجرة، فقدم له فرس من خيل الخليفة وبين يديه دواة عليها ألف مثقال، ووراءه المهد الأصغر، وأ لوية الحمد، وطبول النوبة والكوسات تخفق، والعهد منشور بين يديه، وجميع أرباب الدولة مشاة بين يديه، وضرب الطبول والبوقات له بالرحبة في أوقات الصلاة الثلاث: المغرب، والعشاء الآخرة، والفجر.

وفيها: هرب أبو جعفر محمد بن حديدة الوزير الأنصاري من دار الوزير ابن مهدي، وكان محبوسا بدرب المطبخ عند ابن مهدي ليعذبه، فحلق ابن حديدة رأسه ولحيته، وخرج فلم يظهر خبره إلا من مراغة بعد مدة وعاد إلى بغداد.

وفيها: توجه ناصر الدين صاحب ماردين إلى خلاط، بمكاتبة أهلها، فجاء الملك الأشرف فنزل على دنيسر، وأقطع بلد ماردين فعاد ناصر الدين إلى بلده، بعد أن غرم مائة ألف دينار، ولم يسلموا إليه خلاط.

وفيها: أغار ابن لاون على بلد حلب، وأخذ الجشار من نواحي حارم، فبعث الملك الظاهر بن صلاح الدين ميمون القصري، وأيبك فطيس، وحسام الدين بن أمير تركمان فنزلوا على حارم فقالوا لميمون: نحن على حذر فتهاون، فكبسهم ابن لاون فقتل جماعة من المسلمين وثبت أيبك فطيس، وابن أمير تركمان فقاتلا شديدا ولولاهما لأخذ ميمون، وبلغ الظاهر فخرج من حلب فنزل مرج دابق، وجاء إلى حارم فهرب ابن لاون إلى بلاده، وكان قد بنى قلعة فوق دربساك، فأخربها الظاهر وعاد إلى حلب.

وفيها: حج بالناس من العراق وجه السبع، ومن الشام الشجاع علي ابن السلار.

قلت: كذا قال أبو المظفر سبط ابن الجوزي فيما نقلته من خطه[٢٩] وقد نقلت من خط محمد بن تاج الأمناء قال: وفي التاسع والعشرين من رمضان سنة اثنتين وستمائة نادوا الحج على إيلة صحبة ابن الخزاعي.

وفيها: توفي طاشتكين بن عبد الله المقتفوي أمير الحاج، ولقبه فخر الدين، حج بالناس ستا وعشرين سنة، وكان في طريق الحج مثل الملوك، فقصده ابن يونس الوزير وقال للخليفة: إنه يكاتب صلاح الدين وزور عليه كتابا فحبسه مدة، ثم تبين له أنه بريء من ذلك فأطلقه وأعطاه خوزستان، ثم أعاده إلى إمرة الحج، وكانت الحلة السيفية اقطاعة، وكان سمحا، جوادا، شجاعا، قليل الكلام، يمضي عليه الإسبوع ولايتكلم، استغاث إليه رجل يوما فلم يكلمه، فقال الرجل: الله كلم موسى.فقال: وأنت. فقال الرجل: وأنت الله. فقضى حاجته، وكان حليما التقاه رجل فاستغاث إليه من نوابه فلم يجبه، فقال له الرجل: أحمار أنت؟ فقال طاشتكين: لا، وفي قلة كلامه يقول سبط ابن التعاويذي:

وأمير على البلاد مولى
لايجيب الشاكي بغير السكوت
كلما زادرفعة حطنا الله
بتغفيله إلى البهموت[٣٠]

وقام يوما إلى الوضوء فحل حياصته وتركها موضعه ودخل ليتوضأ وكانت الحياصة تساوي خمسمائة دينار فسرقها الفراش وهو يشاهده. فلما خرج طلبها فلم يجدها، فقال استاذ داره: اجمعوا الفراشين واحضروا

المعاصير، فقال له طاشكتين: لاتضرب أحدا فإن الذي أخذها مايردها، والذي رآه ما يغمز عليه، فلما كان بعد مدة رأى على الفراش الذي سرق الحياصة ثيابا جميلة، وبزة ظاهرة فاستدعاه سرا وقال له بحياتي هذه من ذيك؟ فخجل، فقال: لابأس عليك فاعترف فلم يعارضه، وكان طاشتكين قد جاوز تسعين سنة فاستأجر أرضا وقفا ثلاثمائة سنة على جانب دجلة ليعمرها دارا، وكان ببغداد رجل يحدث في الخلق يقال له فتيحة المحدث، فقال: ياأصحابنا نهنيكم مات ملك الموت، قالوا: وكيف؟ قال:طاشتكين عمره مقدار تسعين سنة وقد استأجر أرضا ثلاثمائة سنة فلو لم يعلم إن ملك الموت قد مات مافعل هذا فتضاحك الناس، وكانت وفاته بتستر[٣١] وأوصى بأن يحمل إلى مشهد أمير المؤمنين علي، فحمل في تابوت فدفن فيه.

وفيها: توفي الاخوان مسعود وممدود أبناء الحاجب مبارك بن عبد الله، فمسعود لقبه سعد الدين، وكان صاحب صفد، وممدود لقبه بدر الدين وكان شحنة دمشق، وأمهما أم فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب صاحب دار السعادة، وأصل أمهم من المنيطرة، ففرخشاه أخوهما لأمهما وأختهما لأمهما ست عذراء صاحبة المدرسة المجاورة لدار السعادة وبها تربتها وكانت دارها، وأما أخوها مسعود فداره هي المجاورة لرباط زهرة خاتون قريب حمام جاروخ هي الآن لجمال الدين موسى بن يغمور، وأما ممدود فداره بحارة البلاطة هي الآن لنجم الدين بن الجوعي، وكان مسعود وممدود أميرين كبيرين لهما مواقف كثيرة مع صلاح الدين، وتقدمت وفاة ممدود على وفاة أخيه بشهر واحد، فإنه مات بداره بدمشق يوم الأحد خامس شهر رمضان، وتوفي مسعود بصفد يوم الإثنين خامس شوال.

وفيها: توفي أبو يعلى حمزة بن علي بن حمزة الحراني المقرىء، ويعرف بابن القبيطي، ولد سنة أربع وعشرين وخمسمائة ببغداد، وقرأ القرآن بالروايات على الشيخ أبي منصور الخياط وغيره، وسمع الحديث وكان

حسن الصوت بالقراءة يصلي إماما بالمسجد الذي بجانب البدرية، وكان الناس في ليالي شهر رمضان يأتون إليه من أقطار بغداد يستمعون قراءته، وكانت وفاته في ذي الحجة وصلي عليه بالنظامية، ودفن بباب حرب، سمع أبا الكرم ابن الشهرزوري، وابراهيم بن نبهان الرقي، وسعد الخير الأنصاري، وأبا الفضل الأرموي وغيرهم، وكان صالحا، عفيفا، زاهدا ثقة.

ونقلت من خط العز بن محمد تاج الأمناء: أبو الفضل أحمد بن محمد ابن الحسن قال: يوم الجمعة العشرين من ربيع الأول توفيت أم المعظم ودفنت بالجبل، قلت: يعني بالقبة التي في المدرسة المعروفة بالمعظمية، وفي تلك القبة معها أبناء المعظم عيسى، والعزيز عثمان أبناء الملك العادل أبي بكر بن أيوب، وأخوهما المتوفى قبلهما الملك المغيث عمر بن العادل.

قال: وفي رابع عشر جمادى الآخرة توفي الفقيه شرف الدين أبو الحسن علي بن محمد بن علي جمال الاسلام بن الشهرزوري بمدينة حمص، كان قد سكنها منذ أخرج من دمشق.

قلت: وكان مدرس المدرسة الأمينية والزاوية المقابلة لباب البرادة بالجامع، وكان عالما بالمذهب والخلاف، ماهرا في ذلك.

قال: وفي شعبان هدموا قنطرة الباب الشرقي الرومية لينشر حجارتها بلاطا لصحن الجامع، وفرغ منه في رمضان سنة أربع وستمائة، وفي أول شوال غيروا من قبة الجامع عدة أضلاع من شمالها.

وفي خامس عشر توفي مسعود الحبشي الزاهد، ودفن بالجبل، وفي يوم الخميس سابع ذي القعدة وجد التقي الأعمى مشنوقا بالمئذنة الغربية.

قلت: هذا التقي اسمه عيسى بن يوسف بن أحمد الغرافي، ولد

بالغراف من أرض العراق، وكان ضريرا عفيفا. فقيها مفتيا شافعيا مدرسا بالمدرسة الأمينية خارج باب الجامع القبلي، وكان يسكن في أحد بيوت منارة الجامع الغربية، وكان ابتلي بأخذ مال له من بيته واتهم به شخصا كان يقرأ عليه ويطلع معه إلى البيت يقضي حاجته، ويقوده من المدرسة إلى البيت، ومن البيت إلى المدرسة فأنكر الشخص المتهم ذلك، وتعصبت له أقوام عند والي البلد، فوقع الناس في عرضه من اتهامه من ليس من أهل التهم، ومن كونه جمع ذلك المال وهو وحيد غريب، ونسبوه إلى أنه غير صادق فيما أدعاه فزاد عليه الهم من ضياع ماله والوقوع في عرضه، ففعل بنفسه مافعل، وقد وقع مثل هذا لجماعة وفعلوا فعله، وجرى لي أخت هذه القضية وعصمني الله سبحانة بفضله، وبلغني أن جماعة من المتفقهة امتنعوا من الصلاة عليه، وقالوا: قتل نفسه، فتقدم شيخنا فخر الدين أبو منصور عبد الرحمن بن عساكر فصلى عليه، فاقتدى الناس به رحمهم الله، ودرس بالمدرسة الأمينية بعده الجمال المصري وكيل بيت المال، وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى.

وفي ثامن عشر ذي القعدة توفي الفقيه جامع المغربي، والد العلاء محمد بن جامع ودفن من الغد بالجبل، وتربته مشهورة على الطريق وكان يتولى عقود الأنكحة، وسمع من الحافظ الكبير أبي القاسم وغيره رحمه الله.

ثم دخلت

سنة ثلاث وستمائة

ففيها: فارق وجه السبع(٣٢) حاج العراق وقصد الشام، وكان في الحاج العراقي جماعة من الأعيان فبكوا وضجوا وسألوه فقال: مولاي أمير المؤمنين محسن إلي وما أشكو إلا من الوزير ابن مهدي فإنه يقصدني لقربي من مولاي، وما عن الروح عوض، وسار إلى الشام ودخل الحاج بغداد وعليهم وحشة وكآبة، وأمر الخليفة أن لايخرج الموكب إلى لقائهم، ولايخرج إليهم أحد، وأدخل الكوس والعلم والمهد في الليل، فأقام الخليفة حزينا أياما، وأما وجه السبع فوصل إلى دمشق فالتقاه العادل وأولاده، وخدموه، وأحسنوا إليه.

وفيها: ولى الخليفة عماد الدين أبا القاسم عبد الله بن الدامغاني قضاء القضاء ببغداد، فاستناب أبا الفتح محمد بن المندائي الواسطي في القضاء بواسط.

وفيها: قبض الخليفة على الركن عبد السلام بن عبد الوهاب ابن الشيخ عبد القادر الذي أحرقت كتبه في الرحبة، فاستأصله وأصبح يطلب من الناس، وكان قد بلغه فسقه وفجوره، وكان عبد السلام المذكور هو الذي وشى بالشيخ أبي الفرج ابن الجوزي حتى نكب بما ذكرناه في سنة تسعين وخمسمائة.

قال أبو المظفر: لما قبض ابن يونس الوزير تتبع ابن القصاب أصحابه، فقال الركن عبد السلام بن عبد الوهاب: أين أنت من ابن الجوزي؟ هو من أكابر أصحاب ابن يونس وأعطي مدرسة جدي وأحرق كتبي بمشورته، وهو ناصبي من أولاد أبي بكر، وكان ابن

القصاب متشيعا، فكتب إلى الخليفة وساعده جماعة من أهل مذهبه ولبسوا على الخليفة، فأمر بتسليمه إلى عبد السلام.

قال سبط ابن الجوزي: وكان جدي يسكن بباب الأزج في دار بنفشا، وكان الزمان صيفا، وجدي رحمه الله جالس في السرداب يكتب، وأنا صبي صغير، وإذا عبد السلام قد هجم على جدي في السرداب فأسمعه غليظ الكلام، وختم على كتبه وداره، وشتت عياله وجرى عليهم مالم يجر على أقل الناس، فلما كان أول الليل حملوا جدي إلى السفينة فأنزلوه فيها ونزل معه عبد السلام لاغير، وعلى جدي غلالة بغير سروال وعلى رأسه تخفيفة، وحدروه إلى واسط فاستوفى من جدي بالكلام وجدي لايجيبه، فسبق عبد السلام إلى واسط وكان ناظرها العميد ابن امسينا، وكان متشيعا فقال له عبد السلام: حرس الله أيامك مكني من عدوي لأرميه في المطمورة، فعز عليه وزجره وقال: يازنديق أرمي ابن الجوزي في المطمورة بقولك، هات خط الخليفة، والله لو كان من أهل مذهبي لبذلت روحي ومالي في خدمته، فعاد عبد السلام إلى بغداد وكان إحراق كتبه في سنة ثمان وثمانين، وسببه أنه كان بين ابن يونس وبين أولاد الشيخ عبد القادر عداوة قديمة لأنه كان جارهم بباب الأزج في حال خموله وفقره، وكانوا يؤذونه بحيث أنهم ربوا كلبا ولقبوه جليل، يعنون جلال الدين، وهو لقب ابن يونس، وكان لابن يونس أخ صالح يقال له العماد فسموا بغلا للطحن العماد، وكان من ولد الشيخ عبد القادر لصلبه طحان اسمه سليمان، وكان أشر خلق الله هو الذي فعل هذه الأفاعيل، فلما ولي ابن يونس الوزارة، ثم استاذية الدار، أظهر ماكان في قلبه منهم فبدد شملهم، وبعث بعضهم إلى المطامير إلى واسط فماتوا بها، وكان عبد السلام هذا مداخلا للدولة، وكان عنده كتب كثيرة فبعث ابن يونس فكبس داره وأخرج منها كتب في فنون منها: الشفاء لابن سينا، والنجاة، ورسائل أخوان الصفا، وكتب الفلاسفة، والمنطق، وتبخير الكواكب، والنارنجيات، والسحر، فاستدعى ابن يونس، وهو يومئذ

أستاذ دار الخليلفة، العلماء، والفقهاء، والقضاة، والأعيان، وكان جدي فيهم وقرىء في بعضها:« أيها الكوكب الفرد أنت تدبر الأفلاك وتحيي وتميت وأنت إلهنا» وفي حق المريخ من هذا الجنس، وكان عبد السلام حاضرا فقال له ابن يونس: هذا خطك؟ قال: نعم، قال: لم كتبته؟ قال: لأرد على قائله ومن يعتقده، فسألوه فيه فقال: لابد من تحريق الكتب، فلما كان يوم الجمعة ثاني عشر صفر جلس قاضي القضاة، والعلماء، وجدي معهم على سطح المسجد المجاور لجامع الخليفة وأضرموا تحت المسجد نارا عظيمة، وخرج الناس من الجامع فوقفوا على طبقاتهم والكتب على سطح المسجد بين أيديهم، فقام رجل يقال له ابن المارستانية فجعل يقرأ كتابا كتابا ويقول: العنوا من كتبه ومن يعتقده، فيصيح العوام باللعن، وعبد السلام حاضر وتعدى اللعن إلى الشيخ عبد القادر، وأحمد بن حنبل، وظهرت الأحقاد البدرية، وقال الخصوم أشعارا منها قول المهذب الرومي ساكن النظامية:

لي شعر أرق من ديـن ركن الـد
ين عبد السلام لفظا ومعنى
زحليا يشنا عليا ويهوى
آل حرب حقدا عليه وضغنا
منحته النجوم إذ رام سعدا
وسرورا نحسا وهما وحزنا
سار إحراق كتبه سير شعري
في جميع الأقطار سهلا وحزنا
أيها الجاهل الذي جهل الحـ
ـق ضلالا وضيع العمر غبنا
رمت جهلا من الكواكب بالتبخـ
ـير غرا فنلت ذلا وسجنا
ما زحيل وما عطارد والمر
يخ والمشتري ترى ما معنى

كل شيء يورى ويفنى سوى الـ
ـله فإنه ليس يفنى

ثم حكم القاضي بتفسيق عبد السلام، ورمى طيلسانه وولى جدي مدرسة الشيخ عبد القادر فذكر الدرس بها في ربيع الأول.

وفيها: قدم البرهان محمد بن مازة البخاري، ويلقب بصدر جهان حاجا إلى بغداد، وتلقاه جميع من ببغداد ماعدا الخليفة والوزير، وأنزل في دار زبيدة على نهر عيسى، وحملت إليه الإقامات والضيافات، وكان معه ثلاثمائة من الفقهاء والمتفقهة، وجرى له في حجه ماسنذكره في أول السنة الآتية.

وفيها: نزلت الفرنج على حمص، وكان الظاهر بعث إليها المبارز يوسف بن خلطخ الحلبي نجدة لأسد الدين الأصغر شيركوه الأصغر، وأسر في هذه المرة الصمصام بن العلائي، وخادم صاحب حمص.

قال ابو المظفر وفيها: فارقت دمشق قاصدا حلب فوصلتها في ذي الحجة، واجتمعت بالنقاش الحلبي الشاعر، واسمه مسعود بن أبي الفضل أبو الفتح، ولقبه تاج الدين، مولده سنة أربعين وخمسمائة، وقدم دمشق سنة تسع وستمائة وأنشد الجماعة قطعا من قصائده منها:

مالي سوى حبكم مذهب
ولا لي إلى غيركم مذهب
ناشدتك الله نسيم الصبا
من أين هذا النفس الطيب
أودعت بردك وقت الضحى
مكان القت عقدها زينب
أم باسمت رياك روض الحمى
وذيلها من فوقه يسحب

فهـــات اتحفنـــي بـــأخبـــارهـــا
فعهـــــــدك الآن بها أقـــــــرب

ومنها:

أي يـــــد عنـــــدي وأي منـــــه
للـــــركـــــب إن بشرني بهنـــــه
صـــاحـــوا الـــرحيـــل فظللـــت واله
أنشـــــد قلبـــــي بين عيشهنـــــه
كـــأننـــي بـــالحي قـــد شـــدوا العـــرى
ليلهـــــم وأرخـــــوا الأعنـــــه
ومـــاسمعـــت قبـــل أن يـــرحلـــوا
بمطلـــع الشهـــب مـــن الأسنـــه
يـــاحـــادي الأظعـــان رب فـــرح
أحـــدثـــه طيـــب حـــديثهنـــه
فـــاسلـــم وقـــل للـــراحلين أن يكـــن
بين فـــــرقـــــا بقتيلكـــــن

ومنها قصيدة في صاحب بعلبك الأمجد بن فرخشاه:

زار وطـــرف النجـــم لم يـــرقـــد
متـــزر مـــن حسنـــه مـــرتـــد
أحـــور يحكـــي الخال في خـــده
نقطـــة يـــد فـــوق وردنـــد
يـــاحسنـــه مـــن زائر مـــابـــدا
إلا وأنســـى قمـــر الأسعـــد
ويـــاضـــلالي فيـــه مـــن بعـــد مـــا
يمـــر أوجهـــه اهتـــدي
فيـــالهامـــن ليلـــة لم يفـــز
بمثلهـــا الهادي ولا المهتـــدي

إذا اجتلى في ليـــل أصـــداغـــه
من وجهـه شمـس صبـاح الغـد
وعـاذل عنـف فيـه ومـن
ينـام البـدن ولم يحسـد
ظـن خـلاصي في يـدي فـاعتـدى
وقـال يهوى قـاتـلا لا يـدي
فقلـت لا تـرج سلـوى فقد
خلعـت سلـواني على عـودي
أأهجـر العيـس لهجـري لـه
وأخـرج الفـوز بـه عـن يـدي
وانثنـي منـه إلى هجـره
لا وحيـاة الملـك الأمجد(٣٣)

وفيها: توفي اسماعيل بن علي أبو محمد الحظيري، من حظيرة الدجيل، كان أديبا فاضلا شاعرا أنشد لنفسه:

لا عـالم يبقـى ولا جـاهـل
ولا نبيـه لا ولا خـامـل
على سبيـل مهيـع لاحـب
يـوري أخـو اليقظـة والغـافـل

وفيها: توفي عبد الرزاق بن الشيخ عبد القادر الجيلي، كان زاهدا عابدا ورعا لم يكن في أولاد الشيخ مثله، ولد سنة ثمان وعشرين وخمسمائة، وسمع الحديث الكثير، وكان مقتنعا من الدنيا باليسير، وكانت وفاته في شوال، ودفن بباب حرب، سمع أبا الكرم بن الشهرزوري وطبقته، وكان صالحا ثقة لم يدخل فيما دخل فيه غيره من أخوته.

وفيها: في ربيع الأول توفي أبو منصور عبد الرحمن بن الحسين بن عبد الله النعماني النيلي المعروف بالقاضي شريح، لقب بذلك لذكائه وفطنته،

وكان يتوقد ذكاء وفضلا، كأنهم شبهوه بالقاضي شريح الأكبر الذي كان في زمن الصحابة رضي الله عنهم، ولي شريح هذا قضاء النيل مدة، ثم قدم بغداد، فندب إلى المراتب الكبار، فلم يدخل في شيء منها فرمى طاشتكين أمير الحاج نفسه عليه وسأله أن يكتب له فاستحيا منه وكتب له، فأقام عنده مدة عشرين سنة، فقصده الوزير ابن مهدي حسدا لفضله، وكان فاضلا، مترسلا بليغا، جوادا، سمحا حسن الصورة فصيح اللسان متواضعا لطيفا، يصلح للوزارة فلبس على الخليفة في أمره فحبسه في دار طاشتكين بدار الخليفة، ولم يقدر طاشتكين على الكلام فيه ومات طاشتكين وهو محبوس، ثم مات شريخ بدار طاشتكين، فأخرج منها ميتا فدفن بداره في القبيبات، ومن العجائب ان ابن مهدي نكب بعد وفاة شريح وحبس بدار طاشتكين أيضا، وبها مات كما سنذكر في أخبار السنة الآتية، ورسائل شريح مدونة في مجلدين رحمه الله.

وفيها. توفي بالموصل في شوال أبو الحرم مكي بن ربان بن شبة الماكسيني الموصلي النحوي، قدم بغداد وقرأ على ابن الخشاب، وابن العصار، والكمال الأنباري، وبرع في علم النحو، وقدم الشام فأقام بحلب مدة، وانتفع به خلق عظيم، وقدم دمشق وقرأ عليه شيخنا أبو الحسن السخاوي، رحمه الله كتاب أسرار العربية للأنباري، وربما يقع تصحيف في اسم أبيه وجده فاعلم: أن اسم أبيه أوله راء بعدها باء معجمة بواحدة من تحت وشبة على وزن حبة، وبدأ بذكره في تاريخ إربل شرف الدين ابن المستوفي لأنه شيخة ووصفه وأثنى عليه، وقال ولد بماكسين من ولاية سنجار، ونزل بالموصل بعد أن رحل في طلب العلم إلى بغداد، وكان سبب عماه جدريا لحقه وهو ابن ثمان أو تسع ، وكان يتعصب لأبي العلاء أحمد بن سليمان المعري للجامع بينهما من العمى والأدب، وكان قد نصب نفسه للانتفاع عليه بالقرآن العزيز، وجميع ضروب الأدب، فكان لايتفرغ إلا للصلاة المكتوبة أو إلى لما مالابد منه،

وتخرج عليه جماعة من أصحابه، وكان أخذ عن أبي بكر يحيى بن سعدون القرطبي الأصل الموصلي الوفاة ومن شعره:

إذا احتاج النوال إلى شفيع
فلا تقبله تضح قرير عين
إذا عيف النوال لفرد من
فأولى أن يعاف لمنتين

وله ألغاز في اسم دعد:

اسم الذي أنا عبدها
يا أيها الرجل الحكيم
تلقيه معكوسا كما
تلقيه إذ هو مستقيم

قلت: وكفى من ذلك أن يقول اسمها إن عكسته مثله إن تركته.

وفيها: توفي جمال الدولة إقبال الخادم بالبيت المقدس رابع عشر ذي القعدة بعد أن وقف داريه بدمشق مدرستين إحداهما للشافعية وهي الكبرى، والأخرى للحنيفية وهي الصغرى، ووقف عليهما مواضع ثلثاها لمدرسة الشافعية، والثلث الباقي لمدرسة الحنيفية، وكان من خدام صلاح الدين رحمه الله.

ثم دخلت

سنة أربع وستمائة

ففيها: قدم حاج العراق بغداد في صفر، وحكوا مالقوا من صدر جهان وشدة العطش، وأن غلمانه كانوا يسبقون الناس إلى المناهل فيأخذون الماء فيرشون به حول خيمته، ويسقون أحواض البقل على الجمال، ومات أكثر الناس عطشا، وسموا هذه السنة صدر جهنم ولما وصل إلى بغداد لم يخرج أحد للقائه ولعنوه في وجهه، وسبوه في الأسواق، وكتبوا لعنته على المساجد والجوامع، وكان النساء يخرجن متبرجات منشرات الشعور يلطمن على موتاهن ويقلن العنوا صدر جهنم، فسأل الوزير أن يأذن له في الرجوع إلى بلده، فخلع عليه جبة وعمامة وطيلسان، وخرج من بغداد والناس خلفه يسبونه ولم يقدر أحد على منعهم.

قال أبو المظفر وحججت أنا في هذه السنة وهي الرابعة، فرأيت من الموتى ماأذهلني وخصوصا في النقرة والعسيلة فإني رأيت فيها مايزيد على خمسة آلاف ميت، ومشينا ثلاثة أيام في الأموات.

وفيها: في جمادى الآخرة قبض الخليفة على الوزير ابن مهدي ليلا، بعث إليه من أغلق بابه، فأقام أياما، ثم نقله في رجب إلى دار طاشتكين في دار الخليفة الذي مات فيها القاضي شريح، ونقل أهله وأولاده وأمواله وذخائره ووجد له من الأموال والذخائر مالم يوجد في خزائن الخلفاء، ولم يتعرض له الخليفة وفوض الأمر إلى المكين محمد القمي كاتب الإنشاء بين يدي ابن مهدي، وناب القمي بعد ذلك في الوزارة إلى أيام المستنصر فقبض عليه، واختلفوا في سبب عزل الوزير ابن مهدي، فقال قوم: كان ظالما جبارا قاسيا، متكبرا قليل الرحمة، قل أن حبس أحدا فتخلص منه.

حكي لي خالي أبو محمد يوسف قال: شفعت إليه يوما في محبوس،

فقال: وكم له في الحبس؟ فقلت: خمس سنين، قال: ليس هذا بمحبوس المحبوس عندنا في العجم من يمضي عليه خمسون سنة[٣٤].

وقال آخرون إن المكين القمي سعى به إلى الخليفة وقال: إنه طمع في الخلافة ويقول إنه علوي ونحن أحق، وأنه ينفذ الأموال إلى العجم في قواصر التمر إلى أهله بخراسان ليجندوا العساكر ويقيموا ملكا يقصد بغداد، وقال آخرون أنه اتفق مع ابن ساوا النصراني على قتل علاء الدين ايتامش مملوك الخليفة في هذه السنة، وسنذكره، ولما ظهر خبره واستقلاله بالأمور، هجاه أهل بغداد وكتبوا الأشعار وأوصلوها إلى الخليفة منها ماكتب به يعقوب بن صابر المنجنيقي:

خليلي قولا للخليفة أحمد
توق وقيت السوء ما أنت صانع
وزيرك هذا بين أمرين فيهما
صنيعك ياخير البرية ضائع
فإن كان حقا من سلالة حيدر
فهذا وزير في الخلافة طامع
وإن كان فيما يدعي غير صادق
فأضيع ماكانت لديه الصنائع

وجلس يوما في الديوان فوقعت بين يديه ورقة مختومة فلم يتجاسر على فتحها، فبعث بها إلى الخليفة وكان فيها:

إن صح فيما تزعم يا مدعي
إلى نبي لست من نسله
لاقاتل الله يزيدا ولا
مدت يد السوء إلى نعله
لأنه قد كان ذا قدرة
على اجتثاث العود من أصله

وإنما أبقــــــاك أحـــــــدوثــــــة
للنــــاس كــــي يعـــزر في فعلـــه

فكـان سبب حتفـه، لأن الخليفـة قال: مـاكتبـوا هـذه إلا وقد أهلـك الحرث والنسل.

وفيها: رتب الخليفـة في شهر رمضان دور الضيافـة ببغداد من الجانبين عشرين دارا في كل دار في كل ليلة خمسمائة قـدح وألف رطل من الطبيخ الخاص، والخبز النقي، والحلواء وغير ذلك مستمر في رمضان.

وفيها: وصـل إلى بغداد مـن دمشق قـاضي عسكر الشـام نجم الـدين خليل الحنفـي رسولا مـن العادل أبي بكـر بن أيـوب، وأخرج في مقـابلته الشيخ شهاب الدين السهـروردي وسنقر السلحدار، ومعهما الخلع للعادل وأولاده وكان في خلعة العادل الطوق والسواران.

وفيها ملـك الأوحد بن العـادل مدينة خلاط، كـاتب أهلها بعـد قتل ابـن بكتمر صـاحبها والهزار دينـاري، وكان دينـاري هو الـذي قتل ابـن بكتمر، وكـان شابا لم يبلـغ عشرين سنة ولم يكـن فيها احسن منـه، وقيل إنه أغرقـه في بحر خلاط، وكانت أختـه مع صاحب أرزن الـروم فقالت: لاأرضى حتى تقتـل الهزار ديناري وتـأخذ بثـأر أخي، فسـار إلى خلاط وخرج الهزار دينـاري للقائه فـأبان رأسـه، وعاد إلى الـروم وبقيت خـلاط بغير ملك، وكـان الأوحد هـو صاحـب ميافـارقين فكاتبـوه فجاء إليهـم واستـولى عليها، وكـانـوا جبابـرة وتشرط عليـه المقـدمون بها فشرع فيهـم فأبادهم في بحر خلاط وبدد شملهم.

ذكر شيخنا ابن الأثير في تاريخه أن ابن بلبان مملوك شاه أرمن، لما أخذ خلاط مـن ابن بكتمـر قصد الأوحد مـوشى من أعمال خـلاط فأخـذها وغيرهـا، ثم طمـع في خلاط فقصـدها فهـزمـه بلبان فـرجع الأوحـد إلى

ميافارقين وحشد وعاد إليه، فاستنجد بلبان بصاحب أرزن الروم وهو مغيث الدين طغرلشاه بن قلج أرسلان فأنجده بنفسه، وهزما الأوحد، ثم غدر مغيث الدين ببلبان فقتله طمعا في البلاد، وسار إلى خلاط فمنعه أهلها فعاد عنها، فأرسلوا إلى الأوحد فحضر إليهم فسلموها إليه(٣٥).

وفيها: حج بالناس من الشام بدر الدين مودود فرحل من دمشق ثامن عشر شوال وصحبه الملك المحسن بن صلاح الدين، جاور في تلك السنة، وودعهم السلطان العادل إلى الكسوة وحج معه تلك السنة شيخ الشيوخ صدر الدين بن حموية وأولاده، وشبل الدولة الحسامي، وخلق كثير منهم: أبو المظفر سبط ابن الجوزي وهي أول حجاته، وكانت الوقفة يوم الأربعاء وعاد إلى العراق، وحج بالناس من العراق في هذه السنة والتي قبلها مجاهد الدين ياقوت.

وفيها: توفي علاء الدين إيتامش بن عبد الله مملوك الخليفة الناصر، وكان شجاعا عاقلا صالحا متصدقا رحوما رقيق القلب، ولايعرف المسكر، ولا الفواحش، وكان يطعم المسكين ويكسو العاري، وكان الخليفة يحبه ويقربه، والوزير ابن مهدي يشنأه لقربه من الخليفة، وكان ابن مهدي قد ولى الدجيل ودقوقا رجلا نصرانيا يقال له ابن ساوا، فتسلط على المسلمين وفتك وظلم وأهان المسلمين وأذلهم، وكان يركب مثل صاحب الديوان وجميع الناس مشاة بين يديه، قالوا: وكان ابن ساوا يحمل مغل البلاد إلى ابن مهدي فيأخذ منها مايريد ويعطي الخليفة مايريد، فأقطع الخليفة إيتامش دقوقا والدجيل، فخرج إليهما واطلع على الاحوال فخاف ابن مهدي، قالوا: فاتفق مع ابن ساوا على أن يسم إيتامش فمضى النصراني إلى دقوقا وتوصل إلى إيتامش ودس عليه من سقاه السم فمرض إيتامش وعاد إلى بغداد مريضاً، فمات بعد أيام، فتقدم الخليفة، بأن يفتح له جامع القصر ولا يتخلف عن جنازته أحد

من أرباب الدولة إلا الخليفة والوزير، وحمل إلى مشهد موسى بن جعفر فدفن هناك، وعلم الخليفة بباطن الحال فأمر بأن يسلم ابن ساو ا إلى غلمان إيتامش، فكتب إلى المهدي إلى الخليفة يقول: إن النصارى قد بذلوا في ابن ساوا خمسين ألف دينار ولا يقتل، فكتب الخليفة على رأس الورقة:

إن الأسود أسود الغاب همتها
يوم الكريهة في المسلوب لا السلب

فسلم ابن ساوا إلى مماليك علاء الدين فأخرج من دار الوزير وفي رقبته حبل وهو مكتوف فقتلوه وأحرقوه، وكان لابن مهدي مملوك عاقل يقال له آق سنقر الدوادار، كان يطالع الخليفة بأخبار ابن مهدي، وأنه يكاتب الأعاجم ويسعى في فساد الدولة، وعلم الوزير فسقاه السم فمات في ربيع الآخر هو وعلاء الدين إيتامش في أيام قريبة وقبض الخليفة على ابن مهدي في جمادى.

وفيها: في شهر رمضان توفي شرف الدين الناقد بن قنبر، واسمه الحسن بن أبي طالب. ولاه الخليفة حجبة الباب وناب في الوزارة، ثم ولاه صاحب المخزن فتجبر وطغى، وبنى بدرب المطبخ دارا تناهى في بنائها فلم يكن ببغداد مثلها، وشرع في الظلم والفسق وتجاهر به، ومد عينيه إلى أولاد الناس، وكان قبيح السيرة، فرفع أمره إلى الخليفة فأخذه أخذ عزيز مقتدر، وقبض عليه واستأصله، ونقض داره إلى الأساس، وحبسه فأخرج في رمضان ميتا فدفن بمشهد باب البير.

وفيها: توفي أبو علي حنبل بن عبد الله بن الفرج بن سعادة المكبر بجامع الرصافة وكان فقيرا جدا، وكان قد سمع المسند من ابن الحصين، فقيل له: لو سافرت إلى الشام، فخرج من بغداد فأسمع المسند بإربل فسمعه ابن زين الدين، وبالموصل، وبدمشق فسمع عليه الملك المعظم

عيسى بالكلاسة في جمع كثير، وهو آخر من رواه عن ابن الحصين، فألحق الصغار بالكبار، وكان كثير الأمراض بالتخم، وكان الملك المعظم يطعمه ألوان الطعام وأشياء مارآها ولا في المنام وكان معودا ببغداد أكل الهرطمان(٣٦) وتلك الألوان، وبلغني أن الشيخ تاج الدين الكندي حضر عندهم يوما في السماع، ولم يحضر حنبل فقال تاج الدين: وأين حنبل؟ فقال المعظم: هو متخوم، فقال تاج الدين: أطعمه عدس، فضحك المعظم والجماعة، وكان عمر بن طبرزد قد رافقه من بغداد إلى الشام وحصلا مالا طائلا، وعاد إلى بغداد، فاشترى حنبل العتابي والكاغد، وعزم على العود إلى الشام في تجارة فأدركته المنية رابع عشر محرم سنة أربع وستمائة وله تسعون سنة، وحمل المال إلى بيت المال ولم يكن له وارث ودفن بباب حرب، ومات ابن طبرزد في سنة سبع وستمائة كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

وفيها: في صفر توفي عبد الرحمن بن عيسى بن أبي الحسن البزوري الواعظ من أهل باب البصرة ولد سنة تسع وثلاثين وخمسمائة، وقرأ على الشيخ أبي الفرج بن الجوزي الوعظ، والفقه، والحديث، ثم حدثته نفسه بمضاهاته حتى كنى نفسه أبا الفرج واجتمع إليه سفاف أهل باب البصرة، وانقطع عن جدي ولما جاء من واسط ماجاء إليه ولازاره، وكان في عشر السبعين تزوج صبية واغتسل في يوم بارد فانتفخ ذكره، ومات، وسمع أبا الوقت وغيره.

وفيها: توفي عبد المجيد بن أبي القاسم عبد الله بن زهير أبو محمد الحربي ابن أخي عبد المغيث الحربي، ولد سنةسبع وعشرين وخمسمائة وسمع الحديث الكثير، وكان تردد من عند الخليفة إلى العادل في أمور خاصة فخرج في السنة الماضية وعاد في هذه السنة، فتوفي بحماة وكان صالحا ثقة.

وفيها: توفي الأمير زين الدين قراجا الصلاحي، صاحب صرخد، وداره في دمشق بالذلاقة بنواحي باب الصغير، وكان شجاعا جوادا توفي بدمشق ودفن بجبل قاسيون وقبره عند تربة ابن تميرك في قبة على الجادة على يمين السالك شرقا، كذا قال أبو المظفر.

. وقال العز بن تاج الأمناء: توفي بالعسكر على بحيرة قدس مرابطا يوم السبت أول جمادى الأولى، وحمل إلى دمشق في محفة فدفن في المقبرة العادلية من جبل قاسيون حالة وصوله بكرة يوم الاثنين ثالث جمادى الأولى المذكور، ووضل ابنه ناصر الدين يعقوب من قلعة صرخد إلى خدمة السلطان العادل وهو على القدس، فأكرمه وأنعم عليه بما كان بيد أبيه، ثم توفي في سنة أربع عشرة وستمائة وعمره، إحدى وعشرين سنة وثلاثة أشهر.

وفيها: توفي أبو الثناء محمود بن هبة الله بن أبي القاسم الحلي البزار، قرأ القرآن على علي بن عساكر البطائحي، والأدب على أبي محمد بن الخشاب، وسمع الحديث على أبي الوقت، وحكي عن اسماعيل بن موهوب الجواليقي قال: كنت في حلقة والدي أبي منصور موهوب يوم جمعة بعد الصلاة بجامع القصر والناس يقرأون عليه، فوقف عليه شاب فقال: ياسيدي مامعنى قول القائل؟:

وصل الحبيب جنان الخلد أسكنها
وهجره النار تصليني بها النهارا
فالشمس بالقوس أضحت وهي نازلة
إن لم يزرني وبالجوزاء إن زارا

فقال له والدي: يابني هذا شيء يتعلق بسير الشمس بالبروج، ومايتعلق بعلم الأدب، ثم قام والدي وآلى على نفسه ألا يعود إلى مكانه ذلك حتى ينظر في علم النجوم ويعرف سير الشمس والقمر، فنظر فيه

وعلمه بحيث إذا سئل عن شيء أجاب، ومعنى الشعر: إن الشمس إذا نزلت في القوس يكون الليل في غاية الطول، فإذا كانت في الجوزاء كان الليل في غاية القصر.

وفيها: في ربيع الأول توفيت ست الكتبة واسمها نعمة بنت علي بن محمد بن يحيى بن محمد بن الطراح، وكانت صالحة زاهدة عابدة راوية للحديث، روت كتاب الشمائل للترمزي عن أبي شجاع عمر بن أبي الحسن البسطامي، وعن جدها أبي محمد بن يحيى بن محمد الطراح وغيرهما، ودفنت بباب الفراديس:

وفيها: في تاسع شهر رمضان توفي عمي الشيخ أبو القاسم بن ابراهيم ابن عثمان بن الخشاب ودفن بالمقبرة التي بين الباب الشرقي وباب توما رحمه الله.

وفيها: في ذي القعدة توفي عبد العزيز الطبيب فجأة،وهو والد سعد الدين الطبيب الأشرفي وهو الذي عناه القائل أظنه ابن عنين بقوله:

فرادى ولاتخلف الخطيب جماعة
وموت ولاعبد العزيز طبيب(٣٧)

وفي شعبان سار أولاد صلاح الدين إلى حلب، وفي ثاني رمضان تجدد هواء قوي عقيبه مطر وثلج بحيث رمى بعض رصاص المسجد على رجلين في صلاة الجمعة فقتلهما.

وفي سابع عشر رمضان وصلت رسل الخلافة والشيخ شهاب الدين السهروردي، ونور الدين التركي الخليفتي، ولبس السلطان العادل أبو بكر، وولداه المعظم، والأشرف، والوزير صفي الدين بن شكر، وأستاذ الدار شمس الدين الدكز العادلي الخلع من القصر إلى القلعة، وكان

دلدرم حامل التقليد على رأسه بين يدي السلطان، ودخل جميعهم من باب الحديد عند آذان الظهر، وأنزل الرسل بدار عز الدين فرخشاه، ورباط خاتون، وقرأ الوزير التقليد قياما الى أن فرغ من قراءته، واتقن حضور شهاب الدين بن شداد قاضي حلب رسولا من الظاهر صاحبها، وعلى يده ألف دينار للنثار فلم يأذن له العادل بنثارها، وأمره بعد ذلك بحملها للرسل ثم عادت رسل الخليفة إلى بغداد وصحبتها قاضي العسكر خليل الحنفي، وشمس الدين الدكز أستاذ الدار بهدايا سنية وودعهم العادل إلى القصير.

وفي رجب ركبوا الساعة بالمئذنة الشمالية بالجامع، وشرعوا في عمارة البرج الذي في قبالة المدرسة القيمازية، وفي ثالث شوال ذكر القاضي شرف الدين عبد الله بن زين القضاة عبد الرحمن بن سلطان الدرس في مدرسة ابن رواحة، وفي رابع وعشرين شوال سار الشيخ فخر الدين بن عساكر إلى القدس للإقامة بالمدرسة الناصرية، وفي الخامس والعشرين منه اعتقل السلار بهرام وأولاده على العملة بالقيسارية، وهي العملة المعروفة بابن الدخينة، واشتهرت في البلاد.

وفيها: وصل الخبر إلى دمشق بحدوث زلازل بنواحي بلد خلاط، وريح بحيث وقع خسف بموضع قد كان الأوحد بن العادل نازلا به، ورحل عنه قبل ذلك بليلة.

وفيها: توفي العفيف ابن الدوجي إمام مقصورة الحنفية الغربية بجامع دمشق.

ثم دخلت

سنة خمس وستمائة

ففيها: تكاملت دار الضيافة ببغداد بالجانب الغربي للحجاج الواردين من البلاد، ورتب لهم الخليفة فنون الأطعمة والزاد، وإذا عادوا من الحج فرقت فيهم الدنانير والثياب، ووصل حاج الشام دمشق في التاسع والعشرين من المحرم، وجاور الملك المحسن وتوفي أخوه الأشرف بحلب، وفي تاسع المحرم يوم الجمعة دخل عند الأذان في السحر مملوك افرنجي كان لفلك الدين سليمان وكان سكران إلى مقصورة الخطابة وفي يده سيف مشهور ضرب به جماعة مات منهم اثنان أو ثلاثة، ووقعت بعض الضربات في جانب المنبر فأثرت فيه، والناس مجتمعون لصلاة الصبح، وعملت في ذلك أشعار كان يغنى بها في الأسواق وسمعتها وأنا صغير أحفظ منها:

مقصورة الخطيب طلب
والناس ولوا الهرب
في جانب المنبر ضرب
بالسيف حتى انكسر

ثم قبض عليه وترك بالمارستان وشنق بجسر اللبادين آخر النهار، ولم يكن على الجسر ذلك الزمان هذه العمارة بل كان على حافته الشرقية درابزين يدلى المشنوق فيه إلى الطريق المسلوكة، بجيرون، فيراه الناس من الطريق كما يرون المارة بالجسر المذكور.

وفيها: دخل الشيخ شهاب الدين السهروردي إلى بغداد من الرسالة بالشام، ومعه شمس الدين ألدكز أستاذ دار العادل، فتلقى الموكب الدكز، وكان معه الهدايا والتحف، وأعرض عن الشيخ الشهاب ونقم

عليه حيث مدّ يده إلى الأموال بالشام وحضر دعوات الأمراء سامة وغيره، وقد كان قبل الرسالة زاهدا فقيرا، وأخذ منه الربط التي كانت بيده: رباط الزوزني، والمرزبانية، ومنع من الوعظ، فقال: ماقبلت هذه الأموال إلا لأفرقها على الفقراء ببغداد وشرع يفرق الأموال والثياب في الزوايا والربط.

قال أبو المظفر: كان من عادة خالي أبي محمد يوسف يجلس يوم السبت تحت تربة أم الخليفة، والشهاب يجلس يوم الثلاثاء بباب بدر، فمنع الشهاب من الجلوس، وأمر خالي فجلس مكان الشهاب بباب بدر فاتفق أن حكى خالي حكاية الذي نظر في الرحبة إلى شخص مستحسن فاسود بعض وجهه، فرأى في المنام قائلا يقول: اذهب إلى بغداد إلى شيخك الجنيد فسله أن يستغفر لك: فنزل إلى بغداد وطرق زاوية الجنيد فقال له الجنيد: تذنب بالرحبة واستغفر لك ببغداد، فقال الناس: ماقصد إلا الشهاب، ومعناه لو تركت هذه الأموال بالشام كان أصلح من أخذها وتفريقها ببغداد، والظاهر أن خالي ماقصد نكت الشهاب، وإنما وقع ذلك على سبيل الاتفاق، وقد أغنى خلقا كثيرا من فقراء المسلمين بالشام والعراق والأموال كلها للمسلمين فقد صرفت إلى أرباب الاستحقاق.

قال: وكان الفخر بن تيمية قد حج في السنة الماضية وكتب مظفر الدين بن زين الدين معه كتابا إلى الخليفة بالوصية عليه فلما عاد من مكة سأل الجلوس بباب بدر فأجيب إلى ذلك، وتقدم إلى خالي بالحضور فحضر وقعد على دكة المحتسب بباب بدر، ووعظ ابن تيمية ومدح الخليفة وأنشد في أثناء ذلك:

وابن اللبون إذا مالذ في قرن
لم يستطع صولة البزل القناعس

فقال العـوام: ماقصد إلا خـالي يعني أن ابـن تيمية كان شيخـا وخالي شاب، قـال: وكان الخليفة خلع على الشمـس ألدكز أستـاذ دار العادل، وعاد إلى الشام بالهدايا.

وزلزلـت نيسابـور زلزلـة عظيمة ودامـت عشرة أيام، فمات تحت الهدم خلق عظيم.

وحج بـالناس من العراق المجـاهد ياقـوت، ومن الشام حسام الـدين قايماز والي القدس الشريف.

قال العز بـن تاج الأمناء: في عشية ثالث عشر رجـب جرى بين التاج الكندي وابن دحية كلام ومشاتمة عند الوزير.

قلت: حكى لي من حضر ذلك المجلس أن الشيخ الحافظ أبا الخطاب عمر بـن دحية لما عـاد من رحلته الخراسـانية قصد مجلـس الوزيـر صفي الـدين عبد الله بـن علي المعروف بـابـن شكر وزيـر العـادل، وكان الشيـخ العلامة تاج الدين الكندي جالسا إلى جنبه فأجلس ابن دحية إلى الجانب الآخر، فشرع ابن دحية يـورد حديث الشفاعة، فلما وصل إلى قـول ابراهيم الخليل صلوات الله عليـه وقوله: « إنما كنت خليـلا من وراء، وراء» لفظ بـاللفظتين بفتح الهمـزة فيهما فقـال الكنـدي:« وراء. وراء» بالضـم فعـز ذلك على ابن دحية وكـان جريئا ذا أنفة من الرد عليه، فقـال للوزير: من ذا الشيخ؟ فقال له: هـذا تاج الدين الكندي، فسمج ابـن دحية في حقه بكلمات فلـم يسمع مـن الكندي إلا قـوله: هـو من كلـب فنبح، وهـذه تورية حسنة من لفظ حلو، وذلـك أن ابن دحية كان ينسب إلى كلب من العـرب، وهي قبيلـة دحية الصحـابي رضي الله عنـه، وفي الانتساب إليـه كـلام ونظر، فـإن جماعة مـن المتقدمين قـالـوا لم يعقب على مـاذكرنـاه في ترجمتـه في تاريخ دمشق، ووقـع الناس في أبي الخطاب بسبب ذلـك حتى

قال بعضهم:

دحيـــة لم يعقـــب فـــلا تنتســـب
إليـــه بـــالبهتـــان والإفـــك
مـــا صـــح عنـــد النـــاس شيء ســـوى
إنـــك مـــن كلـــب بـــلا شـــك

فأخذ الشاعر المعنى الذي أشار إليه الكندي بذلك اللفظ الوجيز، أما اللفظتان المتنازع فيهما، فرأيت في أمالي أحمد بن يحيى ثعلب جواز الأمرين فيهما، والجر أيضا وقد نظمت ذلك في كتاب مفصل الزمخشري وغيره من المسائل النحوية وبالله التوفيق.

وفيها: في ثالث شهر رمضان توفي عم جدي عبد الرحمن بن أبي بكر ابن ابراهيم محمد المقدسي ويعرف بعبدان المعلم، كان معلما في المكتب الذي بباب الجامع الشامي قبالة خانقاه السميساطي، وعمر طويلا نحو تسعين سنة، ودفن بباب الفراديس، ومات جدي الذي هو ابن أخيه قبله بزمان، قرأت بخط عمي أبي القاسم بن ابراهيم بن عثمان الخشاب رحمه الله قال: توفي الشيخ الإمام أبو اسحاق ابراهيم بن الفقيه الإمام عثمان ابن أبي بكر المقدسي إلى رحمة الله في السابع والعشرين من شعبان سنة خمس وثمانين وخمسمائة قال: وتوفيت والدة أبي القاسم المذكور في ثاني شعبان سنة خمس وثمانين وخمسمائة وهي جدتي أم أبي اسماعيل، فبينها وبين وفاة جدي شهر واحد، ودفنت بباب شرقي، ودفن جدي بباب الفراديس قبالة تربة الصفي بن القابض بينهما الطريق وعلى قبر عم جدي بلاطة فيها اسمه وتاريخ وفاته.

وفيها: توفي أبو العباس الخضر بن علي الجزري، ولد بجزيرة ابن عمر في سنة خمس وعشرين وخمسمائة، وقدم بغداد وله يد في تعبير الرؤيا وانشد لنفسه:

أنســت بــوحــدتي حتــى لــو أني
رأيــت الأنــس لاستــوحشــت منــه
ومــا ظفــرت يــدي بصــديــق صــدق
أخــاف عليــه إلا خفــت منــه
ومــا تــرك التجــارب لي حبيبــا
أميــل إليــه إلا ملــت عنــه

وفيها : توفي محمد بن بختيار بن عبد الله أخو أستاذ دار الخليفة، كان فاضلا أديبا أنشد يوما:

قسما بمــن سكــن الفــؤاد وإنــه
قســم بــه لــو تعلمــون عظيــم
إني بــه صــب كئيــب مــدنــف
قلــق الفــؤاد مــولــه مهمــوم
لا يستطيــع مــع التنــائي سلــوة
حتــى الممات وإننــي لسليــم
فتعطفــوا بــالــوصــل بعــد تهاجــر
فــالصبر ينفــد والــرجــاء مقيــم

وفيها: توفي الأمير سنقر الصلاحي بحلب رابع عشر المحرم، وهو أحد الأمراء المذكورين المجاهدين.

وفيها: في ربيع الأول توفي الشيخ أبو الخير مصدق بن شبيب بن الحسن النحوي الصلحي، من أهل فم الصلح، ولد سنة خمس وثلاثين وخمسمائة، وصحب الشيخ صدقة الزاهد، وقرأ عليه القرآن والنحو، وأقام برباط صدقة، وقرأ على ابن الخشاب، وابن القصار، والكمال الأنباري، وسمع الحديث من أبي الفتح ابن البطي ودفن مع الشيخ صدقة في ضريحه، وكان على طريقه في الزهد والعبادة ومنقطعا عن الناس.

وفي ليلة الخميس ثاني شوال توفي الفصيح الواعظ بدمشق وهو: أرسلان بن علي بن غرلو الواعظ الحنفي، ودفن بباب الصغير على الطريق بالقرب من قبة ابن زين العابدين، واسمه على قبره.

وفي الرابع والعشرين من شوال وصل الخبر بأن الشرف الفلكي وجد مذبوحا في فراشه، ذبحه غلام له ليلة عيد الفطر بخلاط، وكان قد وزر للملك الأوحد وهو أخو الصفي الأسود، واسمه عبد المحسن بن اسماعيل بن محمود المحلي، وكان قد ناب بديوان دمشق عن الصاحب صفي الدين بن شكر في الدولة العادلية، ثم وزر لأخي العادل لأبيه فلك الدين فنسب إليه، ثم استقل وزيرا بخلاط للأوحد بن العادل إلى أن قتله مملوكه بها ليلة عيد الفطر سنة أربع أو خمس وستمائة، وحمله من خلاط إلى دمشق صديقه الرشيد عبد الله بن المظفر الصفوي ودفنه بجبل قاسيون، وصلب قاتله على قبره، وعند صلبه بدره الرشيد فطعنه بمدية في نحره .

وفي السابع والعشرين من ذي القعدة توفي الأمير المعروف بالجناح الكردي ابراهيم بن أحمد ودفن بالجبل، وخرج السلطان في جنازته، وفي الغد عمل عزاؤه في الجامع، وحضر جميع الأمراء الأكراد بالجوخ ومناديل على رؤوسهم، وهو أخو المشطوب وكبير أمراء الأكراد، وفي الخامس والعشرين من ذي الحجة شنق فضيل الخلاطي لكونه قتل تاجرا قزوينيا كان استشفع بالحشيشية ثم أنزل وحملت جنازته على الأصابع.

وفيها: وصل الخبر من حلب، بموت الأشرف عز الدين محمد بن صلاح الدين، ومن القدس بوفاة الأمجد حسن بن العادل وهو: شقيق المعظم والعزيز، ومن مصر بوفاة قاضيها صدر الدين عبد الملك بن درباس الكردي، ومن الجزيرة بقتل صاحبها سنجرشاه بن غازي بن مودود بن زنكي بن آق سنقر قتله ولده الأكبر غازي، وكان سنجرشاه

قد اطلع على سعي ولده هذا في دمه، فسجنه مدة وتسبب إلى أن خلص من السجن واختفى بالقلعة عند بعض النساء وأظهر أنه قد هرب، وندب واحدا من جهته يطوف البلاد متنكرا ويظهر أنه هو ففعل، ووفد على الأشرف فأكرمه ثم وصل إلى دمشق وشاع خبره فسكن سنجرشاه إلى ذلك وكان متحرزا فلما أمكنت الولد الفرصة هجم عليه ليلا فقتله بسيفه، وحلف الأمراء فملك الجزيرة يوما وليلة فأوثقه مماليك والده وأقاموا ولده الصغير محمود الملقب بالمعظم معزالدين، ثم قتل غازي.

وفيها: غارت الفرنج ووصلوا إلى باب تدمر من حمص بعد أن مدوا على نهر العاصي جسرا من خشب كانوا صنعوا آلته ببلادهم، وحملوها معهم وعبروا العاصي عليه، ثم رفعوه على جمالهم وقصدوا حمص فقصدتهم العساكر الاسلامية فهربوا على طريق قدس وحاز المسلمون أخشابهم وأثقالهم ومن انقطع منهم.

ثم دخلت

سنة ست وستمائة

ففيها: نزلت الكرج على مدينة خلاط في خلق عظيم مع ملكهم إبواي فضايقها وبها الأوحد بن العادل، فأشرف على أخذها وقال له منجمه يوما: ماتبيت الليلة إلا في قلعة خلاط فشرب الخمر حتى ثمل، وركب في جيوشه وقصد باب أرجيش فخرج إليه المسلمون فقاتلوه ورأوا مالا قبل لهم به، فبيناهم كذلك عثر به حصانه فقتل عليه جماعة من خواصه، وأخذ أسيرا فحمل إلى القلعة فما بات إلا بها، ورحل الكرج عن البلد، وفرج الله عن أهله، ثم اتفق مع الأوحد على أنه يرد مافتح من بلاد المسلمين ويطلق الأسارى ومائة ألف دينار، ويزوج ابنته للأوحد وقيل إنما كانت وقعة إبواي بعد حصار سنجار في سنة سبع وستمائة.

وفي ربيع الأول نزل العادل على سنجار بعساكر مصر والشام وحلب وديار بكر، ومعه أولاده الأوحد وغيره، وأقام يضربها بالمجانيق إلى رمضان، ولم يبق إلا تسليمها فأرسل الملك الظاهر من حلب أخاه المؤيد يشفع في السناجرة، وصاحبها يومئذ قطب الدين محمد بن عماد الدين زنكي والد نور الدين محمود رحمه الله فلم يشفعه، ومات المؤيد في هذه السفرة، وكره المشارقة مجاورة العادل فاتفقوا عليه مع صاحب إربل، وأرسل الخليفة ابن الضحاك أستاذ داره أقباش الناصري يشفع إلى العادل فيهم، فرحل بعد أن أخذ نصيبين والخابور، ونزل بحران، وفرق العساكر، وصالح المشارقة صاحب إربل والموصل والجزيرة وماردين وحلب، وحج بالناس من العراق ياقوت، ومن الشام فخر الدين إياس الشحامي.

وفيها: توفي الملك المؤيد مسعود بن صلاح الدين بمدينة رأس عين عند منصرفة من رسالة أخيه الظاهر إلى عمه العادل في أمر سنجار في النصف من شعبان وكان قد نام في بيت مع ثلاثة وعندهم منقل فيه نار ولامنفذ في البيت فانعكس البخار فأخذ بأنفاسهم فماتوا جميعا فحمل المؤيد في محفة إلى حلب ودفن بها.

وفيها: توفي الملك المغيث فتح الدين عمر بن الملك العادل بدمشق، ودفن بسفح قاسيون بالتربة التي فيها أخوه الملك المعظم.

وفيها: توفي الفخر الرازي ابن خطيب الري صاحب الكلام، والمنطق واسمه: محمد بن عمر بن الحسين، وكنيته أبو المعالي مصنف التفسير، والمحصول والمحصل، ونهاية العقول، والأربعين وغيرها واعتنى بكتب ابن سينا في المنطق وشرحها، وكان يعظ وينال من الكرامية، وينالون منه سبا وتكفيرا، وقيل إنهم وضعوا عليه من سقاه السم فمات ففرحوا بموته، وكانوا يرمونه بالكبائر وكانت وفاته في ذي الحجة ولاكلام في فضله، وإنما الشناعات عليه قائمة بأشياء منها: أنه كان يقول: قال محمد التازي[٣٩] يعني العربي يريد النبي صلى الله عليه وسلم، وقال محمد الرازي: يعني نفسه، ومنها أنه كان يقرر في مسائل كثيرة مذاهب الخصوم وشبههم بأتم عبارة فإذا جاء إلى الأجوبة اقتنع بالإشارة، وقد رأيت من أصحابه جماعة قدموا علينا دمشق وكلهم كان يعظمه تعظيما كثيرا، ولاينبغي أن يسمع فيمن ثبتت فضيلته كلام شنع لعله صاحب غرض من حسد أو مخالفة في مذهب أو عقيدة رحمه الله تعالى.

وبلغني أنه خلف من الذهب العين ثمانين ألف دينار خارجا عما كان يملكه من الدواب، والثياب والعقار والآلات، وخلف ولدين أخذ كل واحد منهما أربعين ألف دينار، وكان ابنه الأكبر قد تجند في حياته وخدم السلطان محمد بن تكش، وكان في زمانه القاضي الوحيد كبير القدر في

الوعظ يحضر مجلسه الأكابر من الملوك، والأمراء، والرؤساء وكان فخر الدين يتكلم فيه، فبلغه فأتاه مسلما فوقف على رأسه فرفع فخر الدين رأسه إليه ولم ينهض له وأنكر عليه مشافهته، بما كان ينكر عليه في غيبته فتبسم الوحيد، وقال: اطبخ لك أرزا بلبن تأكله ينفع رأسك ومزاجك، ثم دعا بالقدر والنار وجعل ينفخ النار بنفسه ليطبخ ذلك بحضرة فخر الدين ويتولى ذلك بنفسه على جلالة قدره، فقام فخر الدين فوقع على رجليه وبكى وسمع سلطان البلد فحضر وأحضر الأطعمة وآلات السماع وجرى لهم يوم طيب، وكان فخر الدين بعد ذلك يحضر مجلس الوحيد ويجلس قبالة وجهه بين ذلك الجمع العظيم.

وفيها: في سلخ ذي الحجة توفي المجد بن الأثير الجزري الأصل، الموصلي الدار، واسمه: أبو السعادات المبارك بن محمد بن عبد الكريم، كاتب، مصنف، صدر كبير، ولد سنة أربعين وخمسمائة بجزيرة ابن عمر، وانتقل إلى الموصل ونشأ بها، وقرأ الأدب والحديث وفنون العلم، وقدم بغداد حاجا، وسمع بها الحديث، وعاد إلى الموصل وكتب لأمرائها، وكان أمراء الموصل يحترمونه، ويعظمونه، ويستشيرونه، وكان بمنزلة الوزير الناصح إلا أنه كان منقطعا إلى العلم وجمعه، وصنف كتبا حسانا منها: جامع الأصول، والنهاية في غريب الحديث، وشرح مسند الشافعي رحمه الله تعالى، وكان به نقرس، وكان يحمل في محفة وكان يسكن بدرب دراج بالموصل وبه دفن، قرأ النحو على أبي محمد بن الدهان، ثم على أبي الحرم الضرير مكي بن ريان، وسمع الحديث من أبي بكر بن سعدون القرطبي، وأبي الفضل عبد الله بن الطوسي، وسمع ببغداد أبا الفرج ابن كليب وغيره، روى الحديث وانتفع به الناس وكان عاقلا بهيا ذا بر وإحسان وكان له أخوان فاضلان: ضياء الدين ابن الأثير الكاتب، كان وزير الأفضل بن صلاح الدين صاحب كتاب المثل السائر وغيره، وعز الدين علي بن الأثير صاحب التاريخ وغيره، قدم علينا دمشق، وأسمع بها بالجامع ودار الحديث النورية رحمهم الله.

وفيها: في ذي الحجة أيضا توفي ببغداد أبو علي يحيى بن الربيع بن سليمان الواسطي، مدرس النظامية، ولقبه مجد الدين، ولد بواسط سنة ثمان وعشرين وخمسمائة، وقرأ القرآن على جده سليمان، وتفقه على أبيه ورحل إلى نيسابور صحبة أبو القاسم بن فضلان، وعاد إلى بغداد وتولى تدريس النظامية، وكان عارفا بالتفسير، والمذهب، والأصولين، والخلاف، وصنف تفسيرا في أربع مجلدات، وبعثه الخليفة في رسالة إلى خراسان، سمع أبا الوقت وطبقته، وكان ثقة دينا صدوقا فدفن إلى جانب ابن فضلان رحمه الله تعالى.

وفيها: توفي الحسن بن أحمد بن جكينا من أهل الحريم الطاهري، كان فاضلا ومن شعره:

قد بان لي عذر الكرام فصدهم
عن أكثر الشعراء ليس بعار
لم يسأموا بذل النوال وإنما
جمد الندى لبرودة الأشعار

وفيها: توفي شمس الدين بن البعلبكي، والد المجد، وكان قاضي الفتيان بدمشق في العشرين من صفر، وهو الذي بعث إلى مصر ليشد الكامل فتوة للخليفة، جاء من بغداد الأمر بذلك.

وفيها: توفي شمس الدين سلام بن سلام والد اسماعيل، واسحاق الشاهد بدمشق حادي عشر ربيع الآخر.

ثم دخلت

سنة سبع وستمائة

ففيها وصل الحاج إلى دمشق صحبة ابن محارب ثاني صفر.

وفيها: أظهر الخليفة الاجازة التي أخذت له من الشيوخ وذكرهم في كتاب روح العارفين، ودفع إلى كل مذهب إجازة عليها مكتوبا بخطه: أجزنا لهم ماسألوه على شرط الإجازة الصحيحة، وكتب العبد الفقير إلى الله تعالى أبو العباس أحمد أمير المؤمنين،وسلمت إجازة أصحاب الشافعي إلى ضياء الدين عبد الوهاب بن سكينة وإجازة أصحاب أبي حنيفة إلى الضياء أحمد بن مسعود التركستاني، وإجازة أصحاب أحمد إلى أبي صالح نصر بن عبد الرزاق بن الشيخ عبد القادر، وإجازة أصحاب مالك إلى التقي علي بن جابر التاجر المغربي.

قال أبو المظفر سبط بن الجوزي: وفيها: خرجت من دمشق إلى نابلس بنية الغزاة، وكان الملك المعظم عيسى رحمه الله بها، وجلست بجامع دمشق يوم السبت خامس ربيع الأول، وكان الناس من باب المشهد الذي لزين العابدين إلى باب الناطفانيين، وإلى باب الساعات، وكان القيام في الصحن أكثر بحيث امتلأ جامع دمشق وحزروا ثلاثين ألفا، وكان يوما لم ير بدمشق مثله ولابغيرها، وكان قد اجتمع عندي شعور كثيرة، يعني التي كان يقطعها من رؤوس التائبين.

قال: وقد وقفت على حكاية أبي قدامة الشامي مع تلك المرأة التي قطعت شعرها وبعثت به إليه وقالت: اجعله قيدا لفرسك في سبيل الله قال: فعملت من الشعور التي اجتمعت عندي شكلا لخيل المجاهدين وكرفسارات ولما صعدت المنبر أمرت بإحضارها فحملت على أعناق الرجال، وكانت ثلاثمائة شكال، فلما رآها الناس صاحوا صيحة عظيمة

وقطعوا مثلها وقامت القيامة، وكان المبارز المعتمد ابراهيم والي دمشق حاضرا فقام وجمع الأعيان، فلما نزلت من المنبر قام المبارز يطرق لي ويمشي بين يدي إلى باب الناطفانيين، فقدم لي فرس، فأمسك بركابي وأركبني، وخرجنا من باب الفرج إلى المصلى، وجميع من كان بالجامع بين يدي، وسرنا من الغد إلى الكسوة، ومعنا خلق كثير مثل التراب، وكان معنا من قرية واحدة يقال لها زملكا نحوا من ثلاثمائة رجل بالعدد والسلاح، وأما من غيرهم فخلق كثير والكل خرجوا احتسابا وجئنا إلى عقبة أفيق، والطير لاتقدر تطير من خوف الفرنج، فسرنا على الجادة إلى نابلس، ووصلت أخبارنا إلى عكا، وخرج المعظم فالتقانا وسر بنا، وجلست بجامع نابلس وحضر وأحضرنا الشعور فأخذها وجعلها على وجهه وجعل يبكي، وكان يوما عظيما، ولم أكن اجتمعت به قبل ذلك اليوم، وخدمنا وأكرمنا وخرجنا نحو بلاد الافرنج فأخربنا وهدمنا وقطعنا أشجارهم وأسرنا جماعة ولم يتجاسروا أن يخرجوا من عكا فأقمنا أياما ثم عدنا سالمين غانمين إلى الطور المطل على الناصرة، والمعظم معنا فقال:أريد أن أبني عليه قلعة، وطلب أخاه الملك الأشرف، وعساكر الشرق، وحلب وشرع في عمارة الطور وأقام العسكر تحته من ذي الحجة من هذه السنة إلى اخر سنة ثمان وستمائة فكمل سوره ودار واستوى فخاف الفرنج فأرسلوا إلى العادل فصالحهم وأعطى العساكر دستورا فتفرقوا، وأقام المعظم يعمر الطور إلى قبيل وفاة العادل، فلا يحصى ماغرم عليه، وحج بالناس من الشام سيف الدين علي بن علم الدين سليمان بن جندر، وكان قدم من حلب لذلك واحتفل الناس له.

وفيها: توفي صاحب الموصل نور الدين أرسلان بن عز الدين مسعود ابن قطب الدين مودود بن زنكي في رجب وقيل في صفر.

قال أبو المظفر: وكان متكبرا، جبارا، بخيلا، فاتكا، سفاكا للدماء،

حبس أخاه علاء الدين فمات في حبسه، وولى الموصل رجلا ظالما يقال له السراج، فأهلك الحرث والنسل.

وفيها: توفي أبو محمد عبد الوهاب بن علي بن علي الصوفي المعروف بابن سكينة، ولقبه ضياء الدين ولد سنة تسع عشرة وخمسمائة، وقرأ القرآن على الشيخ أبي محمد المقرىء شيخ تاج الدين الكندي، وسمع الحديث الكثير، وكان صديق أبي الفرج بن الجوزي، ملازما لمجالسه ويزوره، وسأله أبو الفرج لما عاد من واسط أن يلبس ابنه يوسف خرقة التصوف فألبسه إياها بقطفتا، وكانت وفاته في ربيع الآخر وقد قارب سبعين سنة وصلى عليه بجامع القصر، وكان يوما مشهودا حضره أرباب الدولة ودفن عند باب جامع القصر إلى جانب رباط الزوزني.

وذكره محمد بن الدبيثي في ذيله وقال: هو سبط شيخ الشيوخ أبي البركات اسماعيل بن أحمد النيسابوري، ورافق أبا سعد ابن السمعاني ببغداد، وسمع من قاضي المارستان، وابن الحصين وأبي غالب محمد بن الحسن الماوردي، وأبي البركات الأنماطي، وجده لأمه شيخ الشيوخ اسماعيل، وزاهر بن طاهر الشحامي، وأبا الفتح الكروخي، وأبا الوقت وغيرهم، وحدث ببغداد والشام ومكة ومصر والمدينة وغيرها وكان من الأبدال.

وفيها: توفي ببغداد أبو حفص عمر بن محمد بن يحيى المعروف بابن طبرزد الدارقزي.

قال أبو المظفر: ولد في ذي الحجة سنة عشر وخمسمائة، سمع حديثا كثيرا من أبي غالب بن البناء، وأبي الحسن بن الزاغوني، وأبي القاسم بن الحصين، وابن السمرقندي وقاضي المارستان، وأبي الوقت وغيرهم، وكان معلما للصبيان بدار القز ببغداد، وكان خليعا ماجنا، وسافر مع حنبل إلى الشام، وحصل له مال بسبب الحديث، وعاد مع حنبل إلى بغداد فأقام

حنبل يعمل لـه تجارة، فتوفي سنة ثلاث وستمائة، فسلك طـريق حنبل في استمعال الكـاغد والعتابي فمـرض مدة ثـم توفي ودفن بباب حرب، ولم يكـن له وارث، فـرجـع المال إلي بيت المال. وجـدت بخـط الحافظ عبـد العظيم المنذري: إن الشيخ أبـا عمر المذكور، توفي في يوم الثلاثـاء التاسع والعشريـن مـن ربيـع الأول مـن السنـة رحمهما الله تعـالى ودفـن بجبـل قاسيون(٤٠).

وفيها : توفي الشيـخ أبو عمر شيخ الصالحيـة والمقادسة الزاهـد العابد واسمه: محمد بن أحمد بن محمد بن قـدامة، أخو الشيخ الموفق، ولد سنة ثمان وعشرين وخمسمائة بقرية الساويا من أعمال نابلس، وقيل بجماعيل.

قـال أبو المظفـر: حدثنـي أبو عمـر قال: هـاجـرنا مـن بلادنـا فنزلنـا بمسجـد أبي صـالح ببـاب شرقي، فأقمنـا به مـدة ، ثم انتقلنـا إلى الجبل فقال النـاس: الصالحية، الصـالحية، نسبونـا إلى مسجد أبي صالـح لأننا صالحون.

قال: ولم يكن بالجبل عمارة إلا دير الحوراني وأماكن يسيرة.

قال أبو المظفر: وكان معتدل القامـة، حسن الوجه، عليه أنوار العبادة لايزال مبتسما، نحيـل الجسم من كثرة الصيـام والقيام، قرأ القـرآن بحرف أبي عمـرو، وحفـظ مختصر الخرقـي في الفقه، وقـرأ النحـو على ابـن بـري بمصر، وسمـع الحديث بـدمشق ومصر، واشتغـل بـالعبادة عـن الروايـة، وكتب الحليـة لأبي نعيم، وتفسير البغوي، والمغنـي لأخيه الموفق، والإبـانة لابن بطة، ومصاحف كثيرة للنـاس ولأهله، وكتبا كثيرة والكل بغير أجرة، وكان يصـوم الدهر ألا من عـذر، ويقوم الليل من صغـره، ويحافظ على الصلـوات في الجماعـات، ويخرج من ثلـث الليـل الأخير إلى المسجـد في الظلمة فيصلى إلى الفجـر، ويقرأ في كـل يوم سبعـا من القـرآن بين الظهر

والعصر، ويقرأ بعد العشاء الآخرة يس، وتبارك، والواقعة، والمعوذتين، وقل هو الله أحد، وإذا ارتفعت الشمس لقن الناس القرآن إلى وقت الضحى، ثم يقوم فيصلي الضحى ثماني ركعات، ويقرأ قل هو الله أحد ألف مرة، ويزور المقابر بعد العصر في كل يوم جمعة، ويصعد يوم الاثنين والخميس إلى مغارة الدم ماشيا بالقبقاب فيصلي فيها مابين الظهر والعصر، وإذا نزل جمع الشيح من الجبل وربطه بحبل وحمله إلى بيوت الأرامل واليتامى، ويحمل في الليل إليهم الدراهم والدقيق ولايعرفونه، ولاينام إلا على طهارة ومتى فتح له بشيء من الدنيا آثر به أقاربه وغيرهم، وتصدق بثيابه، وربما خرج الشتاء وعلى جسده جبة بغير ثوب، ويبقى مدة طويلة بغير سراويل، وعمامته قطعة من بطانة فإن إحتاج أحد إلى خرقة أو مات صغير يحتاج إلى كفن قطع له منها قطعة، وكان ينام على الحصير ويأكل خبز الشعير، وثوبه خام إلى أنصاف ساقيه، ومانهر أحدا، ولاأوجع قلب أحد، وكان يقول: أنا زاهد ولكن في الحرام، ولما نزل صلاح الدين على القدس كان هو وأخوه والجماعة في خيمة فجاء العادل إلى زيارته وهو في الصلاة فما قطعها ولاالتفت ولاترك ورده، وكان يصعد المنبر في الجبل وعليه ثوب خام مهدول الجيب،وفي يده عصا والمنبر يومئذ ثلاث مراقي، وكان يجاهد في سبيل الله يحضر الغزوات مع صلاح الدين، وكان أخوه الموفق يقول عنه: هو شيخنا ربانا وأحسن إلينا وعلمنا، وحرص علينا، وكان للجماعة كالوالد يقوم بمصالحهم ومن غاب منهم خلفه في أهله، قال: وكان أبو عمر قد تخلى عن أمر الدنيا وهمومها وكان المرجع في مصالح الأهل إليه، وهو الذي هاجر بنا، وسفرنا إلى بغداد، وبنى لنا الدير، ولما رجعنا من بغداد زوجنا وبني لنا دورا خارجة عن الدير، وكفانا هموم الدنيا، يؤثرنا ويدع أهله محتاجين ، وبني المدرسة والمصنع بعلو همته، وكان مجاب الدعوة، وماكتب لأحد ورقة للحمى إلا وشفاه الله تعالى، وكراماته كثيرة وفضائله غزيرة.

فمنها: أنني صليت يوم جمعة بجامع الجبل في أول سنة ست وستمائة والشيخ عبد اللهاليونيني إلى جانبي، فلما كان في آخر الخطبة، وأبو عمر يخطب نهض الشيخ عبد الله مسرعا وصعد إلى مغارة التوبة، وكان نازلا بها فظننت أنه قد احتاج إلى الوضوء، وآلمه شيء، فلما صلينا الجمعة صعدت وراءه وقلت له: خير ماالذي أصابك؟ قال: هذا أبو عمر ماتحل خلفه صلاة، قلت: ولم؟ قال: لأنه يقول على المنبر مالا يصلح، قلت: ومالذي قال: قال: الملك العادل، وهو ظالم فما يصدق، وكان أبو عمر يقول في آخر الخطبة: اللهم وأصلح عبدك الملك العادل سيف الدين أبا بكر بن أيوب، فقلت له: إذا كانت الصلاة خلف أبي عمر ماتصح فياليت شعري خلف من تصح؟! وخطر لي قول عبد الرحمن بن عوف لما رأى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما يمشي في أزقة المدينة فتبعه فأتى إلى بيت عجوز فدخله، قال: فقلت لأنظرن مايصنع فتواريت وإذا به قد خرج من عندها فدخلت بعده وقلت للعجوز: ماكان هذا يصنع عندك؟ فقالت: يحمل إلي ماآكل ويخرج الأذى عني، قال عبد الرحمن فقلت في نفسي: ويحك ياعبد الرحمن اعثرات عمر تتبع.

قال أبو المظفر: وبينما نحن في الحديث وإذا بالشيخ أبي عمر قد صعد إلى مغارة التوبة فدخل ومعه مئزر فسلم وحل المئزر وفيه رغيف وخيارتان، فكسر الجميع وقال: بسم الله الصلاة ثم قال: ابتداءا قد جاء في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:« ولدت في زمن الملك العادل كسرى»[٤١] فنظر إليّ الشيخ عبد الله وتبسم ومدّ يده فأكل، وقام أبو عمر فنزل فقال لي عبد الله ياسيدي ماذا إلا رجل صالح.

قلت: الشيخ عبد الله اليونيني كان أيضا من الصالحين، وقد رأيته وسيأتي ذكره في أخبار سنة سبع عشرة بعد عشر سنين من وفاة الشيخ أبي عمر، وهو لفرط صلاحه وورعه مارأى مسامحة مثل الشيخ أبي عمر في إطلاق لفظ العادل على من هو في ظنه غير مستحقه، وعذر الشيخ أبي

عمر في ذلك أنه اسم من الأسماء الأعلام لاتلحظ فيه الصفة فهو كالتسمية بسالم، وغانم، ومحمود، ومسعود، بغير قصد المعنى المسمى بذلك في حالة يكون فيها متصفا بضد مايقتضيه اشتقاق هذه الأسماء، فيكون عاطبا، ولايدعى إلا بسالم، أو مذموما ولايدعى إلا بمحمود، تعريفا لامدحا، فكذا اطلاق لفظ العادل في حق من أطلقه فيه الشيخ أبو عمر على أنه قد اعتذر بعذر آخر وهو إطلاق هذا اللفظ على كافر، ولاظلم أعظم من الشرك بالله تعالى. قال الله تعالى:(إن الشرك لظلم عظيم)(٤٢) قال:(ولم يلبسوا إيمانهم بظلم)(٤٣) أي بشرك، فإذا لم يمنع الشرك المحقق من إطلاق لفظ العادل من اتصف به لايمنع ظلم مافي شيء من الأشياء التي دون الشرك أولى، بقي في قضية الشيخ عبد الله إشكالا من كونه ترك صلاة الجمعة، ولعله كان مسافرا فلم تكن الجمعة واجبة عليه، والله أعلم.

قال أبو المظفر: وأصابني قولنج عانيت فيه شدة فدخل علي أبو عمر وبيده خروب شامي، فقال: استف هذا وكان عندي جماعة فقالوا: هذا يزيد في القولنج ويضره، فما التفت إلى قولهم وأخذته من يده فأكلته فبرئت في الحال.

قال: وحكى لي الجمال البصراوي الواعظ قال: أصابني قولنج في رمضان فاجتهدوا أني أفطر، فلم أفعل، فصعدت إلى قاسيون فقعدت موضع الجامع اليوم وإذا أنا بالشيخ أبي عمر قد أقبل من الجبل وبيده حشيشة فقال شم هذه تنفعك فأخذتها وشممتها فبرئت.

قال: وجاء رجل مغربي فقرأ عليه القرآن، ثم غاب عنه مدة، وعاد فلازمه، فسئل عن ذلك فقال: دخلت ديار بكر فأقمت عند شيخ له زاوية وتلامذة، فبينما هو ذات يوم جالس بكى بكاء شديدا وأغمي عليه ثم أفاق وقال: مات القطب الساعة ، وقد أقيم أبو عمر شيخ الصالحية مقامه.

قال: فقلت له: ذلك شيخي، قال:فإيش قعودك ههنا قم فاذهب إليه وسلم عليه عني، وقل له لو أمكنني السعي إليه لسعيت، ثم زودني وسافرت.

قال أبو المظفر: وقلت له يوما أول ماقدمت الشام، وماكان يرد أحدا شفاعته كائنا من كان، وقد كتب ورقة إلى الملك المعظم عيسى بن العادل، وقال فيها: إلى الولد المعظم، فقلت: كيف تكتب هذا والملك المعظم في الحقيقة هو الله، فتبسم ورمى إلي الورقة وقال لي: تأملها وإذا به لما كتب المعظم كسر الظاء فصارت المعظم، وقال: لابد أن يكون يوما قد عظم الله تعالى، فتعجبت من ورعه وتحفظه في منطقه عن مثل هذا.

قلت: وساعده على تمشية تلك الكسرة أن كل من رآها يعتقد أنها للميم المستحقة للجر فلا ينكرها وحصل له مانواه، نظير هذا القصد مايروى عن سفيان الثوري أنه أنكر على ابن أبي ذئب رحمهما الله قوله للمنصور أبي جعفر في مخاطبته له أنا أنصح لك من ابنك المهدي، وقال له: لم قلت المهدي؟ فقال: ياأبا عبد الله كلنا كان في المهد.

قال أبو المظفر: وقال أبو عمر يوما للمبارز المعتمد قد أكثرت عليك من الرقاع والشفاعات؟ فقال له: ربما تكتب إلي في حق أناس لايستحقون الشفاعة وأكره رد شفاعتك، فقال له: أنا أقضي حق من قصدني، وأنت إن شئت تقبل، وإن شئت فلا تقبل، فقال: ماأرد ورقتك أبدا.

قال: وكان على مذهب السلف الصالح حسن العقيدة، متمسكا بالكتاب والسنة والآثار المروية وغيرها كما جاءت، من غير طعن على أئمة الدين وعلماء المسلمين، وينهى عن صحبة المبتدعين، ويأمر بصحبة الصالحين.

وكان سبب موته أنه حضر مجلسا بقاسيون في الجامع مع أخيه الموفق والعماد والجماعة، وكان قاعدا في الباب الكبير وجرى الكلام في رؤية الله تعالى ومشاهدته فاستغرقت في ذلك وكان وقتا عجيبا وأبوعمر جالس إلى جانب أخيه الموفق، فقام وطلب باب الجامع ولم أره فالتفت فإذا بين يديه شخص يريد الخروج من الجامع فصحت على الرجل أقعد، فظن أبو عمر أنني أخاطبه، فجلس على عتبة باب الجامع الجوانية إلى أن فرغ المجلس، ثم حمل إلى الدير فكان آخر العهد به، وأقام أياما مريضا، ولم يترك شيئا من أوراده، فلما كان عشية الاثنين ثامن عشر ربيع الأول جمع أهله واستقبل القبلة ووصاهم بتقوى الله ومراقبته، وأمرهم بقراءة يس وكان آخر كلامه:(إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون)(٤٤) وتوفي رحمه الله وغسل في وقت السحر،ومن وصل إلى الماء الذي غسل به نشف به النساء مقانعهن والرجال عمائمهم، ولم يتخلف عن جنازته أحد من القضاة، والأمراء، والعلماء، والأعيان وعامة الخلق، وكان يوما مشهودا، ولما خرجوا بجنازته من الدير كان يوما شديد الحر فأقبلت غمامة فأظلت الناس إلى قبره وكان يسمع منها دوي كدوي النحل، ولولا المبارز المعتمد، والشجاع بن محارب، وشبل الدولة الحسامي ماوصل من كفنه إلى قبره شيء، وإنما أحاطوا به بالسيوف والدبابيس، وكان قبل وفاته بليلة رأى إنسان كأن قاسيون قد وقع أو زال من مكانه فأولوه بموته، ولما دفن رأى بعض الصالحين في منامه تلك الليلة النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول: « من زار أبا عمر ليلة الجمعة فكأنما رأى الكعبة، فأخلعوا نعالكم قبل أن تصلوا إليه» ومات عن ثمانين سنة ولم يخلف دينارا ولادرهما ولاقليلا ولاكثيرا، قال: وعلمني دعاء السنةفقال: مازال مشايخنا يواظبون على هذا الدعاء أول كل سنة وآخرها وما فاتني طول عمري.

فأما أول السنة فإنك تقول: اللهم إنك الأبدي القديم، وهذه سنة جديدة أسألك فيها العصمة من الشيطان وأوليائه، والعون على هذه النفس الأمارة بالسوء، والإشتغال بما يقربني إليك ياذا الجلال والإكرام، فإن الشيطان يقول قد آيسنا من نفسه فيما بقي، ويوكل الله به ملكين يحرسانه.

وأما دعاء آخر السنة فإنك تقول في آخر يوم من أيام السنة: اللهم ماعملت في هذه السنة مما نهيتني عنه ولم ترضه ولم تنسه وحملت عني بعد قدرتك على عقوبتي ودعوتني إلى التوبة من بعد جرأتي على معصيتك فإني استغفرك منه فاغفر لي، وماعملت فيها مما ترضاه ووعدتني عليه الثواب فأسألك أن تتقبله مني ولاتقطع رجائي منك ياكريم.

قال: فإن الشيطان يقول: تعبنا معه طول السنة فأفسد فعلنا في ساعة، قال: وأنشدني أبو عمر:

ألم يك ملهاة عن اللهو أنني
بدالي شيب الرأس والضعف والألم
ألم بي الخطب الذي لو بكيته
حياتي حتى ينفد الدمع لم ألم

قال: وأنشدني أبو عمر لنفسه:

أوصيكم بالقول في القرآن
بقول أهل الحق والإتقان
وليس بمخلوق ولا بفان
لكن كلام الملك الديان
آياته مشرقة المعاني
نتلوه لله باللسان

محفـــوظـــة في الصـــدر والجنـــان
مكتـــوبـــة في الصحـــف بـــالبنـــان
والقـــول في الصفـــات يـــا أخـــواني
كـــالـــذات والعلـــم مـــع البيـــان
أسرارهـــا مـــن غير مـــا كفـــران
مـــن غير تشبيـــه ولا عطـــلان

وكان لـه من الأولاد مـن الذكور: عمـر والد أحمد بـن عمر، وبـه كان يكنى أبـو عمر، والشرف عبد الله والد العز، وأحمد، وعبد الرحمن، البـاقي منهم في هـذا الزمـان، وهو سنـة خمس وخمسين وستمائة أصغرهـم شمس الدين عبد الـرحمن خطيب جامع الجبل بعد أخيـه الشرف عبد الله. قال: وكـان لأبي عمـر بنات كما قـال الله تعـالى:(مسلمات مـؤمنات قـانتـات تائبات عابدات سائحات)(٤٥) الآية ومما رثي به أبـو عمر قول محمد بن سعد المقدسي:

أبعـــد أن فقـــدت عينـــي أبـــا عمـــر
يضمنـــي في بقـــا يـــا العمـــر عمـــران
مـــا للمســـاجـــد منـــه اليـــوم مقفـــرة
كـــأنها بعـــد ذاك الجمـــع قيعـــان
مـــا للمحـــارب بعـــد الأنـــس مـــوحشـــة
كـــأن لم يتـــل فيهـــا الـــدهـــر قـــرآن
تبكـــي عليـــه عيـــون النـــاس قـــاطبـــة
إذ كـــان في كـــل عين منـــه إنســـان
وكـــان في كـــل قلـــب منـــه نـــور هـــدى
فصـــار في كـــل قلـــب منـــه نيران
وكـــل حـــي رأينـــا فهـــو ذو أســـف
وكـــل ميـــت رآه فهـــو فـــرحـــان
لا زال يسقـــي ضريحا أنـــت ســـاكنـــه
سحـــائب غيثهـــا عفـــو وغفـــران

كـــم ميـــت ذكـــره حـــي ومتصـــف
بـــالحي ميـــت لـــه الأثـــواب أكفـــان

قلت: وقبره في طريق مغارة الجوع في الزقاق المقابل لدير الحوراني على يمين المار إلى المغارة وإلى جانبه قبر أبيه الشيخ أجمد رحمه الله، وأول ماوقفت على قبره وزرته وجدت بتوفيق الله تعالى رقة عظيمة وبكاء صالحا، وكان معي رفيق لي وهو الذي عرفني قبره وجد أيضا مثل ذلك، وأخبرني أصحابنا الثقات أنه رأى الإمام الشافعي رحمه الله في المنام فسأله إلى أين يمضي؟ فقال: أزور أحمد بن حنبل، قال: فاتبعته أنظر ماذا يصنع، فدخل دارا فسألت لمن هي؟ فقيل للشيخ أبي عمر رحم الله الجميع.

وفيها: اتفقت الملوك على العادل منهم سلطان الروم، وصاحب الموصل، وصاحب إربل، وصاحب حلب، وصاحب الجزيرة، وصاحب سنجار، ومن تابعهم اتفقوا على مشاقة العادل وأن تكون الخطبة بالسلطنة لصاحب الروم خسرو شاه بن قليج أرسلان، وأرسلوا إلى الكرج بالخروج إلى جهة خلاط، وخرج كل منهم بعساكره إلى حدود بلاده مجمعا على الإجتماع بصاحبه على قصد الملك العادل وايجافهم عليه بخيلهم ورجلهم وكتبهم ورسلهم، وهو مقيم ثابت بظاهر حران، وعنده صهره صاحب آمد ابن قرا أرسلان، ونزل الكرج على خلاط سابع عشر ربيع الآخر مع مقدمهم إبواي، وصاحبها يومئذ الأوحد أيوب بن العادل، فزحفوا على البلد بين الصلاتين من يوم الاثنين تاسع عشرة، وهجموا الربض وقدر الله تعالى وقوع مقدمهم إبواي بفرسه في حفرة بالربض، وهو سكران فأخذ أسيرا، وعرفه ياقوت الخادم المالطي فحمله إلى الأوحد فأكرمه وخلع عليه والتمس منه صد الكرج عن البلد، فاستدعى إليه منهم من يثق به ليشاهد أنه سالم، وأمرهم بالرحيل عن خلاط فرحلوا من ساعتهم نحو بلادهم، ثم لم يجسروا على مخالفته

ولاتعرضوا لقرية من عملها بأذية، وقد كان من بخلاط أيقن بذهاب الأنفس والأموال، فدفع الله عنهم، وبادر الأوحد باطلاع والده العادل على مامنحه الله من الظفر، فكاد يذهل فرحا واستطارت الأخبار بذلك شرقا وغربا، وعلم من كان مجمعا على قصد العادل من الملوك بالحالة فتقهقرت آراؤهم وبادر كل منهم بالرسل إليه ويحيل على غيره ويبذل الطاعة، فقبل أعذارهم، وعقد معهم صلحا، في جمادى الأولى، ورغب إبواي إلى الأوحد في أن يفدي نفسه، وبذل ثمانين ألف دينار وإطلاق ألفي أسير من المسلمين، وتسليم إحدى وعشرين قلعة متاخمة لأعمال خلاط كان تغلب عليها وتزويج بنت الملكة بالأوحد، وتزويج ابنته لأخي الأوحد من أمه، وأن تكون الكرج معه أبدا سلما لايؤذون شيئا من أعماله، وإن قصد بلاده عدو سارعوا في دفعه عنها، فاستأذن الأوحد والده العادل في ذلك فأمضاه وأمر بإطلاقه بعد الإستياق منه بالإيمان والرهان ففعل، وأطلقه في ثاني عشر جمادى الآخرة.

قال العز بن تاج الأُمناء: ومن أعجب ماسمعته في هذه القضية أن إبواي لما نزل بخلاط قال له منجمه في بكرة يومه: إنك ستدخل إلى قلعة خلاط قريب العصر من يومك في زي غير زيك هذا، فتخيل قوله في نفسه وشرب، فلما سكر ذكر قول المنجم، وكان قسيسه فركب لوقته وزحف فكان من أمره ماقدر الله تعالى، وأدخل إلى القلعة وقت العصر أسيرا لابسا خلعة الأوحد فاعجب لهذا الإتفاق.

ولما وصل إلى بلاده عاد إلى ماكان عليه من التقدمة على عساكر الكرج، وحمل بعض ماكان بذل للأوحد وسومح بالباقي، ثم لما أن صارت خلاط للأشرف تزوج بابنته.

وفي ثاني شعبان كان إملاك نور الدين رسلان شاه صاحب الموصل على ابنة العادل، وعقد العقد في آخر رجب، وقام ولده عز الدين مسعود بالأمر، وكان العقد مع وكيله بعد موته ولم يعلم بذلك.

وفي الخامس والعشرين من شعبان ظهرت عملة ابن السلار على المعروف بابن الدخينة بعد طول مكثه في السجن، وموت زوجته تحت الضرب وعصره دفوعا، وعصر بناته وابنه فلم يقروا بشيء، وكان أكثر الذهب مدفونا تحته بسجن القلعة وانكشف أمرها بأيسر حال من جهة منصور بن السلار، فإنه كان الباحث عنها بسبب أنه كان حبس عليها واتهم بها، وجمع من الليل إلى آخر النهار عشرة آلاف دينار، ثمّ تحصل فيما بعد بقية مبلغها ثم مات ابن الدخينة في الحبس وصلب ميتا على قيسارية الفرش يوم السبت الثامن والعشرين من رجب، وأنا رأيته مصلوبا وعمري يومئذ ثماني سنين، ودخلت في التاسعة، اللهم استر في الدنيا والآخرة.

وفيها: في سابع شوال شرع في عمارة المصلى بظاهر دمشق المجاور لمسجد النارنج برسم صلاة العيدين، وهدم حائطه القبلي ومنبره ليجدد، فبني بغير سقف بل انتهت حيطانه من الجوانب الأربع، وفتحت له الأبواب وشرفت أعالي حوائطه، وبني له منبر كبير عالي بجوانب المحراب، وفوقه قبة مبيضة، وتحت أرض القبة خلو إلى الأرض يتصل به الصف الأول خلف الإمام، وكان يركز العلمان الأسودان في أعلى الدرج ويقف الخطيب بينهما فيراه جميع من في المصلى من كل جانب، وكان بناء حيطانه وإغلاق أبوابه صيانة له مما كان يوضع في أرضه من الدواب الميتة، والعظام، والأرواث ولاسيما مؤخر المصلى من شاميه، ثم إنه بعد ذلك في سنة ثلاث عشرة وستمائة ترتب الخطيب لإقامة الجمعة فيه سابع عشر رمضان بعد أن جدد في قبلته رواقان سقف أحدهما، ولم يتمم الآخر لوفاة الملك العادل الآمر بذلك، ولزم من ذلك خراب ذلك المنبر، فجعل له منبر خشب كالذي في سائر الجوامع، وترتب فيه إمام راتب يصلي الجمعة وغيرها.

وفيها: في حادي عشر شوال جددت أبواب جامع دمشق الغربية من جهة باب البريد بالنحاس الأصفر وركبت، وفي سادس عشر شوال شرع في إصلاح الفوارة، بجيرون، وعمل الشاذروان والبركة بساحتها، واتخذ فيها مسجدا بإمام راتب، وأول من ترتب فيه بأمر الصاحب الوزير ابن شكر النفيس المصري، كان يلقب بوق الجامع لقوة صوته، وكان قرأ على الشيخ أبي منصور الضرير المتصدر بالجامع، وكان حسن الصوت، وكنت أقرأ عليه في صباي، وكان يجتمع الناس إذا قرأ النفيس عليه كثيرا.

قال العز بن تاج الأمناء: وفي العشر الأوسط من ذي الحجة كان الابتداء بعمارة حصن الطور بتولي الملك المعظم واقتراحه ومساعدة والده له برجال العسكر ودوابه نوبا.

وفي العشر الأخير من ذي الحجة توجه اليان القبرسي لعنه الله في مراكب من عكا إلى الديار المصرية، فوصل إلى ساحل دمياط فأرسى غربيها، وسلك في البر بخيله ورجله إلى القرية المعروفة ببورة، وهي على ساحل النيل فكبسها سحرا وسبى أهلها وحاز ذخائرها وعاد على أثره في بقية يومه إلى مراكبه، وبلغ إلى دمياط خبره فبادر الرجال إليه فألفوه قد حصل بظهر البحر في مراكبه، وامتنع عن طالبه، ووصل الأسرى والغنائم إلى عكا، وقد نال بفعلته هذه والتي قبلها نوبة فوة من الديار المصرية في سنة ستمائة مالم ينله أحد من الفرنج قبله ولاأقدم اقدامه (٤٦).

قال: وفي عاشر المحرم وصل حسن الحمار من مكة سابقا للحاج، وأخبر بأن قتادة صاحب مكة قتل المعروف بعبدالأسير ثم وصل كتاب مرزوق الطشتدار الأسدي في الخامس والعشرين من المحرم، وكان حاجا يخبر فيه بأن قتادة قتل إمام الحنفية وإمام الشافعية بمكة، ونهب الحاج اليمني، ثم وصل الحجاج إلى دمشق صحبة ابن محارب يوم الاثنين ثاني صفر، وفي عاشر صفر توفي المخلص بلدق الزاهد المعظم بدمشق.

وفيها: توفي مظفر بن شاشير الواعظ الصوفي البغدادي، ولد سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة، وكان يعظ في الأعزية، وترب الرصافة، والمساجد، والقرى، وكان مطبوعا كيسا ظريفا، وكان يسكن دار العميد عند الصوفية، فتوفي في المحرم، ودفن عند قبر معروف الكرخي، سمع أبا الوقت وطبقته، جلس يوما في مسجد بالقرية فقام إليه انسان فقال له: أنا مريض وجائع، فقال له: إحمد ربك فقد عوفيت، واجتاز يوما على قصاب يبيع لحما هزيلا والقصاب ينادي: أين من حلف أن لايغبن؟ فقال له ابن شاشير حتى تحنثه. وقال: خرجت يوما إلى بعقوبا فتكلمت بها في الليل في جامعها، فقام واحد فقال: عندي للشيخ نصفية، وقال آخر: عندي نصفية فعدوا نحو خمسين نصفية، فقلت في نفسي: استغنيت الليلة، فلما أصبحت وإذا في زاوية المسجد مقدار كارة شعير، فقلت: ماهذا؟ فقالوا النصافي كل كيل شعير نصفية، قال: وجلست بباجسرى فجمعوا شيئا ماأعلم ماهو، فلما أصبحنا إذا في جانب المسجد صوف الجاموس وقرونه، فقام واحد ينادي عليه: من يشتري صوف الشيخ وقرونه، فقلت: ردوا صوفكم وقرونكم إليكم(٥٧).

ثم دخلت

سنة ثمان وستمائة

والسلطان العادل مخيم بالعساكر على الطور، وابنه المعظم مباشر لعمارة حصنه مجتهدا في إدارته حوشا، ووصل الخبر من جهة طرابلس بأن الأخبار تتابعت إليها من الغرب في البحر بأن ابن عبد المؤمن كسر الفرنج بأرض طليطلة كسرة عظيمة أباد فيها خلقا منهم ونازل طليطلة وربما فتحها(٤٨).

وفي ليلة السابع والعشرين من ذي القعدة حدثت زلزلة عظيمة هدمت مواضع كثيرة بمصر والقاهرة وأبراجا، ودورا بالكرك، والشوبك، وهلك جماعة من الصبيان والنسوان تحت الهدم وكان قوتها من جهة إيلة مما يلي البحر، وقيل أنه تقدمها يوم ريح أسود، وتساقطت نجوم كثيرة.

وفي خامس عشري رمضان رئي دخان نازل من السماء إلى الأرض فيما بين الغرب والقبلة بنواحي أرض عاتكة ظاهر دمشق وقت العصر.

وفيها: ابتاع الأشرف جوسق الريس بالنيرب من الظاهر خضر ابن عمه.

وفيها: قدم رسول جلال الدين حسن صاحب أَلَموت(٤٩) يخبرهم بأنهم قد تبرؤوا من الباطنية وبنوا الجوامع والمساجد، وأقيمت الجمعة والجماعات عندهم وصاموا رمضان، فسر الناس والخليفة بذلك، وقدمت خاتون أم جلال الدين فاحتفل بها الخليفة.

وفيها: أمر الخليفة أن يقرأ مسند أحمد بن حنبل بمشهد موسى بن جعفر بحضرة صفي الدين محمد بن جعفر الموسوي بالإجازة عن

الخليفة، وأول ماقرىء فيه مسند أبي بكر الصديق، وحديث فدك وماجرى فيها.

وفيها: نهب الحاج العراقي، وكان حج بالناس في هذه السنة من العراق علاء الدين محمد بن ياقوت نيابة عن أبيه ومعه ابن أبي فراس ينفعه ويدبره، وحج من الشام الصمصام اسماعيل أخو سياروخ النجمي عل حاج دمشق، وعلى حاج القدس الشجاع علي بن السلار، وكانت ربيعة خاتون أخت العادل في الحج، فلما كان يوم النحر بمنى بعد مارمى الناس الجمرة وثب الاسماعيلية على رجل شريف من بني عم قتادة لشبه به وظنوه إياه فقتلوه عند الجمرة، ويقال إن الذي قتله كان مع أم جلال الدين، وثار عبيد مكة والأشراف وصعدوا على الجبلين بمنى، وهللوا، وكبروا، وضربوا الناس بالحجارة والمقاليع والنشاب ونهبوا الناس يوم العيد والليلة واليوم الثاني وقتل من الفريقين جماعة، فقال ابن أبي فراس محمد بن ياقوت: ادخلوا بنا إلى الزاهر إلى منزلة الشاميين، فلما حصلت الأثقال على الجمال حمل قتادة أمير مكة والعبيد فأخذوا الجميع إلا القليل، وقال قتادة: ماكان المقصود إلا أنا والله ماأبقيت من حاج العراق أحدا، وكانت ربيعة خاتون بالزاهر ومعها ابن السلار، وأخو سياروخ وحاج الشام، فجاء محمد بن ياقوت أمير الحاج العراقي فدخل خيمة ربيعة خاتون مستجيرا بها ومعه خاتون أم جلال الدين، فبعثت ربيعة خاتون مع ابن السلار إلى قتادة تقول له: ماذنب الناس قد قتلت القاتل، وجعلت ذلك وسيلة إلى نهب المسلمين واستحللت الدماء في الشهر الحرام في الحرم والمال وقد عرفت من نحن، والله لئن لم تنته لأفعلن، وأفعلن. فجاء إليه ابن السلار فخوفه وهدده وقال: ارجع عن هذا وإلا قصدك الخليفة من العراق، ونحن من الشام فكف عنهم وطلب مائة ألف دينار فجمعوا له ثلاثين ألفا من أمير الحاج العراقي ومن خاتون أم جلال الدين، وأقام الناس ثلاثة أيام حول خيمة ربيعة خاتون بين قتيل وجريح، ومسلوب، وجائع وعريان، وقال قتادة: مافعل

هذا إلا الخليفة ولئن عاد أحد من بغداد إلى هنا لأقتلن الجميع ويقال إنه أخذ من المال والمتاع وغيره ماقيمته ألف ألف دينار، وأذن للناس في الدخول إلى مكة، فدخل الأصحاء الآقوياء فطافوا وأي طواف، ومعظم الناس مادخلوا ورحلوا إلى المدينة ودخلوا بغداد على غاية من الفقر، والهوان ولم ينتطح فيها عنزان.

وفيها: توفي أبو سعد الحسن بن محمد بن الحسن، ويلقب بتاج الدين ابن حمدون مصنف كتاب التذكرة، قرأ اللغة على أبي الحسن ابن العصار، وسمع أبا الفتح البطي وغيره، وولاه الخليفة المارستان العضدي، وأغري بجمع الكتب والخطوط المنسوبة، فجمع منها شيئا كثيرا وتوفي بمدائن كسرى وحمل إلى مقابر قريش فدفن بها وكان فاضلا بارعا.

وفيها: توفي الأمير فخر الدين سركس بن عبد الله الصلاحي، ويقال أياز جركس ويقال:جهاركس يعني أنه اشتري بأربعمائة دينار(٥٠) وكان من أمراء صلاح الدين، شهد معه الغزوات، وأعطاه العادل بانياس، وتبنين، والشقيف، وهونين، وقلعة أبي الحسن، وتلك البلاد فأقام بها وكان يتردد إلى دمشق فمرض وتوفي في رجب ودفن بقاسيون، وخلف ولدا فأقره العادل على ماكان لأبيه وقام بأمره الأمير صارم الدين خطلبا المعروف بالتبنيني أحسن قيام وسد تلك الثغور، وقوم الأمور، واشترى ضيعة بوادي بردى تسمى الكفر وقفها على تربة فخر الدين بالصالحية، وعمر له قبة عظيمة على الجادة قبالة قبة خاتون، ثم توفي ولد سركس بعد قليل، وأقام صارم الدين بالحصون إلى سنة خمس عشرة فانتزعت منه وسيأتي ذكره (٥١).

وفيها: توفي المعين عبد الواحد بن الشيخ عبد الوهاب بن علي بن سكينة، ومولده سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة، وسافر إلى الشام في أيام الملك الأفضل علي بن صلاح الدين، وبسط لسانه في الدولة، فأرسل

إليه من بغداد ابـن التكريتي ليقتله، فوثب عليه مرارا بـدمشق فلم يقدر عليه، فكتـب إلى الخليفة كتابـا يتنصل فيه مما قيـل عنه ويعتذر ويسـأله العفو فعفا عنه وكتـب له كتاب أمان، فقدم بغداد فـولي مشيخة الشيوخ وأعطي رباط المشرعة، ثم بعثه في رسـالة إلى جزيرة كيش[٥٢] ومعه جماعة من الصوفيـة فغرق في البحر ومن معه، سمـع جده لأمه أبا القـاسم عبد الرحيم شيخ الشيوخ، وأبا الفتح بن البطي، وأبا زرعة وغيرهم.

وفيها: أخذ حاجـب الباب كمال الدين محمد بن النـاعم، وكان حسن الصـورة، قبيح الفعـال، صـادر جماعـة وماتـوا تحت الضرب، فلما قبـض عليه ضرب ضربـا مبرحا فلم يقر بشيء، فمات تحت الضرب ورمـي به في دجلة كما كـان يفعل بالنـاس، وظهر له بعـد ذلك أموال عظيمـة ودفائن كثيرة.

وفيها: تـوفي الشيخ العماد محمـد بن يـونس الفقيـه الموصلي، ولد سنـة خمس وثـلاثين وخمسمائة وتفقـه وانتهـت إليـه رئاسة مـذهـب الشـافعـي بالموصـل، وبعث رسـولا إلى بغداد لما توفي صـاحبها نـور الديـن أرسلان شاه بـن عز الديـن مسعود، وكان به وسـواس في الطهارة يبعث كـل يوم غلامـه إلى الجسر فيقف في وسط الشاطـىء ويملأ الأباريق فيتـوضأ بها، وكان على مـاقيل يعامل النـاس بالغيبة، فالتقـاه قضيب البان الموله يـوما فقال له العماد: سلام عليك ياأخي كيف أنت؟ فقال: أما أنا فبخير، بلى قـد بلغني عنـك تغسل أعضـاءك بأبـاريق مـاء كل يـوم، فلم لاتنظـف اللقمة التي تأكلهـا؟! ففهم العماد قوله فرجع عن ذلك وكـانت وفاته في رجب بالموصل.

وفيهـا: توفي بنيسـابور في شعبـان منصور بـن عبد المنعـم بن عبـد الله الفراوي، مـن أهل بيت الحديث روايـة ودراية، ولد سنـة اثنتين وعشرين وخمسمائة في رمضان، وقـدم بغداد حاجا في سنـة تسع وتسعين وخمسمائة،

وحدث بها عن أبيه وجد أبيه فقيه الحرم أبي عبد الله محمد بن الفضل الفراوي، وزاهر بن طاهر الشحامي وغيرهم، وحدثنا عنه شيخنا أبو عمرو بن الصلاح، ومحمد، بن أبي الفضل المرسي وغيرهما. وكان له ثلاث كنى: أبو القاسم، أبو بكر، أبو الفتح.

وفيها: توفي صارم الدين بزغش العادلي بدمشق في الثالث والعشرين من صفر، ودفن بتربته في الجبل غربي الجامع المظفري.

ووصل الخبر بقتل الأمير المعروف بأيبك فطيس بظاهر حلب في حمام، قتله فيه مملوك له تركي خامس عشر رجب.

وتوفي قاسم التركماني بالعقيبة ظاهر دمشق في التاسع والعشرين من شوال، وهو والد ابن قاسم الدين والي دمشق.

وفيها: توفي صاحب الروم خسرو شاه بن قليج أرسلان، وخلف ولدين: كيكاوس توفي سنة خمس عشرة وستمائة كما سيأتي ذكره، وهو الذي تسلطن بعده، وكيقباذ وتولى بعده أخوه.

ثم دخلت

سنة تسع وستمائة

ففيها: كانت نكبة سامة الجبلي، صاحب دار سامة داخل باب السلامة التي هي الآن مدرسة للشافعية، وكان أحد الأمراء الكبار، وهو الذي ذكر عنه أنه سلم بيروت إلى الفرنج كما تقدم.

قال أبو المظفر: اجتمع العادل وأولاده: الكامل، والفايز، والمعظم بدمياط، وكان سامة بالقاهرة قد استوحش منهم واتهموه بمكاتبه الظاهر صاحب حلب، وحكى لي المعظم أنه وجد له كتبا إليه وأجوبة فخرج سامة من القاهرة كأنه يتصيد، فاغتنم اجتماع الملوك بدمياط، وساق إلى الشام في مماليكه يطلب قلاعه وهما: كوكب، وعجلون، وذلك يوم الاثنين سلخ جمادى الآخرة، فأرسل صاحب بلبيس الحمام إلى دمياط يخبرهم بذلك، فقال العادل: من ساق خلفة فله أمواله وقلاعه، فقال المعظم: أنا، وركب من دمياط يوم الثلاثاء غرة رجب، وكنت معه، فقال لي: أنا أريد أن أسوق، فسق أنت مع قماشي ودفع لي بغلة، وساق معه نفر يسير وعلى يده حصان، وكان صباح يوم الجمعة في غزة، ساق مسيرة ثمانية أيام في ثلاثة أيام فسبق سامة، وأما سامة فإنه انقطع عنه مماليكه ومن كان معه، وبقي وحده وبه نقرس فجاء إلى بلد الداروم، وكان المعظم قد أمسك عليه من البحر إلى الزرقاء، فرآه بعض الصيادين في برية الداروم فعرفه فقال له: إنزل، فقال: هذه ألف دينار وأوصلني إلى الشام، فأخذها الصياد، وجاء رفاقه فعرفوه أيضا فأخذوه على طريق الخليل عليه السلام ليحملوه إلى عجلون، فدخلوا به القدس، يوم الأحد سادس رجب، جاء بعد المعظم بثلاثة أيام، فقال لي المعظم رحمه الله: ماكنت خائفا إلا أن يصادفني في الطريق غلمانه فيقتلوني، لو رماني ايدكين

بسهم قتلني فأهلك الله ايدكين والجميع، فأنزل سامةفي صهيون وبعث إليه بثياب وطعام ولاطفه وراسله وقال: أنت شيخ كبير وبك نقرس ومايصلح لك قلعة سلم إلي كوكب وعجلون، وأنا أحلف لك على مالك وملكك وجميع أسبابك وتعيش بيننا مثل الوالد، فامتنع وشتم المعظم، فلما يئس المعظم منه بعث به إلى الكرك فاعتقله واستولى على قلاعه وأمواله، وذخائره، وخيله، فكان قيمة ماأخذ منه ألف ألف دينار (٥٣) .

وحج بالناس من العراق حسام الدين بن أبي فراس نيابة عن محمد ابن ياقوت وكان معه مال وخلع لقتادة حتى سكت عنهم، ومن الشام شجاع الدين محارب على إيلة.

وفيها: استولى اليان القبرسي على أنطاكية فرميت تلك الأعمال منه بداهية، وتابع الغارات على تركمانها فشردهم فتجمعوا وأخذوا عليه المضايق، وحصر في واد فقتلوه وجميع رجاله وطافوا برأسه في أعمالهم، ثم حملوه في البحر إلى الملك العادل بمصر، وهذا الملعون هو الذي كان هجم على فوة وبورة كما تقدم.

وفيها: كان عزل الوزير صفي الدين بن شكر عن وزارة العادل، والقبض على أملاكه، ثم نفي إلى الشرق.

وفيها: تظاهرت اسماعيلية أَلَموت ولمسر وما والاهما من بلاد العجم بالاسلام وإقامة شعائره والرجوع عما كانوا عليه من الفساد، وأرسل زعيمهم جلال الدين حسن إلى الخليفة الناصر يبذل الطاعة ويستدعي قضاة وفقهاء يفقهونهم ويقضون بينهم فأجيب، وبعث إلى الحصون الشامية مصياف، والخوابي، والقليعة وماينضاف إليها مما ينسب إلى

الاسماعيلية من أظهر فيها شعائر الاسلام، وتجديد المساجد، وإقامة الحد على من ارتكب محرما.

وفيها: خرب حصن كوكب ونقل ذخائرها إلى الطور.

وفيها: توفي مادحُ الرحمن، وفخر الدين اسرائيل، وعز الدين عبيد الفلكي، صاحب الدار والحمام المنسوبين بعده إلى ابن موسك مقابلة دار الحديث النورية.

وفيها: في ثامن ربيع الأول، توفي الملك الأوحد صاحب خلاط، واسمه أيوب بن أبي بكر بن أيوب، ولقبه نجم الدين، وكان قد سفك دماء المقدمين من أهل خلاط، فلم يطل عمره، ملك خلاط أقل من خمس سنين وابتلى بأمراض مزمنة كان يتمنى الموت معها، وكان قد استزار أخاه الأشرف من حران فأقام عنده أياما، فاشتد مرضه فطلب الأشرف الرجوع إلى حران لئلا يتخيل منه الأوحد، فقال له الأوحد: يا أخي: كم تلح والله إني ميت وأنت تأخذ البلاد، وكان الأوحد قد صاغ للأشرف طلعة ذهب من خمسمائة دينار للسنجق وبقيت في الخزانة، واشتغلوا بمرض الأوحد فتوفي وملك البلاد الأشرف، وأول ركوبه في خلاط بالسنجق كان بتلك الطلعة، وكانت وفاة الأوحد بملازكرد فدفن بها وجاء الأشرف فدخل خلاط فأحسن إلى أهلها وخلع عليهم وعدل فيهم فأحبوه وأطاعوه.

وفيها: توفي أبو اسحاق ابراهيم بن محمد بن أبي بكر القفصي المحدث المقرىء، سمع الكثير بدمشق وغيرها، وكتب كتبا كثيرة، وكانت وفاته في ربيع الأول، ودفن عند المنيبع بمقابر الصوفية.

وفيها: توفي بمرو أبو الفتح محمد بن سعد بن محمد الديباجي، من أهل مرو، ولد في المحرم سنة سبع عشرة وخمسمائة، وسمع الحديث، وقدم

بغداد حاجا سنة ستمائة ومعه كتاب سماه« المحصل في شرح المفصل» للزمخشري في النحو، وعاد إلى مرو، وسمع أبا سعد بن السمعاني وغيره وكان فاضلا ثقة.

وفيها: توفي الشيخ أبو الثناء محمود بن عثمان بن مكارم النعال الحنبلي الزاهد، ولد في سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة ببغداد بالبدرية، وقرأ القرآن، وسمع الحديث، وكان آمرا بالمعروف، ناهيا عن المنكر، وكان له رياضات ومجاهدات، وساح في بلاد الشام وغيرها، وبنى رباطا بباب الأزج يأوي إليه أهل العلم من المقادسة وغيرهم، وكان يؤثرهم، وانتفع به خلق كثير، وكان شيخا مهيبا لطيفا كيسا باشا متبسما، يصوم الدهر ويختم القرآن كل يوم وليلة، ولا يأكل إلا من غزل عمته.

وحكي أنه كان ببغداد رجل عواني يقال له شروين، وكان فاتكا ذا شر إذا رأى امرأة أو صبيا مستحسنا في طريق تبعه، فإذا صادف رجلا من أولاد الناس لزمه، وقال: كانت هذه أو هذا عندك ومقصوده يأخذ منه شيئا ويقول له امش إلى المحبس فيأخذ مامعه، قال: فسألني جماعة من الأخيار أن نمضي إلى زيارة قبر معروف الكرخي، واشترى مأكولا وعبرنا دجلة وقد تبعنا شروين ولم نعلم، فدخلنا بستانا وقعدنا نأكل وإذا به قد هجم علينا وقعد بيننا فخاف الجماعة منه، ومدّ يده فأخذ لقمة فصحت عليه صيحة عظيمة، وقلت له: ويلك قم فنحن لايأكل معنا إلا من هو ولي لله تعالى، قال: فتغير لونه ورمى باللقمة من يده وولى منصرفا وما عاد إلى مثلها، وكانت وفاة محمود في صفر ودفن برباطه رحمه الله تعالى.

- ٩١٣٦ -

ثم دخلت

سنة عشر وستمائة

ففيها: أمر العادل بإحداث تركيب سلاسل، على أفواه السكك المجاورة للجامع، ومدها في أيام الجمع ليمنع الخيل من قرب أبواب الجامع، وذلك لما كان ينال الناس من المشقة من زحمة الخيل التي يركبها بعض المصلين إلى الجامع، فحصل للناس بذلك رفق عظيم، ثم ترك ذلك بعد زمان، وعاد الأمر إلى ماكان عليه إلى الآن، وعمل بعض المتفرغين في ذلك نظما كان يغني به في الأسواق أوله:

إن ذا عام جديد
إن ذا يوم سعيد
والمدينة هاربة
قيدوها بالحديد
كل جمعة يسجنوها
كأنهم ما يعرفوها
والنبي لو أطلقوها
ما برح باب البريد

وفيها: وصل الفيل من الديار المصرية ليحمل هدية إلى الكرج،وازدحم الناس للتفرج عليه وذلك في ثاني صفر.

وفيها: ولد الملك العزيز محمد بن الظاهر غازي بن صلاح الدين يوسف بن أيوب.

وفيها: قدم إلى بغداد شمس الدين التبني رسولا من الملك العادل وكان قد أحسن إلى العادل لما حوصر بدمشق، وأقرض له أموال التجار

وضمنها، فرأى له العادل ذلك فأحبه وقربه وحسده الصفي بن شكر فأبعده بالرسالة.

وحج بالناس ابن أبي فراس من العراق، ومن الشام الغرز صديق بن تمرتاش التركماني على إيلة بحاج الكرك والقدس.

وفيها: قدم الملك الظافر خضر ابن السلطان صلاح الدين رحمه الله من حلب بعزم التوجة إلى الحج، فنزل بالقايون يوم الأحد رابع شوال، ثم انتقل إلى مسجد القدم خامسه ووصل ابن عمه المعظم من حيث كان بنواحي شام حوران واجتمع به على جسر الخشب سادسه، وعمل له دعوة بداره تاسعه، ودعتهما جميعا عمتهما ست الشام إلى دارها ثامن عشره، ورحل من دمشق متوجها إلى الحج في جمع من الحجاج تاسع عشر شوال، وخرج معه المعظم فودعه وتوجه نحو الجابية، فاجتمع الحاج ببصرى، فرحل بهم الظافر منها ضحوة يوم الأربعاء الثامن والعشرين من شوال الموافق لثاني عشر آذار فسلكوا طريق تيماء إلى مدينة النبي صلى الله عليه وسلم، فحصل على الزيارة ثم أحرم بالحج فلما وصل إلى بدر رد من الطريق.

قال أبو المظفر: وكان حج معه يعقوب الخياط المغاري، كان مقيما بمغارة الجوع بقاسيون، وكان صديق الظافر، فلما وصل الظافر إلى بدر وجد عسكر الكامل ابن عمه العادل صاحب مصر قد سبقه خوفا منه على اليمن، فقالوا: ترجع، فقال: قد بقي بيني وبين مكة مسافة يسيرة ووالله ماقصدي اليمن، وإنما أريد الحج فقيدوني واحتاطوا بي حتى أقضي المناسك، وأعود إلى الشام، فلم يلتفتوا فرجع إلى الشام، وعاد يعقوب الخياط معه ولم يحج.

وحكى لي والدي رحمه الله وكان ممن حج معه في تلك السنة: أنه شق

على الناس ماجرى عليه، وأراد كثير منهم أن يقاتلوا الذين صدوه عن المضي في حجته، فنهاهم عن ذلك واختار الرجوع على الفتنة، وفعل مافعله النبي صلى الله عليه وسلم عام الحديبية حين صده الكفار عن البيت فقصر من شعره وذبح ماتيسر وكان محرما من ذي الحليفة، ولبس ثيابه وودع الناس، ورجع وعيون الناس باكية ولهم ضجيج وعويل، ولحقهم عليه حزن طويل من جهة صده عن مشاعر الدين وهو ابن مثل صلاح الدين، رحم الله الجميع.

وفيها: وصل كتاب من جهة بلاد خراسان من بعض فقهاء الحنفية إلى الشيخ تاج الدين الكندي بدمشق يخبر فيه بخلاص خوارزم شاه محمد من أسر التتر وعوده إلى مملكته، وهو أنه كان منازلا لطوائف التتر بعساكره فخطر له أن يكشف أمورهم بنفسه فتنكر ودخل عسكرهم ومعه ثلاثة نفر في زي القوم، فأنكروهم وقبضوهم وضربوا اثنين فماتا تحت الضرب ولم يقروا، ووكلوا بخوارزم شاه ورفيقه فهربا بالليل ووصل إلى معسكره سالما، وعاد إلى ماكان من التصدي لمنازلتهم.

وفيها: ظهرت بلاطة وهم يحفرون في خندق حلب فقلعت فوجد تحتها تسع عشرة قطعة من ذهب وفضة على هيئة اللبن، فاعتبرت فكان منها ذهبا مصريا ثلاثة وستون رطلا بالحلبي وعشرة أرطال ونصف صوري، وأربعة وعشرون رطلا فضة، ثم وجدوا حلقة من ذهب وزنها رطلان ونصف فكمل الجميع قنطارا.

وفيها: قتل أحمد بن محمد بن عمر الآزجي، ويعرف بالموفق نشأ بباب الأزج وسمع الحديث من ابن كليب، وابن يونس، وابن طبرزد وغيرهم، وكان فقيرا خرج إلى الشام واجتمع بالملك الظاهر صاحب حلب، وقال له: قد بعث لك الخليفة معي إجازة، وتقول على الخليفة فخلع عليه وأعطاه خمسين دينارا ودار على ملوك البلاد فحصل له منهم ثلاثمائة دينار.

قال أبـو المظفر: واجتمعت به في دمشـق وقد رجع من زيـارة القدس فقلـت له: إلى أيـن انتهـت زيـارتك؟ فقـال: إلى لـوط، وكـان مطبوعـا، وبلغني حـديثه فقلت لـه: قد فعلت مافعلـت فلا تقرب بغـداد فقال: « أتتك بحـائن رجلاه» فقلت: مـاأخوفنـي أن يصح المثل فيـك، فكان كما قلت، نـزل إلى بغداد في سفينة مـن الموصل، وصعد بـاب الأزج إلى بيت أخته وقت المغرب، فلما كان بعد العشـاء الآخرة طرق الباب طارق فقال: من هـذا؟ فقال كلـم من يطلبك فخـرج وإذا برجـل فسحبه عـن الباب وضربـه بسكين حتى قتلـه، ثم صـاح على البـاب أخرجـي خذي أخـاك ومامعه، فخرجت أخته وإذا به مقتول فأخذت المال ودفنته في الليل.

وفيها: توفي أبـو الفضل أحمد بن مسعود بـن علي التركستاني، الحنفي، قدم بغـداد وكان قـد تفقه وبرع في علـم النظر، وانتهـت إليه الـرئاسة في مذهب أبي حنيفة، ولاه الوزير ابـن مهدي المظالم، والتدريس بمشهد أبي حنيفة.

وفيها: تـوفي أبو محمـد اسماعيل بـن علي بن الحسين الملقـب بالفخـر غلام ابن المنى، ويعرف بابن الرفـاء وبابن الماشطة الحنبلي، ولد سنة تسع وأربعين وخمسمائة، وقـرأ المذهـب والخلاف على أبي الفتح، وقـرأ طـريقـة الشريف، وصنف له تعليقة وجدلا مـن كلام الشريف، وزاد عليه ونقص منه حتى سماه أهل بغداد النظيف من تعليق الشريف، وكان فصيحا وله عبـارة جيدة وصـوت رفيع، وكـان له حلقـة بجـامع الخليفـة يجتمع إليـه الفقهاء فيها ويـنـاظرهم، وولاه الخليفة ضياع الخاص فظلم الـرعية وجبى الأموال مـن غير حلها، فشكوه إلى الخليفة فسخـط عليه وعزله فـأقام في بيته خامـلا فقيرا يعيش من صدقات النـاس إلى أن مات في ربيع الأول، ودفن بداره بدرب الجب، ثم نقل بعد مدة إلى باب حرب وبيعت الدار.

قال أبو المظفر: وولده محمد بن اسماعيل الملقب بالشمس قدم الشام بعد سنة عشرين وستمائة وتعاطى الوعظ، وكان فاسقا مجاهرا خبيث اللسان، وكان معه جماعة من المردان من أبناء الناس يقول إنهم مماليكه، وسمى نفسه ابن المنى، وإنما هو ابن غلام ابن المنى، وبدت منه بدمشق ومصر والشام هنات قبيحة، وكان يضرب الزغل مع هذه الهنات، وورد خالي أبو محمد يوسف رسولا إلى الكامل فكتب في حقه إلى بغداد شيئا وشنع عليه، وكان الخليفة هو المستنصر فلم يسمع منه، ونفاه الكامل من مصر، فجاء إلى دمشق وأنا بها فهجا قاضيها شمس الدين بن الخوئي، ومحتسبها وشيخ شيوخها الصدر البكري، وأعيان الدماشقة هجاهم بقصيدة يقول فيها:

شيخ شيوخ الشام مسخرة
هذا وقاضي قضاتهم بردى

وكان نازلا في مدرسة الحنابلة عند الناصح بن الحنبلي فهجا الناصح والمقادسة، واتفق أنه أخذ غلاما في السوق ومعه دراهم زغل ووصل الخبر إلى المعظم فأراد قطع يده، ثم نفاه ومات المعظم وهو بدمشق، وأقام بالشام مدة ثم خطر له النزول إلى بغداد فقدمها في أيام المستنصر بالله، وتوصل حتى جلس بباب بدر، ثم شرع في السعايات بالناس، واتفق أن غلاما له تعرض لبعض حرم الناس من السطح فجاء زوجها وشنع عليه، فمضى إلى أستاذ الدار ولبس عليه وقال: أمرك الوزير أن تضرب زوجها مائة خشبة وتحلق لحيته، ففعل بالرجل ذلك، وبلغ الخبر المستنصر فقامت عليه القيامة وبعث إلى الوزير فأنكر عليه، فأحضر أستاذ الدار وسأله عن القضية فأحال على غلام ابن المنى، فأمر الخليفة بأن يخرج إلى باب النوبي ويضرب مائة خشبة ويقطع لسانه ففعلوا به ذلك، وأعطوه لسانه في مداسه بيده ونادوا عليه جزاء من يكثر كلامه، وحمل إلى البيمارستان العضدي فتكلم، وكان قطع لسانه من أصله وبرأ وأخرج من البيمارستان فعاد إلى السعاية بالناس فقال المستنصر: لايجيء

من هـذا خير أبدا يحمـل إلى واسط ويرمـى في مطمورة، فنفـي إلى واسط وألقي في مطمـورة، فمات بها في أيام المستنصر، وكان مافعـل به المستنصر من أكبر حسناته(٥٥).

وفيها: تـوفي ابن حـديدة الوزيـر، واسمه سعيـد بن علي بـن أحمد، أبو المعـالي، ولقبه معـز الديـن، وهـو من ولـد قطبة بـن عـامر بـن حديـدة الأنصـاري الصحـابي رضي الله عنـه، ولـد بسامـراء سنـة ستـ وثـلاثين وخمسمائة، ونشأ ببغداد وكـان أحد الموسرين له مال كثير، وجـاه عريض، واستوزره الإمام الناصر في سنة أربـع وثمانين وخمسمائة، وخلع عليه خلعة الوزارة الكـاملة القميـص الأطلس، والفـرجية الممـرج والعمامة القصـب والمكحليـة بأعـلام الذهـب، وقلده سيفـا محلى وقدم لـه فرسـا من خيـل الخليفـة فركبـه وخرج أربـاب الدولـة يمشون بين يـديه مـن باب حجـرة الخليفـة إلى دار الوزارة، وهـو الـذي كان الشيـخ أبـو الفرج بـن الجوزي يجلس في داره ويمـدحه، ولم يزل على الوزارة حتـى ولي ابن مهدي نقـابة العلويين فشرع فيـه، ومازال بـالخليفة حتـى عزلـه واعتقله وطـالبه بمال، فـالتجأ إلى التربـة الأخلاطيـة فلم ينفعـه وأدى المال وأقام في بيتـه إلى أن ولي ابن مهـدي الوزارة، فسلم إليه فـاعتقله في داره بدرب المطبـخ، وعزم على تعـذيبه فـواطـأ الموكلين به وحلـق رأس نفسـه ولحيته وخـرج في زي النساء إلى مـراغة، وأقام بها حتـى عزل ابـن مهدي وعاد إلى بغـداد فنزل داره بـالصويين وأقـام بها حتـى تـوفي في جمادى الأولى،ونقل إلى الكـوفـة فـدفن في مشهـد أمير المؤمنين، وكـان جـوادا، سمحا كثير الصـدقـات، والمعروف، متواضعا.

وفيها: في شـوال توفي سنجـر بن عبد الله النـاصري الذي كـان عصى على الخليفة ثم عفا عنه. وكان ذليلا بخيـلا ساقط النفس مع كثرة البلاد والأموال، وتولى إمارة الحاج في سنـة تسع وثمانين وخمسمائة وعاد في صفر سنة تسعين، فاعترض الحاج رجل بدوي مـن الأعراب يقال له دهمش في

نفر يسير ومع سنجر خمسمائة فارس فلم يلقه وذله، فطلب دهمش منه خمسين ألف دينار فجمعها سنجر من الحاج وضيق عليهم، ولما ورد بغداد وكل عليه الخليفة بذلك المال، وأخذه منه، ورده على أصحابه وعزله عن إمارة الحاج وولاها طاشتكين.

وفيها: توفي تاج الأمناء أبو الفضل أحمد بن محمد بن الحسن بن هبة الله من بني عساكر، أخو الفخر وزين الأمناء، وهو أكبر منهما، سمع عميه الضياء بن أبي الحسن: والثقة الحافظ أبا القاسم وغيرهما، ودفن عند مسجد القدم، وخلف أولادا كثيرين، وكان من أصدقاء الشيخ تاج الدين الكندي، وكان له سمت حسن، وكانت وفاته يوم الأحد ثاني رجب، ودفن في الغد بمقبرة مسجد القدم على جده لأمه قبلي المحراب.

وفيها: توفي الصفي ابراهيم بن التبنيني ودفن بالجبل وهو والد البدر.

وفيها: توفي بحلب تاج العلاء النسابة الشريف الحسني الرملي الذي كان بآمد، وكان اجتمع هو وأبو الخطاب بن دحية فقال له تاج العلاء: إن دحية لم يعقب، فرماه ابن دحية بالكفر في مسائله الموصلية.

وفيها: توفي عبد الجليل والد الشمس وصديقنا الشيرجاني، راوي كتاب البخاري عن أبي الوقت، سمعه عليه خلق كثير بدمشق، وكان نازلا بدويرة حمد في سابع عشر جمادى الأولى ودفن بالجبل.

ثم دخلت

سنة إحدى عشرة وستمائة

ففيها شرع في تبليط رواقات الجامع الداخلية، وابتدأ بالحجر الشرقية مكان السبع الكبير في ثالث عشر المحرم، وكانت أرض الجامع كلها قد تكسر رخامها فبقي حفرا وجورا.

وفيها فوض تدريس المدرسة النورية الحنفية إلى الشيخ جمال الدين محمود الحصيري العجمي، وحضر المعظم مع الفقهاء، ودرس في ثالث ربيع الأول.

وفيها: توفي ابن سيف الاسلام صاحب اليمن، واستولى عليها سليمان ابن شاهنشاه بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب باتفاق من أجنادها وتزوج بأم ابن سيف الاسلام المتوفى فأذن العادل للكامل في تنفيذ ابنه إلى اليمن ليملكها ففعل، فملك أتسيس بن الكامل بن العادل اليمن وتلقب بالملك المسعود، وكان جبارا فاتكا قتل باليمن ثمانمائة شريف، وخلقا من الأكابر والعظماء.

وفيها: أخذ المعظم قلعة صرخد من ابن قراجا، وعوضه عنها مالا وإقطاعا.

وحج بالناس من العراق أبو فراس بن ورام نائبا عن محمد بن ياقوت، ومن الشام علم الدين الفقيه نصر الله الجعبري. إمام الملك المعظم عيسى.

وفيها: حدثت المعاملة بالقراطيس السود العادلية، فبقيت زمانا، ثم بطل ضربها وتناقصت من أيدي الناس إلى أن فنيت.

وفيها: أعطى المعظم صرخد وأعمالها مملوكه استاذ داره عز الدين أيبك المعظمي، فبقيت في يده إلى أن أخرجه منها الصالح أيوب بن الكامل سنة أربع وأربعين وستمائة.

وفيها: حج بالناس المعظم بن العادل، فسار من الكرك على الهجن حادي عشر ذي القعدة، وعماد الدين بن موسك، والظهير بن سنقر الحلبي وغيرهم، وسلكوا طريق العلا وتبوك، وجدد المعظم البرك والمصانع، وأحسن إلى الناس، وتلقاه سالم أمير المدينة وخدمه، وقدم له الخيل والهدايا وسلم إليه مفاتيح المدينة، وفتح الأهراء وأنزله في داره وخدمه خدمة عظيمة، ثم سار إلى مكة فوصلها يوم الثلاثاء سادس ذي الحجة وكانت وقفة تلك السنة يوم الجمعة، وانفصل عن مكة بعد أداء الفرض يوم الثلاثاء ثالث عشر الشهر، وقدم المدينة فأقام بها، ثم انفصل عنها عائدا إلى الشام صحبة الأمير سالم صاحبها في الخامس والعشرين منه.

قال أبو المظفر: وحكى لي رحمه الله قال: قلت له: أين ننزل؟ فأشار إلى الأبطح بسوطه فقال: هناك، فنزلنا بالأبطح، وبعث لنا هدايا يسيرة، وحج السلطان على مذهب أبي حنيفة، وأتى بجميع المناسك وإحياء السنة، أحرم قارنا، وبات بمنى ليلة عرفة، وصلى بها الصلوات الخمس، وسار إلى عرفة وقضى نسكه كما أمره الله تعالى.

ولقد رأيت كتفه بعد ماعاد وقد أكلته الشمس وانكشط، وقيح، فقلت: ماهذا؟ قال: ماغطيت رأسي ولاكتفي منذ ثلاثة عشر يوما، قلت: لم تكن له حاجة إلى كشف كتفه فإنه لايستحب إلا حالة الاضطباع في طواف القدوم والله أعلم.

قال أبو المظفر: وتصدق على فقراء الحرمين بمال عظيم، وحمل

المنقطعين وزودهم وأحسن إليهم. ولما عاد إلى المدينة شكا إليه سالم من جور قتادة فوعده أن ينجده عليه.

قال: ولما رجع كنت مقيما بالكرك فخرجت للقائه مع جماعة من الأعيان، والأمراء، والفقراء، والفقهاء فما التفت إلى أحد منهم، ولما رآني ترجل عن ناقته وعانقني وسقنا إلى برزا وكان لقاؤنا له على غدير الطرفاء في البرية وشرع يحكي لي صفة حجه ومافعل، وكان والده العادل نازلا على خربة اللصوص فقال: أريد أن أبغته حتى لايلتقيني أحد، وسار إليه واجتمع به وحكى له خدمة سالم وتقصير قتادة، فجهز جيشا مع الناهض بن الجرجي إلى المدينة والتقاهم سالم فأكرمهم، وقصدوا مكة فانهزم قتادة منهم إلى البرية ولم يقف بين أيديهم(٥٦).

وفيها: هدمت الدور والحوانيت المجاورة للقلعة لتوسيع الخندق ومن جملة ماهدم حمام قايماز النجمي، ووقف دار الحديث النورية وكان قريبا وحوانيت تقابل المار من جهة دار الحديث إلى القلعة .

وفيها: في الثامن والعشرين من ذي القعدة الموافق لآخر آذار على إحدى عشرة ساعة منه أظلم الجو ووقع شبيه بالرمل إلى بعد المغرب ثم ارتفع ذلك.

وفيها: أنشأ المعظم الفندق الكبير المنسوب إليه بأرض عاتكة قبلي القنوات.

وفيها: توفي الأمير بدر الدين دلدرم اليساروقي صاحب تل باشر في آخر السنة.

وفيها: توفي ابراهيم بن علي بن محمد بن بكروس الفقيه الحنبلي، ولد سنة تسع وخمسين وخمسمائة وقرأ القرآن وتفقه على مذهب أحمد، وسمع

الحديث على أبيه وغيره وشهد عند القاضي ضياء الدين الشهرزوري، وناظر، وأفتى، ثم إن الله تعالى مكر به فصار صاحب خبر بباب النوبي، ورمى الثوب الواسع ولبس المزنر، وتقلد السيف وظلم وفتك في المال والحريم، وضرب جماعة بالخشب ورماهم في دجلة، وماكانت تأخذه في أذى مسلم لومة لائم، وولي نيابة الباب، وكان مآله أن ضرب بالخشب حتى مات تحت الضرب، وكان يقول وهو يضرب:(ماينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون)[٥٧] فكان ذلك آخر كلامه، ورمي به في دجلة ليلا، وسر الناس بموته لأنه فتك في المال والحريم، وكان أبوه من الصالحين زوجه أبو الفرج بن الجوزي إحدى بناته، وليست أم المذكور.

وفيها: توفي ركن الدين عبد السلام بن عبد الوهاب ابن الشيخ عبد القادر الذي أحرقت كتبه بالرحبة، وحكم القاضي بتفسيقه على ماذكرناه في أخبار سنة ثلاث وستمائة، وكان الخليفة قد استأصله حتى طلب من الناس، ثم توصل حتى ولي وكالة الأمير الصغير على الخليفة.

قال أبو المظفر: وكان خالي أبو القاسم صديقه، وكذا كانت عادته أن يوالي من يعادي أباه، قال لي خالي أبو القاسم يوما بعد مامات جدي: تيسر لي صديق يشتهي أن يراك ولم يعرفني من هو فأدخلني إلى دار شممت من دهليزها رائحة الخمر، ودخلنا وإذا الركن عبد السلام جالس وعنده صبيان مردان وهو في حالة قبيحة فلم أقعد، فصاح خالي والركن، فخرجت ولم التفت، فتبعني خالي وقال: خجلتني من الرجل، فقلت له: لاجزاك الله خيرا وأسمعته غليظ الكلام ومرض عبد السلام بعلة البطن فرمى كبده قطعا، ومات في هذه السنة[٥٨] .

وفيها: توفي أبو محمد عبد العزيز بن محمود بن المبارك البزار المعروف بابن الأخضر، ولد سنة ست وعشرين وخمسمائة، وقيل هو جنابذي الأصل بغدادي الدار والمولد، سمع الحديث الكثير، وصنف الكتب

الحسان من الأبواب والشيوخ والفضائل، وأول سماعه سنة ثلاثين وخمسمائة، وكانت له حلقة بجامع القصر يقرأ فيها الحديث، ويقرأ عليه، وتصانيفه تدل على فهمه وضبطه وحسن معرفته، وكانت له دكان بزقاق الريحانيين بخان الحسبة، وكانت وفاته في شوال، وصلي عليه بجامع القصر وحضر جنازته العلماء والأعيان، ودفن بباب حرب إلى جانب أبي بكر المرزوقي، سمع قاضي المارستان، وابن السمرقندي: وأبا الوقت: وابن ناصر، والأنماطي وسعد الخير، وغيرهم وكان فاضلا صالحا دينا عفيفا لطيفا.

وفيها: في شعبان توفي محمد بن علي بن نصر الحنبلي الواعظ الدوري أصله من الدور قرية بدجيل، سمع أبا نصر، وأبا الوقت وغيرهما، وتعاطى الوعظ ولم يكن من صنعته، وكان يضاهي أبا الفرج بن الجوزي حتى قيل له أيما أعلم أنت أم أبو الفرج؟ فقال: ماأرضاه يقرأ علي الفاتحة، وبلغ ذلك أبا الفرج: فقال: ماأقرأ عليه الفاتحة بل أقرأ عليه قل هو الله أحد، وكان يتعصب له حاكة قطفتا ودفن في رباطه بقطفتا، وكان ينتحل أشعار الناس ادعى يوما بيتين لنفسه وأنشدهما على المنبر مشيرا إلى الخليفة، وهما لأبي الفتح البستي:

علم في دجى وشهاب
كلنا في ضيائه واقباسه
متلف الأموال في وقت بؤس
وجواد بالعفو في وقت بأسه(٥٩)

ثم دخلت

سنة اثنتي عشرة وستمائة

وفيها: شرع في عمارة المدرسة العادلية(٦٠)

وفيها: وصل الملك المعظم من الحجاز بعد إداءه فريضة الحج والعمرة إلى والده الملك العادل وهو بخربة اللصوص بعد المغرب من ليلة الاثنين سابع عشر المحرم، وفي بكرته وصل الأمير سالم صاحب المدينة النبوية على ساكنها السلام والتحية، فركب العادل وتلقاه وبالغ في إكرامه ودخل الجميع دمشق في الثالث والعشرين من المحرم، وقدم الأمير سالم هديته من تحف الحجاز وعشرين رأسا من الخيل العراب.

وفيها: وصل الخبر بغارة الفرنج على بلاد الاسماعيلية وأخذهم منها نحو ثلاثمائة أسير، وبغارة الكرج على أذربيجان فحازوا ذخائرها ومايزيد على مائة ألف أسير.

وفيها: وصل الصلاح بن شعبان الإربلي من مصر مبشرا بفتوح اليمن، واستيلاء ولد الكامل عليه وطاعة من به من العسكر له بغير حرب، وانضمام سليمان شاه المستولي عليه إلى قلعة تعز بعياله وأمواله، ثم وصل الخبر بتملك ولد الكامل قلعة تعز ،حصرها وقبض سليمان شاه بن تقي الدين منها، وأحضر إلى مصر تحت الحوطة هو وزوجته بنت سيف الاسلام.

ووصل الخبر من جهة الحجاز بنزول قتادة صاحب مكة على المدينة حرسها الله تاسع صفر وحصرها أياما وقطع ثمرها جميعه، وكثيرا من نخيلها فقاتله من فيها، وقتل جماعة من أصحابه ورحل عنها خاسرا.

وفي سابع ربيع الآخر عزل القاضي الزكي بن محيي الدين عن الحكم بدمشق وأعمالها، وولي من الغد جمال الدين ابن الحرستاني وهو ابن اثنتين وتسعين سنة، فقضى بالحق وحكم بالعدل رحمه الله تعالى.

وفي رابع جمادى الآخرة شرع في عمارة العادلية المقابلة لدار العقيقي من الغرب، وحضر السلطان لترتيب وضعها بين الصلاتين يوم السبت، ثم أحرقت بالنار في رمضان سنة أربع وعشرين.

وفيها: أبطل السلطان ضمان الخمر والقيان في الرابع والعشرين من جمادى الآخرة، وبقي الأمر على ذلك إلى أن توفي العادل في سنة خمس عشرة— نحو ثلاث سنين— فكان الذين يريدون شرب الخمر يتكلفون الخروج إلى ضياع جبل سنير، وفي صيدنايا ومعربا ونحوهما.

وفيها: وصل رسول الخليفة من بغداد إلى دمشق وهو الشيخ شهاب الدين السهروردي، ونزل بجوسق العادل في رمضان، وسار إلى لحاق السلطان بالقدس وعاد راحلا إلى بغداد في خامس عشر شوال.

وفي ثالث شعبان سار الأمير سالم صاحب المدينة بمن استخدمه من التركمان والراجل إليها من المخيم السلطاني بالكسوة، ثم توفي بالطريق قبل وصوله إلى المدينة، وقام ولد أخيه جماز بالأمر بعده واجتمع أهله على طاعته فمضى بمن كان مع عمه لقصد قتادة صاحب مكة، فجمع قتادة عسكره وأصحابه والتقوا بوادي الصفراء، وكانت الغلبة لعسكر المدينة فاستولوا على عسكر قتادة قتلا ونهبا، ومضى قتادة منهزما إلى ينبع فتبعوه وحصروه بقلعته، وحصل لحميد بن راجب من الغنيمة مايزيد على مائة فرس، وهو واحد من جماعة كثيرة من العرب الطائيين وعاد الأجناد الذين كانوا مضوا مع الأمير سالم من الشام من التركمان وغيرهم صحبه الناهض بن الجرجي خادم المعتمد، وفي صحبتهم كثير مما غنموا

من أعمال قتادة ومن وقعة وادي الصفراء من نساء وصبيان، وظهر فيهم أشراف حسنيون وحسينيون فاستعيدوا منهم، وسلموا إلى المعروفين من أشراف دمشق ليكفلوهم ويشاركوهم في قسمهم من وقفهم.

وفيها: كسر كيكاوس ملك الروم الفرنج المتغلبين على أنطالية وأخذها منهم، وأخذ خوارزم شاه محمد بن تكش غزنه من غير قتال، وأخذ ابن لاون أنطاكية من الفرنج ثم عاد أبرنس طرابلس وأخذها من ابن لاون.

وفيها: في العشرين من المحرم توفي بدمشق الشيخ الفقيه كمال الدين مودود بن الشاغوري الشافعي وكان فقيها، صالحا، دينا، خيرا، متواضعا، زاهدا، وكان يقرىء الناس الفقه بالجامع قبالة مقصورة الخطابة احتسابا، ويشرح التنبيه للطلبة، ويطول روحه على تعليمهم وتفهيمهم لله تعالى، ودفن بمقبرة باب الصغير شمالي الحظيرة التي فيها قبر معاوية وغيره من الصحابة رضي الله عنهم، وكتب على قبره في نصيبة حجر أبيات حسنة من نظم الشهاب فتيان الشاغوري رحمهما الله، أفادني قراءة ذلك على قبره شيخنا أبو الحسن السخاوي رحمه الله، وقد خرجت معه لزيارة القبور فوقف عليه مترحما، وقال لي: اقرأ ماعلى القبر فإنه من نظم الشهاب فتيان فقرأت الأبيات وهو يستحسنها:

كم ضم قبرك يا مودود من دين
ومن عفاف ومن بر ومن لين
ماكنت تقرب سلطانا لتخدمه
لكن غنيت بسلطان السلاطين
نبكي عليك وعنا أنت في شغل
برد تسليم حور فرد عين
سقى الإله ضريحا أنت ساكنه
حتى يرى منبتا خضر الرياحين

وفيها: توفي بحران يوم السبت ثاني جمادى الآخرة الحافظ عبد القادر ابن عبد الله بن عبد الرحمن أبو محمد الرهاوي، ولد بالرها سنة ست وثلاثين وخمسمائة، ونشأ بالموصل، وكان مولى لبعض المواصلة فأعتقه فطلب العلم وسمع الحديث الكثير، ويقال إنه مولى لبني فهم الحرانيين، سافر إلى بغداد، وأصفهان، ونيسابور، والشام، ومصر وغيرها وأقام بالموصل بدار الحديث المظفرية يحدث بها مدة ثم خرج إلى حران فأقام بها إلى أن مات، ودفن بها، سمع بمصر الحافظ السلفي، وببغداد ابن الخشاب، وشهدة، وبأصفهان أبا عبد الله الرستمي وغيرهم ، وكان صالحا مهيبا زاهدا ناسكا، خشن العيش صدوقا ورعا رحمه الله.

وفيها: توفي ببغداد في شعبان الوجيه النحوي، واسمه المبارك بن المبارك أبو بكر الواسطي، ولد سنة أربع وثلاثين وخمسمائة، وكان حنبليا فآذاه الحنابلة فانتقل إلى مذهب أبي حنيفه ثم انتقل إلى مذهب الشافعي لأسباب عرضت له، وكان يقول: ماانقلت عن مذهبي، وهجي بأبيات تقدم ذكرها في أخبار سنة تسع وسبعين وخمسمائة، وقرأ الأدب على ابن الخشاب وغيره، وبرع فيه وكان يقرئه بالمدرسة النظامية، وله مقدمة في النحو، وصلي عليه بالنظامية، ودفن بالوزيرية عند ابن فضلان رحمه الله.

وفيها: توفي بدمشق يوم السبت الثالث والعشرين من شوال الوجيه ابن البوني، واسمه ابراهيم بن يوسف بن محمد بن أبي الفرج المغربي، أحد مشايخ القراء المعتبرين بجامع دمشق، وكان يؤم بمقصورة الحنفية الغربية داخل الجامع، وكان يعقد حلقة الإقراء بحلقة ابن طاووس شرقي البرادة، وقبالة حلقة جمال الاسلام ابن الشهرزوري، وكان فاضلا، خيرا، متواضعا، ساعيا في حوائج الناس ، قرأت عليه الجزء الأول من القرآن ودفن بالجبل وكان يوما مشهودا، وفي شوال توفي السديد ابراهيم ابن عمر بن سماقة الأسعردي الفقيه الشافعي بخلاط.

وفيها: توفي يوم الجمعة العشرين من ذي القعدة ولد الخليفة الناصر، وهو الولد الصغير الذي جعل ولي العهد بدل الكبير، واسمه أبو الحسن علي.

قال أبو المظفر: ويلقب بالملك المعظم وكان جوادا كثير الصدقات وافر المعروف كريم الأخلاق حسن العشرة، مرض أياما، ثم توفي وصلي عليه بتاج الخليفة، وأخرج التابوت وبين يديه أرباب الدولة لم يتخلف سوى الخليفة، وحمل إلى تربة أم الخليفة فدفن معها في القبة.

قال: ومن العجائب أنه دخل يوم الجمعة رأس منكلي مملوك السلطان أزبك الذي كان قد عصى على مولاه وعلى الخليفة، وقطع الطريق، وسفك الدماء، وأخذ المال، ثم تعدت إليه العساكر فقتل أصحابه ونهبت أثقاله وذلك بالقرب من همذان، فهرب في الليل فضل عن أصحابه فجاء إلى بيت صديق له في بعض القرى فقيده الرجل، ثم قتله وحمل رأسه إلى أزبك فبعث به إلى ابن زين الدين، فبعث به إلى الخليفة وأدخل رأسه بغداد على خشبة، وقد زين له البلد وظهر السرور والفرح، ولما وصل الرأس إلى باب درب حبيب وافق في تلك الساعة وفاة علي ابن الخليفة، فوقع صراخ عظيم من دار الخليفة فرد الرأس إلى عقد اللكافين، ورمي في بيت في الخان،وكوسات منكلي مشققة، وأعلامه منكسة، وانقلب ذلك السرور حزنا، وأمر الخليفة بالنياحة عليه في أقطار بغداد ففرشوا البواري والرماد، وخرج العواتق من خدورهن ونشرن شعورهن ولطمن، وقام النوائح في كل ناحية ، وعظم حزن الخليفة بحيث امتنع من الطعام والشراب، وغلقت الأبواب وعطلت الحمامات، وبطل البيع والشراء، وجرى في بغداد مالم يجر في بلد آخر، وكان الخليفة قد رشحه للخلافة ففعل في ملكه ماأراد، ورد الخلافة إلى أخيه الأكبر أبي نصر بعد ماكان صرف عن ولاية العهد لأجله، وخلف علي ولدين: أبا عبد الله الحسين ولقبه المؤيد، ويحيى ولقبه الموفق(٦٢) .

وفيها: توفي بدمشق الصمصام أبـو ساروخ النجمي، والشريف مؤمن، وفي رابـع ذي الحجة تـوفي الشريف مجد الـدولـة ابراهيـم بن أبي الحسـن الحسيني بدمشق.

obeikandl.com

ثم دخلت

سنة ثلاث عشرة وستمائة

ففيها: أحضرت الأوتاد الخشب لأجل قبة النسر في الجامع، بدمشق وعدتها أربعة طول كل واحد منها اثنان وثلاثون ذراعا بذراع النجارين حيث كانت قطعت من الغوطة، والدخول بها من باب الفرج إلى المدرسة العادلية إلى باب الناطفانيين، وأقيم هناك لها الصاري، ورفعت ثم وضعت.

وفيها: في المحرم أيضا شرع في تحرير خندق باب السر، وهو المقابل لدار المعظم العتيقة المجاورة لنهر بانياس، وكان المعظم ومماليكه وعسكره ينقلون التراب كل واحد يأخذ معه قفة يجعلها على قربوس سرجه ويمضون جميعا مع المعظم نحو الميدان الأخضر يفرغون القفاف ويرجعون يفعلون ذلك كل يوم، ثم انقسموا فرقتين وكان المعظم وعسكره ينقلون يوما، وكان أخوه الصالح اسماعيل مع من انضم إليه من العسكر ينقلون يوما، والناس في الخندق يعملون، وكثير منهم يتفرجون، وكان كل يوم عمل الخندق على طائفة من أهل البلد، وعمل فيه الفقهاء، والصوفية، ولم يبق أحد، ونظم في ذلك أشعار كان يغني بها في الأسواق وتحت القلعة.

وفيها: كانت الحادثة بدمشق بين أهل الشاغور والعقيبة وحملهم السلاح وقتالهم بالرحبة والصيارف، وبركوب العسكر للفصل بينهم، وحضور المعظم من جوسق الريس لتسكين الفتنة، وكان مقيما به وقبض جماعة من مقدمي الحارات منهم ريس الشاغور، وأودعوا السجن في السادس والعشرين من ربيع الأول، ووصل الخبر بتسلم نواب الكامل ينبع من نواب قتادة حماية له من قاسم بن جماز صاحب المدينة على

ساكنها السلام، وكـان قاسم بن جماز أخذ وادي القرى ونخلـة من قتادة وهو مقيم به ينتظر الحجاج حتى يقضـوا مناسكهم، وينازل هو مكة بعد انفصالهم عنها.

وفيهـا: سار المعظـم من قـريـة العباديـة بالمرج إلى أخيـه الأشرف على الهجن في البريـة على حصن مسلمة بظاهـر حران بعد أن كـان وصل في سيره، ففاوضـه في أمر حلب، وذلـك حين كان بلغـه موت صاحبهـا ابن عمه الظـاهر غازي صـلاح الدين ، وكـان قد سبق مـن الأشرف الاتفاق مع القـائم بأمـرها، فـرجع إلى العباديـة بعد سبعـة عشر يومـا، ولم يظهر للناس إلا أنه كان منصورا.

وفيها: ترتـب الخطيب بالمصلى لإقامـة الجمعة به تاسـع عشر رمضان، وأول من خطب بـه الصدر وكان شيخا صالحا، معيدا بـالمدرسة الفلكية، ثم خطب بعده بهاء الدين بن أبي اليسر، ثم بنو حسان إلى الآن.

وفيها: امتنع تجار الفرنج من الـوصول إلى الاسكندرية، وصار وصولهم إلى عكا بالبضائع وبيعهم بها فحصل لملـك عكا جملة وافرة، وبلغ ضمان قصبتهـا مائة وعشريـن ألـف دينار، وكـانـت سنة قليلـة الأمطـار غاليـة الأسعار.

وفيهـا: سافـر أبو المظفـر سبـط ابن الجوزي إلى خـلاط قال: وبعـث الخليفة كتاب روح العارفين إلى الأشرف وعرضـه على العلماء الذين هم في خدمته وأمرهم أن يشرحوه فلم يقـدروا على شرح حديث واحد فأشار إلى شرحه وتبيين مـافيه من الفـوائد فشرحته، والنسخة مـوقوفة بـدار الحديث الأشرفيـة بدمشـق. قال: وجلسـت بقلعـة خلاط وحضر الأشرف وبكـى وانتفع.

ووصل شهـاب الديـن عبد السلام بـن أبي عصرون من حلـب رسولا

من الملك العزيز محمد بن الظاهر إلى الخليفة يسأله تقريره على ماكان عليه أبوه، ونزل الأشرف من خلاط إلى حران في شعبان، وسألني الجلوس بجامع حران فضربت له خركاة في الجامع وحضر وكان يوما مشهورا وجلس في الخركاة، وجاء الفخر بن تيمية الخطيب فقعد عنده وكتبوا إلي رقاعا كثيرة فجمعتها وقلت أتركوها إلى يوم يجلس شيخكم يجيب عنها فهو يطول روحه عليكم، أما هذا اليوم فالوقت مايحتمل، فأعجب الأشرف وانقضى المجلس، فقلت للأشرف: لابد لي في هذه السنة من شيئين أحدهما الحج على بغداد، والثاني الإعتكاف بالرقة، فقال: مبارك.

وخرجت من حران في آخر شعبان أريد الرقة فبينما أنا بين حصن [٦٣] والرقة وإذا بنجابين بينهم رجل عليه بغلطاق[٦٤] احمر فقلت لأصحابي: هذه شمائل الملك المعظم،فقالوا: الملك المعظم في دمشق ايش جاء به إلى هنا، فلما قربوا منا وإذا به المعظم، وقد أعيت ناقته فنزل وتحدثنا وأكلنا شيئا كان، وأعطانا ناقته وأخذ فرسي، وقال: اين أخي؟ فقلت في الزراعة، فساق واجتمعا، وفاوضه في أمر حلب، وكان الأشرف قد حلف لشهاب الدين طغريل الخادم، وأنه أتابك العزيز محمد بن الظاهر، فشق ذلك على المعظم، ولم يقل شيئا وجاءا معا إلى الرقة وأنا معتكف بالخانكاه، وحضرا عندي وسار المعظم إلى دمشق وجهزني الأشرف إلى الحج وعمل لي سبيلا مثل سبيله، وتوجهت إلى بغداد.

وحج بالناس من العراق ابن أبي فراس، ومن الشام علم الدين الجعبري، وعدت من الحج على طريق العلا، وتبوك، وجمعت بين زيارة النبي صلى الله عليه وسلم وبين زيارة الخليل عليه السلام في المحرم[٦٥].

وفيها: في ثاني صفر توفي بالقاهرة العضد مرهف بن مؤيد الدولة أسامة بن منقذ، وله من العمر اثنتان وتسعون سنة ونصف، وشيع

السلطان جنازته، وكان جليلا عند الملوك وأبوه من قبله، وقد ذكرنا من أخباره في التاريخ وفي كتاب الروضتين مادل على جلالة بيته وأدبه، وشجاعته، وفضائله مع طول عمره رحمه الله.

وفي جمادى الأولى قتل المعروف بابن الطيب الكتبي بباب الجامع بيد الاسماعيلية وكان ينسب إلى خدمتهم متهما بمذهبهم بقرب باب السلامة عند غروب الشمس به من يوم الأحد السادس والعشرين منه.

وفيها: في الرابع والعشرين من جمادى الآخرة توفي الشيخ حسان بن قوام الرصافي بدمشق، وفي أول رجب توفي الشريف اسماعيل بن تغلب بالقاهرة، وفي ثامن ذي القعدة توفي الشريف المدعي الخلافة المستولي على صنعاء وما والاها من أرض اليمن، وقام ولده مقامه فلم يغن شيئا، واستعيد منه كثير مما تغلب عليه أبوه، وفي ثالث المحرم توفيت بدمشق خاتون الشيزرية وبلغت من العمر حدود مائة سنة.

وفيها: توفي صاحب حلب الملك الظاهر غازي بن يوسف بن أيوب، وعمره أربع وأربعون سنة وتسعة أشهر وخمسة أيام، ومدة ولايته حلب ثلاثون سنة وتسعة أشهر وأيام، ولما اشتد مرضه أوصى بالملك لولده الأصغر محمد لأنه من بنت عمه العادل، وطلب بذلك أن يستمر الأمر له لأجل جده العادل، وأخواله، وأولاده لأنهم ملوك البلاد يومئذ، وأوصى بالملك من بعده لولده الأكبر أحمد، ثم من بعده للمنصور محمد ابن أخيه العزيز عثمان بن صلاح الدين الذي كان أبوه أوصى له بملك مصر فلم يتم العادل له ذلك، وكان العادل قد زوجه ابنته، وفوض ولاية القلعة إلى خادم أبيض يعرف بالشهاب طغريل كان وصل إلى خدمته من بلاد الروم، وكان مشتهرا بالزهد فصار له عنده مكانة.

قال أبو المظفر: وكان الظاهر مهيبا له سياسة وفطنة وكانت دولته

معمورة بالعلماء، والفضلاء، مزينة بالملوك والأمراء، وكان محسنا إلى الرعية وإلى الوافدين عليه، وحضر معظم غزوات والده، وانضم إليه أخوته وأقاربه، وكان ملجأ للغرباء، وكهفا للفقراء يزور الصالحين ويعتقدهم، ويغيث الملهوفين ويرفدهم، قال: وكان يتوقد ذكاء، وفطنة، سريع الإدراك جلست عنده في سنة اثنتي عشرة وستمائة وكان الأشرف قد أرسلني إليه في فضايا لايطلع عليها كاتب، وكتب كتابا بيده إلى الظاهر، وكان بحلب فقير ممن يحضر مجالسي قبل ذلك في سنة ثلاث وأربع وخمس وستمائة، وكان ذلك الفقير يقوم في المجلس ويصيح: واه ، واه، فيزعج الحاضرين وكان صالحا، والظاهر أنه تغير حاله، فلما جلست سنة اثنتي عشرة عند الظاهر بقي ذلك الفقير يحترق ويقول: كيف أعمل ويرددها، فقال الظاهر: قدموه إلى عندي فقدموه له، فقال له: هذا الدي يقول الشيخ ماهو بمليح؟ قال: بلى، قال: إن أردت أن تصيح صيح فعجب الحاضرون.

وحضره في ذلك المجلس رجل عجمي يقال له أبو بكر النصيبي، وكان صالحا وكان يحمل عصا أبنوس فطابت قلوب الجماعة في ذلك اليوم وبكوا، فقام النصيبي ودار وجاء إلى الظاهر وقال له: أنت فرعون ماتتحرك، وثار في وجه النصيبي مثل التفاحتين وخرج من المجلس فمات بعد ثلاث.

وحضرنا عنده يوم الخميس في دار العدل فجيء بامرأة قد تحدثت على شخص واعترفت بالكذب، فقال للقاضي ابن شداد: ماذا يجب عليها؟ قال: التأديب فقال تضرب بالدرة شريعة، ويقطع لسانها سياسة فقلت له: الشريعة هي السياسة الكاملة وما عداها يكون تعديا عليها، فأطرق فأدبت المرأة وسلمت من قطع اللسان، وله من هذا الجنس نوادر في « الموارد والمصادر».

وتوفي ليلة الثلاثاء العشرين من جمادى الآخرة بعلة الذرب ودفن بقلعة حلب، ثم بعد ذلك نقل إلى مدرسته التي أنشأها، وقام بعده ولده الملك العزيز محمد وأتابكه شهاب الدين طغريل الخادم فقام بأمره أحسن قيام، واستمال الملك الأشرف يدنيه متى شاء، ويقصيه متى شاء فحفظ مملكة حلب على ولد الظاهر بحسن تدبيره إلى أن كبر واستقل به(٦٦).

وفيها: توفي الشيخ العلامة تاج الدين أبو اليمن زيد بن الحسن بن زيد الكندي، أوحد العصر، وفريد الدهر رواية ودراية ، بأنواع علم الأدب، وجمع أصول الكتب ومتعة الله بطول العمر، وعلو المنزلة عند الملوك والأمراء، والقضاة، والأعيان، وجلالة من كان يتردد إلى منزله وحيث كان للسماع عليه والاقتباس من فوائده، وفرائده، وكان مولده في الخامس والعشرين من شعبان سنة عشرين وخمسمائة، وقرأ القرآن بالروايات، وله عشر سنين على شيخه الشيخ أبي محمد عبد الله بن علي سبط الشيخ أبي منصور الحافظ، وهو الذي رباه، وكان خصيصا به فأسمعه عليه وعلى غيره كتبا كثيرة مثل كتاب سيبوية، والمقتضب للمبرد، والحجة لأبي علي الفارسي، وقرأ العربية أيضا على أبي السعادات ابن الشجري، واللغة على أبي منصور الجواليقي، وسمع الحديث الكثير من ابن ناصر، وابن السمرقندي، والأنماطي، وسعد الخير، ومحمد بن عبد الباقي الأنصاري، وأبي منصور القزاز، وروى عنه تاريخ بغداد للخطيب وغيرهم، وكان مسكنه بدمشق بجيرون بدرب العجمي فكم ازدحم في ذلك الدرب من شيوخ العلم وطلبته أولاد الملوك وخدمته، ومتى ما أريد اعتبار ذلك فلينظر في الكتب التي عليها طبقات السماع عليه ليعلم جلالة من كان يتردد إليه، وكان فارق بغداد في سنة ثلاث وستين وخمسمائة، وورد الديار المصرية فسمع بفضله فتقرب إليه من هو من أهله، فاشتمل عليه عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب وهو: ابن أخي صلاح الدين، ثم ولده الملك الأمجد صاحب بعلبك من بعده، ثم

بالشام تردد إليه الملك الأفضل علي في سلطنته، وأخوه الملك المحسن ابنا صلاح الدين، والملك المعظم عيسى بن العادل وغيرهم.

وأخبرني القاضي ضياء الدين بن أبي الحجاج، صاحب ديوان الجيوش المصرية رحمه الله، وكان من أعلم من رأيت بأخبار الناس، وعمل للشيخ أبي اليمن مشيخة حسنة، قال: سألته كيف كان اتصاله بعز الدين فرخشاه؟ فقال: كنت بمجلس القاضي الفاضل رحمه الله في داره بالقاهرة، فدخل عليه فرخشاه فلما استقر بمجلسه جرى ذكر شرح بيت من الشعر لأبي الطيب المتنبي فذكرت منه شيئا فأعجب فرخشاه. فسأل القاضي الفاضل عني فقال: من هذا؟ قال: هذا العلامة تاج الدين الكندي، أو كما قال، فنهض فرخشاه وقبض علي يدي وأخرجني معه إلى منزله ودام اتصالي به، وكان يحضر مجلسه للقراءة في داره والسماع منه جميع المتصدرين بجامع دمشق من المشايخ المعتبرين، كأبي الحسن السخاوي، ويحيى بن معطي، والوجيه البوني، والفخر التركي، وغيرهم، وقال لي شيخنا أبو الحسن رحمه الله: أنا حرضت الملك المحسن على التردد إليه فحمل ذلك ابن عمه الملك المعظم على ملازمته والقراءة عليه.

وقال في كتابه شرح المفصل: لقيت جماعة من أهل العربية منهم: الشيخ الفاضل أبو اليمن زيد بن الحسن الكندي رحمه الله تعالى، وكان عنده في هذا الشأن مالم يكن عند غيره، وأخذت عنه كتاب سيبوية، وقرأت عليه كتاب الإيضاح لأبي علي مستشرحا، وأخذت عنه كتاب اللمع لأبي الفتح، وكان واسع الرواية، وافر الدراية، ومن العجب أن سيبوية اسمه عمرو و الكندي اسمه زيد، فقلت في ذلك:

لم يكن في عصر عمرو مثله
وكذا الكندي في آخر عصر
وهما زيد وعمرو وإنما
بني النحو على زيد وعمرو

وهذا معنى حسن، وهو نظير قول أبي شجاع بن الدهان من أبيات تقدم ذكرها في أخبار سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة، وهي:

النحو أنت أحق العالمين به
أليس باسمك فيه يضرب المثل

وقرأ على شيخنا أبي الحسن من نظمه قصيدة فائقة جامعة لفضائل أبي اليمن الكندي رحمه الله وهي:

أيها الدائب المعنى المعاني
مقتضى الكد في معاني المعاني
لذ بباب الكندي زيد أبي اليمـ
ـن إمام الأنام فرد الزمان
فعقول الورى في الفهم عنه
ذات فقر للفضل والعرفان
هو بحر فيه نفيس لآل
وسواه كالآل عند العيان
غير بدع إن قر في البحر در
وهو تاج والدر للتيجان
صورة صورة من السؤدد المحـ
ـض وطيب الأنفاس والاحسان
علم سيبويه منفرد فيـ
ـه باسناده وبالاتقان
وكذا شرح سيبويه وما حـ
ـل بأقطارها له فيه بان
وكتاب الإيضاح قد فاق فيه
بحلى الإيضاح والتبيان
وكذا كامل المبرد مع مقتضـ
ـب النحو ذي الفصول الحسان

وأصـــــول السراج واللمـــــع الفـــــر
د وشرحـــــاه حبـــــذا الشرحـــــان
والـــذي حـــرر ابـــن بـــرهـــان في النحـــ
ـــــو ومـــا قـــال قبلـــه الـــرمـــاني
وكـــذا الحجـــة الـــذي فـــاق فيـــه
علماء الأعصـــــار والأزمـــــان
والتفـــاسير والقـــراءات والتجـــ
ـــــويد فيهـــا ومشكـــل القـــرآن
وحـــديـــث النبـــي والقـــول فيـــه
قـــولـــه في غـــريبـــه والبيـــان
والتـــواريـــخ والقـــوافي مـــن الشعـــ
ـــــر وعلـــم العـــروض والأوزان
ولـــــه في العـــــروض مـــــا لم تجده
لمجيـــد القـــريـــض في ديـــوان
بين جـــزل غـــدا حبيـــب حبيـــب
وحســـان كـــانـــت هـــوى حســـان
يقـــظ واســـع المجـــال رحـــب البـــ
ـــــاع فيما ينـــأى عـــن الأذهـــان
يـــرشـــد العـــاقـــل الـــذكـــي مـــن السهـــ
ـــــو بقلـــب ذي فطنـــة يقظـــان
وجنـــان لـــه وقـــد جـــاوز التســـ
ـــــعين حـــولا نضـــارة العنفـــوان
ويـــديـــرقـــم الطـــروس كما فصـــ
ـــــل عقيـــان نـــاظـــم بجمان
فـــانظـــر الحظ واسمـــع اللفـــظ تنعـــم
ثـــم في روضتـــي يـــد ولســـان
وقـــر الله بعـــد طـــول بقـــاء
في نعيـــم نعيمـــه في الجنـــان

قال أبو المظفر سبط ابن الجوزي: شيخنا تاج الدين الكندي انتهت إليه القراءات، والروايات وعلم النحو واللغات، قرأت عليه من كتاب الصحاح، والمتنبي والحماسة، والإيضاح، والمعرب لابن الجواليقي، وكان يحضر مجالسي بجامع دمشق، وقاسيون ويقول: أنا قد صرت من زبون المجلس، وكان حسن العقيدة، طيب الخلق، لايسأم الإنسان من مجالسته وله النوادر العجيبة، ولما خرجت في سنة سبع وستمائة إلى الغزاة كتب لي إلى نابلس كتابا بخطه وكان يكتب مثل الدر:

جزى الله بالحسنى ليالي أحسنت
إلينا بإيناس الحبيب المسافر
ليالي كانت بالسرور قصيرة
ولم تك لولا طيبها بالقصاير
فيالك وصلا كان وشك انقضائه
كزورة طيف أو كنغمة طائر

قال وكتب أيضا:

أياساكنا قلبي على بعد دارهم
لقد عيل صبري منذ شطت نواكم
سرى معكم نومي فأصبحت بعدكم
ألوم السرى منه وأبكي سراكم
رضيتم بعادي عنكم فرضيته
لأني أهواكم وأهوى هواكم
شجاني غرام لو وفيتم ببعضه
لقلب المعنى فيكم لشجاكم
أعيدوا لنا عيد الوصال على اللوى
سقى الله أيام النوى وسقاكم
دعاني اشتياق لم تصبكم سهامه
فياليته لما دهاني دهاكم

وإني لأخشى أن أموت بغصتي
عليكم ولا أبقى إلى أن أراكم
ولو كان قلبي كالقلوب لغيركم
لقد كان لما أن سلوتم سلاكم

وله ديوان شعر. قال: وحكى لي قال: كتبت إلى الملك الأمجد إلى بعلبك:

لا يضجرنكم كتبي إذا كثرت
فإن شوقي أضعاف الذي فيها
والله لو ملكت كفي مهادنة
من الليالي التي أحيا بناديها
لما تصرم لي في غير داركم
ليل ولا مت إلا في نواحيها
عدوا احتما لكم لي حين أضجركم
من الصلات التي منكم أرجيها

قال وكتب إلي بخطه وهي له:

إنا لتتحفنا بالشوق كتبكم
وإن بعدتم فإن الشوق يدنيها
فكيف نضجر منها وهي مذهبة
من وحشة الشوق لوعات نعانيها
وإن ذكرتم لنا فيها اشتياقكموا
فعندنا منكم أضعاف ما فيها
سلوا نسيم الصبا يهدي تحيتنا
إليكم فهي تدري كيف تهديها

قال: وكان المعظم عيسى رحمه الله يقرأ عليه دائما، قرأ عليه كتاب

سيبويه نصا وشرحا، والإيضاح والحماسة، وشيئا كثيرا، وكان يمشي من القلعة راجلا إلى دار تاج الدين والكتاب تحت أبطه، توفي رحمه الله يوم الاثنين سادس شوال وأنا يومئذ متوجه إلى الحج على بغداد، وصلي عليه بجامع دمشق وحمل إلى قاسيون فدفن به، ولم يتخلف عن جنازته أحد من الأعيان وعمره ثلاث وتسعون سنة وشهر وستة عشر يوما، وكان صدوقا ثقة.

قلت: وقرأت في ديوانه بخطه:

لبست من الأعمار تسعين حجة
وعندي رجاء بالزياده مولع
وقد أقبلت إحدى وتسعين بعدها
ونفسي إلى خمس وست تطلع
ولاغرو أن آتي هنيدة سالما
فقد يدرك الإنسان مايتوقع
وقد كان في عصري رجال عرفتهم
حيوها وبالآمال فيها تمتعوا
وماعاف قبلي عاقل طول عمره
ولالامهم من فيه للعقل موضع

هنيدة اسم علم على المائة.

وقرأت بخطه فهرس كتبه التي وقفها على فتاه ياقوت، ثم على ولده ثم على العلماء فوجدتها سبعمائة وإحدى وستين مجلدا: في علوم القرآن، مائة وأربعون، الحديث تسعة عشر، الفقه تسعة وثلاثون، اللغة مائة وثلاثة وأربعون، الشعر مائة واثنان وعشرون، النحو والتصريف مائة وخمسة وسبعون، علوم الأوائل من طب وغيره مائة وثلاثة وعشرون، وكان

معتقه نجيب الدين ياقوت قد هيأ له خزانة كبيرة بمقصورة ابن سنان الحنفية المجاورة لمشهد زين العابدين بجامع دمشق، ونقل إليها جملة من هذه الكتب، ثم إنها تفرقت وخرجت عن الخزانة وعدمت وبيع جملة منها سرا وجهرا، نسأل الله عفوا وغفرا وصيانة وسترا.

وكان الشيخ تاج الدين رحمه الله قد عمل شرحا لديوان أبي الطيب أحمد بن الحسين المتنبي، فلما انتهى سماعه عليه كتب شيخنا أبو الحسن الثبت فيه بيتان يريد بهما مصنفه أبا اليمن الكندي وهما:

فلو أن أحمد يدري بما
ينال من السعد ما قاله
لرام من التيه وطء السها
وجر على النجم أذياله

وأخبرني صاحبنا جمال الدين أحمد بن عبد الله بن شعيب،وكان أحد من قرأ على الشيخ تاج الدين أنه كان مع علو منزلته وجلالته متواضعا مع طلبته، يخاطب كلا منهم بقوله: ياسيدنا.

قال: وكنا نقرأ يوما عنده أنا ورفقائي فدخل الملك المعظم فجلس فسكتنا فقال الشيخ للمعظم: إنما سكتوا لأجل السلطان ولم يفرغوا من حزبهم، فقال: لاوالله إنما القراءة بالنوبة فليتمموا، فأمرنا الشيخ فأتممنا حزبنا، قال: وكان منصفا لمن يدخل عليه ولقد سمعته وهو يعتذر لهم عن ترك القيام لكبره وأنشد:

تركت قيامي للصديق يزورني
ولاذنب لي إلا الإطالة في عمري
فإن بلغوا من عشر تسعين نصفها
تبين في ترك القيام لهم عذري

ومن شعره وقد شرب دواء:

تداويت لا من علة خوف علة
فأصبح دائي في حشاي دوائي
فيا عجب الأقدار من متحذلق
يحاول بالتدبير رد قضاء

وفيها: توفي أبو الغنائم سعيد بن حمزة بن أحمد، ويقال له ابن ساروخ الكاتب النيلي العراقي، ولد بالنيل سنة ثمان عشرة وخمسمائة، وسمع شيوخ ذلك العصر، وسافر إلى الشام والروم، ومدح الملوك والأمراء، وذكره العماد في الخريدة وقال: قدم دمشق ومدح أمراءها وعاد إلى بغداد فكبر وأسن وانقطع في بيته إلى آخر عمره وكان بارعا وله رسائل، ومكاتبات، وأشعار رائقة، وألفاظ فائقة شائقة فمن شعره:

ياشائم البرق من نجد كاظمة
يبدو مرارا وتخفيه الدياجير
إذا سقيت الحيا من كل معصرة
وعاد مغناك خصبا وهو ممطور
سلم على الدوحة الغناء من سلم
وعفر الخد إن لاح التعافير
أحن شوقا إلى تلك الرياض وقد
ضاهاها بنفسجها ورد ومنثور
ومالت السرو في خضر الثياب كما
تمايلت في الحرير الأخضر الحور
والغصن سكران من ظل الندا فإذا
دعا ابن ورقاء أضحى وهو مخمور
وهاتفات على الأغصان قد رقدت
عنهن في غسق الدجى النواطير
فظل يسجعن حتى كدت من ولهي
أقضي ولكنما في العمر تأخير

لكـــن وجـــدي بترجيـــع الهديـــل ومـــا
غـــردن بـــاق إلى أن ينفـــخ الصـــور

وكانت وفاته ببغداد في رمضان.

وفيها: توفي محمد بن الحافظ عبد الغني المقدسي، ولقبه عز الدين ولد سنة ست وسبعين وخمسمائة، وسمع الحديث، رحل إلى أصبهان، ثم عاد إلى بغداد وقرأ مسند أحمد ببغداد، وسمع أبا الفرج ابن الجوزي وغيره، وعاد إلى دمشق، وحدث عن أصحاب الحداد وغيرهم، وكانت له حلقة بجامع دمشق، وصحب الملك المعظم عيسى، وسمع بقراءته الكثير، وكان حافظ دينا زاهدا ورعا، وتوفي بقاسيون رحمه الله.

وفيها: توفي أبو الفتوح محمد بن علي بن المبارك بن الجلاجلي البغدادي التاجر، ويلقب بالكمال، ولد سنة إحدى وأربعين وخمسمائة، وقرأ القرآن وسافر إلى الأقطار، وسمع الشيوخ وكان يتردد من الخليفة إلى الأشرف في رسائل خفية، سمع ببغداد أبا السعادات المبارك بن علي الوكيل، وأبا بكر عبد الله بن النقور، وابن البطي، وبالاسكندرية الحافظ أبا الطاهر السلفي وغيرهم، وكان عاقلا دينا صالحا ثقة صدوقا بساما متواضعا ومات بالقدس.

وفيها: توفي محمد بن يحيى بن عبد الله بن نصر بن النحاس الواسطي الأديب، كتب من واسط إلى أبي المظفر سبط ابن الجوزي رحمهما الله:

وقـــائلـــه لما عمـــرت وصـــارلي
ثمانـــون عـــش كـــذا وابـــق واسلـــم
ودم وانتشـــق روح الحيـــاة فـــإنـــه
لأطيـــب مـــن بيـــت بصعـــده مظلـــم
فقلـــت لها عـــذري لـــديـــك ممهـــد
ببيـــت زهير فـــاعلمـــي وتعلمـــي

سئمت تكاليف الحياة
ومن يعش ثمانين حولا لا محالة يسأم

وفيها: توفي أبو جعفر يحيى بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد —أربع مرات— العلوي الحسيني البصري يعرف بابن أبي زيد، ولي نقابة الطالبيين بالبصرة بعد أبيه مدة، وسمع الحديث من أبيه وغيره، وقرأ الأدب على أبي علي بن الأحمر الحماني بالبصرة، ومولده سنة ثمان وأربعين وخمسمائة، وقدم بغداد ومدح الإمام الناصر بقصائد وكان رقيق الشعر، توفي ببغداد في رمضان، ودفن بمقابر قريش ومن شعره:

هذا العذيب وهذا الجزع والبان
فاحبس فلي فيه أوطار وأوطان
آليت والحر لا يلوي أليته
أن لا يلذ بطيب النوم أجفان
حتى تعود لياليناالتي سلفت
بالأجرعين وجيراني كما كانوا

ثم دخلت

سنة أربع عشرة وستمائة

قال أبـو المظفر:ففيهـا قدم شيخ الشيـوخ صدر الـدين بـن حموية إلى بغداد رسولا من العـادل، وقدم بعده ولده فخر الدين رسـولا من الكامل ابن العـادل إلى أخيه المعظم في خطبـة ابنته لابنه، وحضر المعتمـد لطرح البلاطة الخاتمة بيده بحضرة مقصورة الخضر في ثالث المحرم.

وفيهـا: قدم بـأسرى فرنـج وعلى صدر كـل واحد منهـم رأس فرنجـي مقتول معلـق، وأحضرت خيمة فـرنجية سرقهـا العرب مـن مخيم الفـرنج بظـاهر عكـا قيـل إنها كنيسـة لهم، فنصبت في الميـدان الأخضر الصغير، وعمل فيها طعام للفقراء.

وفيها: ذكر محيي الدين محمد بن يحيى بن فضلان الدرس في النظامية.

وفيها: زادت دجلة زيـادة عظيمة، وركب الخليفة في شعبـان وخاطب النـاس وجعـل يقـول لهم: لـو كان هـذا الماء يـرد بمال أو حـرب دفعتـه عنكـم، ولكن أمـر مالأحـد فيه حيلـة، وانهدمت بغـداد بأسرهـا والحال، ووصـل الماء إلى رأس السـور وبقـي مقـدار أصبعين حتـى يطفـح على السـور، فأيقـن الناس بـالهلاك، ودام سبع ليـال وثمانية أيـام ثم نقـص الماء، وبقيت بغداد من الجانبين تلولا لااثر لها.

وفيها: قـدم محمد خـوارزم شاه إلى همذان بقصـد بغداد في أربـع مائة ألف على مـاقيل، وقيـل ستمائة ألف، واستعد لـه الخليفة، وفـرق الأموال والسلاح، وأرسل إليه الشيـخ شهاب الدين السهروردي في رسالـة فأهانه واستدعـاه وأوقفه إلى جانـب تخته ولم يـأذن له في القعود، فحكـى الشيخ شهاب الدين قال: استدعـاني فأتيت إلى خيمة عظيمة لها دهليز لم أر في

الدنيا مثله، والدهليز والشقة أطلس والأطناب حرير، وفي الدهليز ملوك العجم على اختلاف طبقاتهم، منهم صاحب همذان، وأصبهان، والري وغيرها، ثم دخلت إلى خيمة أخرى ابريسم وفي دهليزها ملوك خراسان: مرو، ونيسابور، وبلخ وغيرها، ثم دخلت خيمة أخرى وملوك ماوراء النهر، في دهليزها كذلك ثلاث خيام فدخلنا عليه وهو في حركاة عظيمة من ذهب وعليها سجاف مرصع بالجواهر وهو صبي له شعرات قاعد على تخت ساذج، وعليه قباء بخاري يساوي خمسة دراهم، وعلى رأسه قطعة من جلد تساوي درهما، فسلمت عليه فلم يرد ولاأمرني بالجلوس فشرعت فخطبت خطبة بليغة ذكرت فيها فضل بني العباس، ووصفت الخليفة بالزهد، والورع والتقى، والدين: والترجمان يعيد عليه قولي، فلما فرغت قال للترجمان: قل له: هذا الذي يصفه ماهو في بغداد بل أنا أجيء وأقيم خليفة يكون بهذه الأوصاف، ثم ردنا بغير جواب، ونزل الثلج عليهم فهلكت دوابهم، وركب خوارزم شاه يوما فعثر به جواده فتطير، ووقع الفساد في عسكره وقلت الميرة، وكان معه سبعون ألفا من الخطا فرده الله تعالى:«ونكب تلك النكبة العظيمة وسنذكرها».

وذكر المنشىء محمد بن أحمد النسوي في كتابه الذي ذكر فيه وقائع التاتار مع علاء الدين محمد خوارزم شاه المذكور، ومع ولده جلال الدين وقد اختصرته [٦٩]قال: حكى القاضي مجير الدين عمر بن سعد الخوارزمي أنه أرسل إلى بغداد مرارا آخرها لأجل مطالبة الديوان بما كان لبني سلجوق من الحكم والملك ببغداد، فأبوا ذلك وصحبت في عودة بالشيخ شهاب الدين السهروردي رسولا مدافعا، قال: وكان عند السلطان من حسن الاعتقاد برفيع منزلته ماأوجب تخصيصه بمزيد الإكرام ومزية الإحترام تمييزا له عن سائر الرسل الواردة عليه من الديوان، فوقف قائما في صحن الدار ثم أذن للشيخ في الدخول، فلما استقر المجلس بالشيخ قال رحمه الله: إن من سنة الداعي للدولة القاهرة أن يقدم على أداء رسالته حديثا من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم

تيمنا وتبركا، فأذن له السلطان في ذلك، وجلس على ركبتيه تأدبا عند سماع الحديث، فذكر الشيخ حديثا معناه التحذير من أذيه آل العباس رضي الله عنهم، فلما فرغ الشيخ من رواية الحديث، قال السلطان: أنا ما أذيت أحدا من ولد العباس ولاقصدتهم بسوء، وقد بلغني أن في مجالس أمير المؤمنين منهم خلقا مخلدين يتناسلون بها، فلو أعاد الشيخ الحديث بعينه على مسامع أمير المؤمنين كان أولى وأنفع(٧٠).

فعاد الشيخ والوحشة قائمة بحالها، ثم عزم على قصد بغداد، وقسم نواحيها أقطاعا وعملا، وسار إلى أن علا عقبة أسد أباد فنزل عليه ثلوج حملت الأباطح والاعلام، وغطت الخراكي والخيام، ودام ثلاثة أيام بلياليها، فعظم إذ ذاك البلاء، وأعضل الداء، وشمل الهلاك خلقا من الرجال ولم ينج شيء من الجمال، وتلفت أيدي رجال وأرجل آخرين. فرجع السلطان عن وجهه ذلك حينئذ مما هم به ويئس من مطلبه.

وفيها: كانت جفلة السلطان العادل من الفرنج لما اجتمعوا وخرجوا عليه ووصلوا إلى عين جالوت، وهو ببيسان، فأحرقها وظهر إلى جهة عجلون، ووصل الغور وقطع الفرنج خلفه الأردن وأوقعوا باليزك وغاروا على البلاد وكتب العادل إلى المعتمد وإلى دمشق بالإهتمام والإستعداد واستخدام الرجال، وتدريب دروب قصر حجاج، والشاغور، وطرف البساتين ونقل غلة داريا إلى القلعة، وتغريق أراضيها بالماء فإن الفرنج مظهرون قصدها، واختبط البلد لأجل هذه الشائعة، وأرسل السلطان إلى ملوك الشرق مستحثا لعساكرهم، ووصل إلى مرج الصفر، ونزل به بنية المقام لإجتماع العساكر إليه، ورد خزانته إليه بعد أن كانت وصلت إلى مسجد القدم في السحر للدخول إلى دمشق، وجفلت أهل القرى من عقربا، وحرستا، وغيرهما، وغلت الأسعار وعزم الناس على النزوح عن البلد متى تحققوا طلوع الفرنج من الغور، وكان للناس ضجيج بالجامع في أوقات الصلاة وبكاء ودعاء، ثم رجع الفرنج متوجهين إلى عكا بمن

حصل في أيديهم من الأسارى بعد أن تمت غارتهم وصلوا إلى خربة اللصوص ،وماقرب منها، وإلى أفيق وإلى كثير من أعمال الشعرا والناس بين أيديهم جافلين.

ووصل الملك المجاهد أسد الدين صاحب حمص مع من اجتمع معه من العساكر لنجدة الاسلام، ولم يبق بالبلد أحد لتلقيه، وكان يوما مشهودا طلعت له الشمس عند حرستا، فما وصل إلى البلد إلا وقت الظهر من كثرة الناس في طريقه، ودخل من باب الفرج ومضى على قدمه إلى دار الست فرج الشام أخت العادل الكبرى، أقام عندها ساعة، ثم عاد إلى داره وبات بها وأصبح متوجها إلى السلطان فسكنت قلوب الناس بدمشق بقدومه وزال خوفهم.

وقال أبو المظفر: وفيها: انفسخت الهدنة بين المسلمين والفرنج، وجاء العادل من مصر بالعساكر فنزل على بيسان والمعظم عنده في العساكر الشامية، وخرج الفرنج من عكا ومقدمتهم ملك الهنكر، فنزل عين جالوت في خمسة عشر ألفا، وكان شجاعا مقداما ومعه جميع ملوك الساحل فلما أصبحوا ركب الهنكر في أوائلهم وقصد العادل، وكان العادل على تل بيسان فنظر فرأى أنه لاقبل له بهم فتأخر، فقال له المعظم: إلى أين؟ فشتمه بالعجمية وقال له بمن أقاتل أقطعت الشام مماليكك، وتركت أولاد الناس الذين يرجعون إلى الأصول وذكر كلاما في هذا المعنى،وساق فعبر الشريعة «عند يرقا»وجاء الهنكر إلى بيسان وبها الأسواق والغلال والمواشي وشيء لايعلمه إلا الله تعالى فأخذ الجميع، وارتفع العادل إلى عجلون، ومضى المعظم فنزل بين نابلس والقدس على عقبة اللبن خوفا على القدس، وأقام الفرنج على بيسان ثلاثة أيام، ورحلوا طالبين قصر ابن معين الدين، وسار العادل فنزل رأس الماء وصعد الفرنج عقبة الكرسي إلى خربة اللصوص والجولان وأقاموا ثلاثة أيام ينهبون ويقتلون ويأسرون ،ثم عادوا فنزلوا الغور، وبعث العادل

أثقاله إلى بصرى ونساءه، وأقام على رأس الماء جريدة، ولما نزل الفرنج الغور جاء العادل فنزل عالقين، ثم نزل الفرنج تحت الطور يوم الأربعاء ثامن عشر شعبان، وأقاموا إلى يوم الأحد ثاني رمضان، وكان يوما كثير الضباب، فما أحس بهم أهل الطور إلا وهم عند الباب قد ألصقوا رماحهم بالطور، ففتح المسلمون الباب وخرج اليهم الفارس والراجل، وقاتلوهم حتى رموهم أسفل الطور، فلما كان يوم الثلاثاء رابع رمضان طلعوا بأسرهم ومعهم سلم عظيم فزحفوا من ناحية باب دمشق وألصقوا السلم بالسور فقاتلهم المسلمون قتالا لم يجر في الاسلام مثله، ودخلت رماح الفرنج من المرامي من كل ناحية فضرب بعض الزراقين السلم بالنفط فأحرقه، وقتل عنده جماعة من أعيان الفرنج منهم كند كبير فلما رأوه مقتولا صاحوا، وبكوا، وكسروا عليه رماحهم، واستشهد في ذاك اليوم من أبطال المسلمين الأمير بدر الدين محمد بن أبي القاسم، وسيف الدين بن المرزبان، وكان من الصالحين الأجواد، وأغلق المسلمون باب الطور، وباتوا يداوون الجرحى، وضربوا مشورة، واتفقوا على أنهم يقاتلون قتال الموت ولايسلمون أنفسهم لئلا يجري عليهم ماجرى على أهل عكا، وكان في الطور أبطال المسلمين، وخيار عسكر الشام، وأوقد الفرنج حول الطور النيران، فلما كان وقت السحر يوم الخميس سادس رمضان رحلوا طالبين عكا، وجاء المعظم فصعد وأطلق المال، والخلع وطيب قلوب الناس، ثم اتفق العادل والمعظم على خراب الطور كما سيأتي ذكره، وقيل أن المعظم أنفذ كتابا إلى الخليفة وفي أوله بيتان وهما للأمير عبد المحسن الكاتب الحلبي:

قل للخليفة لازالت عساكره
لها إلى النصر إصدار وإيراد
إن الفرنج بحصن الطور قد نزلوا
لايغفلن فحصن الطور بغداد

ولما انفصل الفرنج عن الطور قصد ابن أخت الهنكر جبل صيدا وقال: لابد لي من أهل هذا الجبل، فنهاه صاحب صيدا: وقال: هؤلاء رماة وبلدهم وعر فلم يقبل، وصعد في «خمسمائة» من أبطال الفرنج إلى جزين ضيعة الميارنة قريبا من مشغرا، فأخلاها أهلها، وجاء الفرنج فنزلوا بها وترجلوا عن خيولهم ليستريحوا فتحدرت عليهم الميارنة من الجبال فأخذوا خيولهم، وقتلوا عامتهم وأسروا ابن أخت الهنكر، فهرب من بقي منهم نحو صيدا، وكان معهم رجل يقال له الجاموس من المسلمين قد أسروه، فقال لهم: أنا أعرف إلى صيدا طريقا سهلا أوصلكم إليه، فقالوا: إن فعلت أغنيناك فسلك بهم أودية وعرة والمسلمون خلفهم يقتلون ويأسرون، ففهموا أن الجاموس غرهم فقتلوه، ولم يفلت إلى صيدا سوى ثلاثة أنفس بعد أن كانوا خمسمائة،وجاءوا إلى دمشق بالأسارى (٧١) وكان يوما عظيما.

وحج بالناس من العراق ابن أبي فراس .

وفيها: توفي بهاء الدين أحمد بن أبي الفضائل الميهني شيخ رباط الخلاطية، من بيت التصوف، وكان أبوه أبو الفضائل واسمه عبد المنعم شيخ المشايخ وسيد الصوفية، وكان الخليفة قد سلم إلى بهاء الدين رباط الخلاطية وأوقافها ثقة فيه من غير مشرف ولاعمل حساب، فأقام مدة يقصده الناس من البلاد وأطراف بغداد، وأرباب البيوت، والفقهاء، والفقراء، والأعيان فما رد قاصدا ولامنع سائلا، وكان له الجاه العظيم والذكر الجميل، وكان له مملوك عبد أسود اسمه ريحان، فرأى الذل والهوان بعد العز والإمكان، ومرض بهاء الدين في تلك الحال فولى الخليفة القاضي الريحاني أمر الرباط وحمل بهاء الدين إلى بيت أخته على نهر عيسى، فتوفي ثامن رجب ودفن في الشونيزية في صفة الجنيد عند أبيه، سمع شهدة الكاتبة، وابن البطي وغيرهما، وصحب أباه وأخذ عنه طريق التصوف.

وفيها: توفي الشيخ العماد الحنبلي، وهو الحافظ عبد الغني الزاهد العابد الورع واسمه: أبو اسحاق ابراهيم بن عبد الواحد بن علي بن سرور المقدسي، ولد بجماعيل سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة، ثم سافر إلى بغداد، وقرأ القرآن على أبي الحسن علي بن عساكر بن المرحب البطائحي وغيره، وسمع الحديث الكثير ببغداد، ودمشق، وكان معتدل القامة شعره إلى أذنيه، مليح الوجه بساما عابدا مجتهدا لايدخر من الدنيا شيئا، حسن الصلاة كثير السجود والدعاء، يقرأ القرآن والفقه دائما في الحلقة بجامع دمشق، ويجتمع إليه الطلبة كل ليلة بعد العشاء الآخرة فيحملهم إلى بيته، ويحضر لهم من الطعام ماتيسر، وما تعرف لأحد من أبناء الدنيا قط لا إلى سلطان ولا إلى غيره.

قال أبو المظفر: ولاتحرك بحركة، ولامشى خطوة، ولاتكلم كلمة إلا لله تعالى، وكان يتعبد بالإخلاص، ولقد رأيته مرارا بالحلقة في جامع دمشق، والخطيب يوم الجمعة على المنبر، فيقوم عماد الدين ويأخذ الأبريق ويضع بلبله في فيه على رؤوس الأشهاد، ويوهم الناس كأنه يشرب وإنه لصائم، وكان الشيخ الموفق يثني عليه ويقول: أعرف العماد من صغره، وماعرفت أنه عصى الله تعالى قط، وكان من خيار أصحابنا وأعظمهم نفعا وأشدهم عبادة وورعا وأكثرهم صبرا على تعليم القرآن والفقه، داعية إلى السنة، وأقام بدمشق يعلم الفقراء، ويطعمهم ويبذل لهم ماله ونفسه وطعامه، وكان من أشد الناس تواضعا واحتقارا لنفسه، ومارأيت أشد خوفا لله تعالى منه، وكان كثير الدعاء والسؤال طويل الركوع والسجود، يصوم يوما، ويفطر يوما، وكان إذا سمع عليه جزء وكتبوا على ظهره سمع على العالم الورع ينهاهم عن ذلك، وسافر إلى بغداد مرتين، الأولى في سنة تسع وستين وخمسمائة صحبة الموفق بعد أن حفظ القرآن، وغريب الحديث، ومختصر الخرقي، وتفقه في بغداد على أبي الفتح بن المنى وأفتى وناظر، والسفرة الثانية سنة إحدى وثمانين صحبة عز الدين

ابن أخيه عبد الغني الحافظ، وصنف كتاب الفروق بين المسائل الفقهية وكتاب الأحكام ، ولم يتمه.

قال: وكان يحضر مجالسي دائما بجامع دمشق وقاسيون لاينقطع إلا من عذر، ويقول صلاح الدين يوسف فتح الساحل، وأظهر الاسلام، وأنت يوسف أحييت السنة بالشام.

قلت: السنة التي يشير إليها كون أبي المظفر رحمنا الله وإياه كان كثيرا مايورد على المنبر من كلام جده أبي الفرج وخطبه مايتضمن إمراء آيات صفات الباري عز وجل وماجاء في الأحاديث الصحاح من ذلك على ماورد من غير ميل إلى تأويل ولاتشبيه ولاتعطيل ومشايخ الحنابلة العلماء هذا مختارهم، وهو جيد، لكن الإكثار منه على أسماع العوام ربما يحمل أكثرهم على شيء من التشبيه، فإذا قرن به مايشرحه وينفي توهم التشبيه كان أولى والله أعلم.

قال أبو المظفر: ولما كان عشية الأربعاء سادس عشر ذي القعدة صلى العماد المغرب بجامع دمشق وكان صائما وأفطر في داره على شيء يسير، فجاءه الموت في الليل فجعل يقول: ياحي ياقيوم، ياذا الجلال والاكرام، وتوفي، فغسل وقت السحر، وأخرجت جنازته إلى جامع دمشق فما وسع الناس الجامع، وصلى عليه الموفق بحلقة الحنابلة بعد جهد جهيد، وكان يوما لم ير في الاسلام مثله، وكان أول الناس عند مغارة الدم ورأس الجبل إلى الكهف وآخرهم بباب الفراديس ولولا المبارز والمعتمد رحمه الله وأصحابه لقطعوا أكفانه ، وماوصل إلى الجبل إلى آخر النهار.

وقال: وتأملت الناس من أعلى قاسيون إلى الكهف إلى قريب الميطور لو رمى الإنسان عليهم إبرة لما ضاعت، فلما كان في الليل نمت وأنا مفتكر في جنازته، وذكرت أبيات سفيان الثوري التي أنشدها في المنام:

نظـــرت إلى ربي كفـــاحـــاوقـــال لي
هنيئـــارضـــاي عنـــك يـــابـــن سعيـــد
فقـــد كنـــت قـــوامـــا إذا أقبـــل الـــدجـــى
بعبرة مشتـــــاق وقلـــــب عميـــــد
فـــدونـــك فـــاختر أي قصر أردتـــه
وزرني فـــإني منـــك غير بعيـــد

وقلت: أرجو أن العماد يرى ربه كما رآه سفيان عند نزول حفرته، ونمت فرأيت العماد في النوم عليه حلة خضراء وهو في مكان متسع كأنه روضة وهو يرقى في درج مرتفعة فقلت: ياعماد الدين كيف بت فإني والله مفكر فيك؟ فنظر إلي وتبسم على عادته وقال:

رأيـــت إلهي حين أنـــزلـــت حفـــرتي
وفـــارقـــت أصحـــابي وأهلي وجيرتي
فقـــال جـــزيـــت الخير عنـــي فـــإننـــي
رضيـــت فهـــاعفـــوي لـــديـــك ورحمتـــي
دأبـــت زمـــانـــا تـــأمـــل الفـــوز والـــرضـــى
فـــوقيـــت نيراني ولقيـــت جنتـــي

فانتبهت مرعوباوكتبت الأبيات، سمع ببغداد أبا محمد الخشاب النحوي، وشهدة الكاتبة وغيرهما، وبالشام أبا المكارم عبد الواحد بن محمد بن المسلم وعبد الله بن صابر وغيرهما، ورثاه الصلاح موسى بن الشهاب بأبيات منها:

يـــاشيخنـــايـــاعمادالـــديـــن قـــدقـــرحـــت
عينـــي وقلبـــي منـــك اليـــوم متبـــول
أوحشـــت والله ربعـــا كنـــت تسكنـــه
لكنـــه اليـــوم بـــالأحـــزان مـــأهـــول

كم ليلة بت تحييها وتسهرها
والدمع من خشية الله مسئول
وسجدت طال ما طال القنوت بها
قد زانها منك تكبير وتهليل (٧٢)

قلت: كان رحمه الله كثير الصلاة مطيلا لأركانها قياما، وركوعا، وسجودا، شاهدته مصليا بالجماعة في حلقة الحنابلة مرارا، ولم يكن لهم في حياته هذا المحراب الآن، وإنما كان يصلي بالجماعة هو تارة والموفق تارة إلى خزانتين مجتمعتين في موضع المحراب الآن سنة سبع عشرة أو نحوها، فجدد لهم هذا المحراب، وسببه أن قاضي دمشق جمال الدين يونس بن بدران حسن للسلطان المعظم عيسى بن العادل أن يجمع خزائن الكتب التي في الجامع إلى مشهد ابن عروة فنقلت الخزائن من الزاوية الغربية، ومن الكلاسة، ومن أروقة الجامع فكان من جملة المنقول الخزانتان اللتان بحلقة الحنابلة فبقي مكان صلاة إمامهم مكشوفا، فتعصب لهم الركن الأمير المعظمي في عمل هذا المحراب فركب في ليلة ذلك اليوم وصلى فيه الشيخ الموفق، ومن بعده ردت الخزانتان إلى الحلقة فجعلتا عن يمين المحراب ويساره، والشيخ العماد هو الذي سن الجماعة في الصلوات المقضية، وكان يصلي بالجماعة بحلقتهم بين المغرب والعشاء وماقدره الله تعالى، وبقي ذلك بعده مدة، حضرت جنازته والصلاة عليه رحمه الله.

وفيها: توفي القاضي جمال الدين أبو القاسم عبد الصمد بن محمد بن أبي الفضل الأنصاري، شيخ القضاة العالم العادل المعمر الزاهد، ولد بدمشق سنة عشرين وخمسمائة، وأصل أبيه من قرية بقرب دمشق تسمى حرستا، قدم دمشق ونزل منزله بباب توما وأم بمسجد الزينبي، ثم أم فيه ابنه جمال الدين بعده إلى أن انتقل إلى مسكنة بالحويرة قبلي الجامع، شارك الحافظ أبا القاسم علي بن الحسن رحمه الله في كثير من مشايخه

الدمشقيين سماعا، وفي الغرباء إجازة، سمع بدمشق جمال الاسلام أبا الحسن علي بن المسلم، وعبد الكريم بن حمزة بن الخضر، وأبا الحسن علي ابن أحمد بن قعيس المالكي وغيرهم، ورحل إلى حلب وسمع بها أبا الحسن علي بن سليمان المرادي الحافظ وأكثر كتب الحافظ البيهقي وغيرهما، ثم رجع إلى دمشق فأقام بها وكان آخر من حدث عن عبد الكريم الحداد، وجمال الاسلام سماعا، وممن أجاز له من أهل نيسابور أبو عبد الله الفراوي، وهبة الله بن سهل السيدي، وزاهر بن طاهر الشحامي، وأبو المعالي الفارسي، وعبد المنعم بن أبي القاسم القشيري، ومن أهل بغداد قاضي المارستان، وابن السمرقندي، والأنماطي وغيرهم، وكان مواظبا للصلوات في الجماعات، يصلي في الصف الأول بمقصورة الخضر بالجامع قبالة محرابها دائما، وهنالك كان يقرأ عليه الكتب المسموعة ويجتمع خلق عظيم مع حسن سمته وسكونه وهيبته، وكان بارعا في فقهه، حكى لي الفقيه عز الدين أبو محمد العز بن عبد السلام أيده الله وهو الآن حي بالديار المصرية أنه لم ير أفقه منه، وعليه كان ابتداء اشتغاله، ثم صحب الشيخ فخر الدين بن عساكر رحمه الله فسألته عنهما فرجح ابن الحرستاني وقال: إنه كان يحفظ الوسيط للغزالي، ولي القضاء قديما نيابة بدمشق في أيام شرف الدين بن أبي عصرون، وكان يكتب له في الأسجال في القضايا، ولما أضر شرف الدين بقي هو على نيابته مع ابنه محيي الدين ابن أبي عصرون، فلما عزل وولى محيي الدين بن الزكي استقلالا وهو شاب لم ير النيابة عنه وبقي منقطعا في بيته إلى أن ولاه العادل المدرسة المجاهدية التي في الرصيف، فبقي مواظبا على التدريس بها وإسماع الحديث بمقصورة الخضر التي يصلي بها إلى أن عزل الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب رحمه الله عن قضاء دمشق في سابع ربيع الآخر سنة اثنتي عشرة وستمائة قاضي القضاة زكي الدين أبا العباس الطاهر ابن قاضي القضاء محيي الدين أبي المعالي محمد بن علي القرشي، وأخذ منه مدرسة العزيزية والتقوية، وأعطى التقوية للشيخ فخر الدين بن عساكر،

وأعطى العزيزية مع القضاء لجمال الدين بن الحرستاني، واعتنى به العادل اعتناء كثيرا، وأقبل عليه وأكرمه بحيث أرسل إليه مايفرشه تحته في مجلس الحكم لكبره وضعفه ومايسند إليه، وكان يجلس للحكم بمدرسة المجاهدية، وناب بها عنه عماد الدين عبد الكريم، وكان يجلس بين يديه وإذا قام الشيخ يستند مكانه، ثم أنه منعه من أي شيء سمعه عنه، وناب عنه أيضا أكابر شيوخ القضاة يومئذ شمس الدين بن الشيرازي، وكان يجلس قبالته في الإيوان بالمجاهدية، وشمس الدين بن سني الدولة، وبنيت له دكة في الزاوية القبلية بغرب المدرسة، وشرف الدين بن الموصلي الحنفي بمجلس المحراب بها، وبقي بالقضاء نحوا من سنتين وسبعة أشهر، ثم توفي يوم السبت رابع ذي الحجة، وكانت له جنازة عظيمة حفلة ودفن بجبل قاسيون، حضرت الصلاة عليه بالجامع، ومقابر باب الفراديس، وكان له يوم توفي خمس وتسعون سنة، ولغرابة ولاية القضاء لمن هو في هذا السن، قال شاعر الشام في وقته شهاب الدين فتيان الشاغوري هذين البيتين:

يامن تدرع في حمل الحمول ويا
معانق الهم في سر وإعلان
لاتيأسن روح من بادى لدى مائة
قاضي القضاة الجمال بن الحرستاني

على أنه رحمه الله امتنع عن الولاية لما طلب لها حتى ألح عليه فيها، وكان في مدة ولايته صارما، عادلا، حاكما بالشريعة،المطهرة، جاريا على طريقة السلف في لباسه واقتصاده في أمره، وعفته، وصيانته، وعدم الإلتفات إلى الأكابر في الشفاعات في الأحكام، ولقد بلغني أنه ثبت لديه حق لامرأة على بيت المال فأحضر الوكيل جمال الدين المصري، وأمره أن يسلم إليها ماثبت لها، فاعتذر بضيق الوقت وكان في آخر النهار، وقال: في غد أسلم إليها، فقال: ربما أموت أنا الليلة ويعوق

حقها، فقيل إنها كانت تدعي بستانا قد وضع النواب أيديهم عليه وقد ثبت حقها لديه، فأمر الوكيل أن يسلمه إليها، ويشهد عليه بأنه ثبت حقها، ولادافع له من جهة بيت المال فاستمهله إلى الغد لدخول المساء، وكان قد أشعلت القناديل وهم بالمدرسة، فقال القاضي: ربما أموت أنا الليلة وترجع أنت أيها الوكيل ربما تعنتهم وتطلب إعادة البينة عند الحاكم الذي يقوم بعدي فوكل به من لايفارقه حتى يسلم إليها البستان، وشهد عليه بذلك، وقام القاضي وأخذ سجادته على كتفه ومشى ليصلي بالجامع على عادته بمقصورة الخضر، فوافق وصوله إلى الجامع أذان المغرب فصلى ومضى إلى بيته وكان أوصى إذا أشهد عليه الوكيل أن يحملوا الكتاب إليه ليقف عليه فجاءه الكتاب إلى داره فوقف عليه فلما علم أنه قد استقصى حق المرأة سلم كتابها إليها، وقيل إنه كان مالا بالمخزن فما زال به حتى أنفذ إلى أمناء الحشرية فجمعهم وفتحوا مخزنهم بقيسارية الفرش، ودفعوا إلى المرأة حقها.

قال أبو المظفر سبط ابن الجوزي: كان القاضي جمال الدين بن الحرستاني، زاهدا، عفيفا، عابدا، ورعا، نزها، لاتأخذه في الله لومة لائم، واتفق أهل دمشق على أنه مافاتته صلاة بجامع دمشق في جماعة مقتصدا في ثيابه وعيشه، وماكان يمكن أحدا من غلمان القضاة يمشي معه بل كأنه بعض الناس.

قال: وحكى لي ولده قال: كان أحد بني قوام يعامل الملك المعظم عيسى في السكر ويتجر له فمات ابن قوام، فطرح ديوان المعظم يده على تركة ابن قوام، وبعث المعظم إلى القاضي يقول: هذا الرجل كان يتاجر لي بمالي والتركة لي،و أريد تسليمها، فأرسل إليه القاضي يقول: لاأسلم إليك تركته حتى تحلف أنك تستحقها، فقال المعظم: والله مااحقق مالي عنده، فقال القاضي وأنا والله ماأسلم إليك حتى تحلف، فما حلف المعظم ولا أثبت القاضي له شيئا.

وحكى لي جماعة من الدماشقة: أن الملك العادل سيف الدين كتب لبعض خواصه كتابا يوصيه به في خصومة بينه وبين رجل، فجاء إليه ودفع إليه الكتاب، فقال: إيش فيه؟ قال: وصية لي، قال: أحضر خصمك، فأحضره والكتاب بيده ولم يفتحه وادعى على الرجل فظهر الرجل على حامل الكتاب فقضى عليه، ثم فتح الكتاب وقرأه ورمى به إلى حماله وقال: كتاب الله قد حكم على هذا الكتاب، فمضى الرجل إلى العادل وبكى بين يديه وأخبره بما قال، فقال العادل: صدق، كتاب الله أولى من كتابي، وكان يقول للعادل ماأحكم إلا بالكتاب والسنة، وأنا ماسألتك القضاء فإن شئت وإلا فأبصر غيري.

قال: وحكى لي الشمس بن خلدي رحمه الله قال: أحضر ولده القاضي علاء الدين بين يديه صحن حلواء أسخنه وقال: ياسيدي كل منه، فغضب وقال: من أين هذا؟ أتريد أن تدخلني النار؟ ولم يأكل.

قلت: غلب على ظنه أنه هدية ممن له حكومة.

وبلغني أن ولده هو الذي ألح عليه في تولية القضاء على كره منه، وحكى لي ولده المذكور قال: جاء إليه الشرف بن عنين فجلس إلى جانبي قبالته وقال: السلطان يسلم عليك ويوصي بفلان فإن له محاكمة في كذا، وكذا، فغضب وقال: الشرع مايكون فيه وصية لافرق بين السلطان وغيره في الحق، فقال: صحيح، فقال: إذا كان صحيحا فايش حاجة إلى قولك: قال السلطان؟ قال: وكان إذا غضب من رسائل أرباب الحاجات يأخذ سجادته على كتفه وينهض من المجلس، وتولى القضاء بعده من كان القاضي قبله زكي الدين الطاهر بن محيى الدين، ثم إن ولده تولى نيابة الحكم بدمشق عن القاضي شمس الدين بن الخليل الخوئي عام حج، ثم تولاه استقلالا، ثم تولى خطابة جامع دمشق، وهو الآن خطيبه، والله الموفق.

وفيها: استشهد الأمير بدر الدين محمد بن أبي القاسم بن محمد الهكاري بالطور على ماتقدم شرحه، بعد أن أبلى في ذلك اليوم بلاء حسنا، وكان من المجاهدين له المواقف المشهورة في قتال الفرنج، وكان من أكابر أمراء المعظم يستشيره ويصدر عن رأيه ويثق به لصلاحه ودينه، وكان سمحا دينا لطيفا ورعا بارا بأهله وبالفقراء، والمساكين، كثير الصدقات دائم الصلاة، بنى بالقدس مدرسة للشافعية وقف عليها الأوقاف، وبنى مسجدا قريبا من الخليل عليه السلام عند قبر يونس عليه السلام على قارعة الطريق، وكان يتمنى الشهادة دائما يقول: ماأحسن وقع سيوف الكفار على وجهي وأنفي، فاستجاب الله دعاءه ورزقه الشهادة، ونقل من الطور إلى القدس فدفن بتربته في ماملا وهي المقبرة التي تزار بالقدس الشريف(٧٤).

وفيها: توفيت بدمشق العالمة المعروفة بدهن اللوز، وكانت شيخة العالمات بدمشق، في ربيع الآخرة.

وفيها: توفيت بنت بوري بدمشق وهي آخر بناته وفاة وانتقل ماخلفته من الأملاك إلى الوقف المشهور عن أختها الكبرى بنت صيفة.

وفيها: توفي الشجاع محمود المعروف بالدباغ في ذي القعدة، وكان من أصدقاء العادل في زمن الشبيبة، وبقي معه في زمن السلطنة مضحكا له، وحصل له ثروة عظيمة، وداره بدمشق جعلتها زوجته مدرسة للفريقين.

ثم دخلت

سنة خمس عشرة وستمائة

ففيها: نزل الفرنج على دمياط في ربيع الأول، وكان العادل بمرج الصفر، فبعث العساكر التي كانت عنده إلى مصر إلى ابنه في مقابلة الفرنج، وأقام المعظم بالساحل بعسكر الشام في مقابلة الفرنج.

وفيها: استدعى العادل ولده المعظم وقال له: قد بنيت هذا الطور، وهو يكون سببا لخراب الشام، وقد سلم الله من كان فيه من أبطال المسلمين والسلاح والذخائر وأرى من المصلحة خرابه ليتوفر من فيه من المسلمين والعدد على حفظ دمياط، وأنا أعوضك، فتوقف المعظم وبقي أياما لايدخل إلى العادل، فبعث إليه فأرضاه بمال ووعده في مصر ببلاد، فأجابه فبعث فنقل ماكان فيه من العدد والذخائر إلى القدس وعجلون، والكرك، ودمشق.

وفيها: في يوم الجمعة ثاني عشر ربيع الآخر كسر الملك الأشرف ملك الروم كيكاوس، وسببه أن الأشرف جمع عساكر الشرق و عسكر حلب ودخل بلد الفرنج ليشغلهم عن دمياط ونزل على صافيتا، وحصن الأكراد، وكان العادل بمرج الصفر وتقدم إلى عالقين، فخرج ملك الروم، ووصل إلى رعبان يريد أن يلم بحلب، ونزل إليه الأفضل من سمسياط وأخذوا رعبان وتل باشر، وبلغ الأشرف فعاد من صافيتا إلى حلب، وقد سبقه ملك الروم إلى منبج، وتقدم بعض عسكرهم إلى بزاعة فرحل الأشرف، فنزل باب بزاعة وقدم العرب بين يديه فكسروا الروم، ورجع صاحب الروم إلى بلاده، وأكثر مانكل فيهم العرب، ورجع الأفضل إلى سمسياط فاسترد الأشرف رعبان، وتل باشر، وأعطاهما لصاحب حلب، وبعث الأشرف سيف الدين بن كهدان، والمبارز، وابن

خطلخ نجدة إلى دمياط، وخطب صاحب آمد للصالح محمود بن أرتق الرومي وقطع خطبة العادل.

وفيها: أخذ الفرنج النازلين على دمياط برج السلسلة في آخر جمادى الأول، فأرسل الكامل إلى ابيه العادل شيخ الشيوخ صدر الدين يخبره ويستصرخ به، فلما اجتمع بالعادل فأخبره فدق بيده على صدره ومرض مرض الموت.

قلت: واذكر وأنا بدمشق حين بلغ الناس أخذ برج السلسلة وقد شق على من يعرفه مشقة شديدة، منهم شيخنا أبو الحسن السخاوي رحمه الله ورأيته يضرب يدا على يد ويعظم أمر ذاك، وسمعت الفقيه عزالدين بن عبد السلام يسأله عنه، فقال: هو قفل الديار المصرية، وصدق رحمه الله تعالى فإني لما رأيته في سنةثمان وعشرين كما سيأتي ذكره بان لي صحة ماأشار الشيخ إليه، وذاك أنه برج عال مبني في وسط النيل ودمياط بحذائه على حافة النيل من غربه، وفي ناحيته سلسلتان تمتد إحداهما على النيل إلى دمياط ، والأخرى على النيل إلى الجيزة فتمنع كل سلسلة عبور المراكب من ناحيتها إذا أريد ذلك حين قتال العدو، فهو قفل البلاد بالديار المصرية إذا اوثقت السلسلتان امتنع على المراكب العبور إليها، ومتى لم تكن السلسلة عبرت المراكب وبلغت إلى القاهرة، ومصر، وإلى قوص، وأسوان والله المستعان.

وفيها: في جمادى الآخرة التقى المعظم بالفرنج على القيمون، ونصر عليهم، وقتل منهم مقتلة عظيمة، وأسر من الداوية مائة فارس، وأدخلهم القدس منكسة أعلامهم.

وفيها: وصل رسول خوارزم شاه علاء الدين محمد بن تكش إلى العادل وهو بمرج الصفر، فبعث بالجواب مع الخطيب جمال الدين محمد

الدولعي الشافعي خطيب جامع دمشق بعد عمه، ونجم الدين خليل ابن علي الحنفي قاضي العسكر، فوصلا إلى همذان فوجدا الخوارزمي قد اندفع بين يدي الخطا والتاتار، قد خامر عليه عسكره فسار إلى حد بخارى، فاجتمعا بولده جلال الدين فأخبرهما بوفاة العادل، فرجعا إلى دمشق وكان الخطيب الدولعي قد استناب مكانه في الخطابة بجامع دمشق ابنه الشمس يونس، ولم يكن له أهلية فسعى القاضي زكي الدين وأكابر البلد في عزله وتولية الشيخ الموفق عمر بن يوسف خطيب بيت الأبار إلى أن يقدم الدولعي، وكان يسكن بالمدرسة العزيزية في البيت الأوسط القبلي من البيوت السفلى ويكرر الخطب في بيته ذلك وفي إيوان المدرسة، ويخرج أوقات الصلوات إلى الجامع يصلي بالناس، ثم يرجع، ويوم الجمعة يكون في بيت الخطابة يخرج منه بالأهبة السوداء إلى المنبر فيخطب ويصلي، ثم يرجع فينزع السواد ثم يمضي إلى بيته بالمدرسة إلى أن قدم الخطيب الدولعي، فرجع إلى مكانه ومنصبه.

وفيها: توفي داود ابن أبي الغنائم أبو سلمان الملهمي من بني ملهم الضرير، كان يسكن رباط المأمونية ببغداد، وكان على رأي الأوائل، وإنما كان يتستر بمذهب الظاهرية، وكان موته بالمحرم ودفن بالشونيزيه وقد جاوز السبعين ومن شعره:

إلى الرحمن أشكو ما ألاقي
غداة غدو على هوج النياق
نشدتكم بمن زم المطايا
أمر بكم أمر من الفراق
هل داء أضر من التنائي
وهل عيش ألذ من التلاقي

وفيها: توفي القاضي شرف الدين أبو طالب عبد الله بن زين القضاة

عبد الرحمن بن سلطان بن يحيى بن علي القرشي الدمشقي، ولي القضاء بدمشق نيابة عن محيي الدين بن الزكي، ثم عن ابنه زكي الدين الطاهر، وهو ابن عمهما، يلتقي نسب الجميع إلى يحيى بن علي المذكور، وهو أول من درس بالمدرسة الرواحية ثم بالمدرسة الشامية الحسامية، وكانت وفاته في شعبان يوم الأحد ثالث عشر شعبان، وصلي عليه بجامع دمشق ودفن عند مسجد القدم، وهو الذي يوجد علامته على الكتب المسجلة، « الحمد لله وهو المستعان ».

قال أبو المظفر: وكان فقيها فاضلا نزها، لطيفا، عفيفا[٧٥].

وفيها: توفي أبو الحسن علي بن أحمد بن روح، القاضي المعروف بابن العنبري، وكان نائبا عن القضاة ببغداد صحب أبا النجيب السهروردي، وتفقه عليه وقرأ العربية على العصار، وكان شيخا كيسا فاضلا، متواضعا، وكانت وفاته في رمضان، ومن شعره:

وقد كنت أشكو من حوادث برهة
واستمرض الأيام وهي صحائح
إلى أن تغشتني وقيت حوادث
تحقق أن السالفات منائح

وفيها: توفي القاضي عماد الدين بن الدامغاني الحنفي، قاضي القضاة ببغداد، واسمه أبو القاسم عبد الله بن الحسين ولد في رجب سنة أربع وستين وخمسمائة، وتفقه على مذهب أبي حنيفة، وعرف الفرائض والحساب، وقسمة التركات مع السمت، والوقار، والدين، والعفة، وأول ولايته القضاء في سنة ست وثمانين وخمسمائة، وعزل في رجب سنة أربع وتسعين وخمسمائة، فأقام ثماني سنين قاضيا، ثم أعاده ابن مهدي في سنة ثلاث وستمائة، ثم عزل في سنة إحدى عشر وستمائة، فكانت ولايته الأخيرة تسع سنين إلا شهور وتوفي في ذي القعدة وصلي عليه بالنظامية،

ودفن بالشونيزية، سمع الحديث من أبيه أبي المظفر الحسين بن أبي الحسن أحمد قاضي القضاة، ومن عمه أبي الحسن علي قاضي القضاة، ومن أبي الفرج كليب وغيرهم.

وفيها: توفي السلطان الملك العادل سيف الدين أبو بكر محمد بن أيوب، وكنيته أشهر من اسمه، سئل عن مولده فقال: فتوح، يعني لما فتح الرها وماوالاها الأتابك زنكي والد نور الدين سنةتسع وثلاثين وخمسمائة، فيكون عمره ستا وسبعين سنة، قيل كانت ولادته ببعلبك لما كان والده واليها من قبل زنكي، ونشأ في خدمة نور الدين بن زنكي مع أبيه وأخوته، وحضر مع أخيه صلاح الدين في فتوحانه وغزواته، وقام أحسن قيام في الهدنة مع الانكلتيز ملك الفرنج بعد أخذهم لعنهم الله عكا، وكان صلاح الدين يعول عليه كثيرا، واستنابه بالديار المصرية مدة، ثم أعطاه حلب، ثم الكرك وأعمالـه، ثم حران ومايتعلق بها، ثم جرى بعد وفاة أخيه بينه وبين أولاده أمور سبق ذكرها، إلى أن استقر له الملك.

قال أبو المظفر: امتد ملكه من بلاد الكرج إلى همذان والجزيرة والشام، ومصر، والحجاز واليمن، وكان نبها خليقا بالملك، حسن التدبير حليما صفوحا عادلا، مجاهدا، عفيفا، دينا متصدقا، آمرا بالمعروف، ناهيا عن المنكر، طهر جميع ولايته من الخمور، والخواطىء، والقمار، والمخانيث، والمكوس، والمظالم، وكان الحاصل من هذه الجهات بدمشق على الخصوص مائة ألف دينار، فأبطل الجميع لله تعالى، وكان واليه المبارز المعتمد رحمه الله قد أعانه على ذلك، أقام رجالا على عقاب قاسيون، وجبل الثلج، وحوالي دمشق بالجامكية والجراية، يحرمون أحدا يدخل دمشق بمنكر، فكان أهل الفساد يتحيلون ويجعلون زقاق الخمر في الطبول ويدخلون بها إلى دمشق، فمنع من ذلك.

قال: وبلغني أن بعض المغنيات دخلت على العادل في عرس، فقال لها: أين كنت؟ قالت: ماقدرت آجيء حتى وفيت ماعلي للضامن، فقال: وأي ضامن؟ قالت: ضامن القيان، فقامت عليه القيامة وطلب المعتمد وأنكر عليه وقال: والله لئن عاد وبلغني مثل هذا لأفعلن ولأصنعن، ولقد فعل العادل في غلاء مصر عقيب موت العزيز مالم يفعله غيره، كان يخرج بالليل بنفسه معه الأموال يفرقها في أرباب البيوت والمساكين، ولولاه لمات الناس كلهم، وكفن في تلك الأيام من ماله ثلاثمائة ألف من الغرباء، وكان إذا مرض أو تشوش مزاجه خلع جميع ماعليه وباعه حتى فرسه وتصدق به.

قلت: وكان لما عزل القاضي زكي الدين الطاهر عن قضاء دمشق وولاه القاضي جمال الدين بن الحرستاني، تعصب وكيل بيت المال يومئذ وأثبت على زكي الدين محضرا يتضمن عشرين ألف دينار أودعها قيماز النجمي عند والده محيي الدين برسم فكاك أسرى، وذلك بعد عزله بنحو شهر، وبلغني أن القاضي جمال الدين بن الحرستاني تأنى في إثباته، واستقصى في تزكية الشهود جهده وطاقته، ولما علم عليه بالثبوت قام الوكيل الجمال المصري فقال: القاضي إلى النار وأنا وراك، وذلك لعلمه بأن القضية بطريق التعصب والاغراض، وكان ذلك بثلاثة، وقيل بشهادة اثنين ، أحدهما: ابن عوضة، والآخر: أبو محمد الخشاب الأقط وقد رأيتهما ، وكان كل واحد منهما في قلبه على القاضي حقداً بسبب حكومة حكم بها عليه، أما ابن الخشاب فكان أقر ببستان له لأولاد أخيه وأظنه وقفه عليهم ثم أراد إبطال ذلك والرجوع فيه فلم يمكنه القاضي، وهذا البستان تحت نهر يزيد قبالة الجنينة المختصة لي من فوقه، وأخذ خط الزكي بالمبلغ في ذمته في السابع والعشرين من جمادى الأولى، وشرع القاضي في بيع ما يملكه من كتب وغيرها، واستدان من الناس ما حمله في وفاء ذلك، فذكرت بعض حظايا العادل أنها رأت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام وهو يوصيه بالقاضي، فأسقطها عنه، ورد المال عليه

على رؤوس الأشهاد، أنزل بـه من القلعة جهاراً في طبق، وأنـا رأيته محمولا إلى دار القاضي صحبـة القاضي الأشرف ابـن الفاضـل، والجمال الوكيـل، وقـاضي العسكـر، وابـن التيتـى، بين الصرتين مـن يـوم الأحـد الحادي والعشرين من رجـب سنة اثنتي عشرة، ثم رده إلى القضاء بعـد موت ابن الحرستاني، وبلغنـي أن القاضي طلب جـرح الشهـود فلـم يجسر أحد على ذلـك إلا الثقة عنتر، كـان يتولى عقـود الأنكحة بـالمدرسة التقـوية، فبلـغ ذلك العادل، فتبسم فقال: من عادة عنتر الجرح.

قال أبو المظفر: وسبب موته انزعـاجه من الخبر الذي جاءه من دمياط أن الفـرنـج استولـوا على بـرج السلسلـة، فـدق بيده على صـدره، وأقـام مريضا إلى يـوم الجمعة سابع جمادى الآخرة، فتوفي بعـالقين، وكان المعظم قد كسر الفـرنج على القيمون خـامس جمادى الآخرة، ولما تـوفي العادل لم يعلم بمـوته غير كريـم الدين الخلاطي فـأرسل الطير إلى المعظم بنـابلس فجاء المعظم يـوم السبت إلى عالقين، فاحتـاط على الخزائن وصبر العادل وجعله في محفة، وعنده خـادم يروح عليه وقد رفع طرف سجـافها وأظهروا أنه مريض، ودخلوا به إلى القلعة وكتموا موته.

قـال: ومن العجـائب أنهم طلبوا لـه كفنا فلـم يقدروا عليـه، فأخـذوا عمامـة الفقيه النجيـب ابن فـارس وكفنـوه بها، وأخرجـوا قطنا مـن مخدة فلفـوه به، ولم يقـدروا على فأس فسرق كـريم الـديـن فأسـا من الخنـدق فحفروا له به في القلعة، وصلى عليه وزيره ابن فارس ودفنوه في القلعة.

قال: وكنت قاعدا إلى جانب المعظم عند باب الدار التي فيها الأيوان، وهو واجم ولم أعلم بحـاله، فلما دفن أبوه قام قائما وشـق ثيابه ولطم على رأسـه ووجهه،وكـان يومـا عظيما، وعمـل له العـزاء ثـلاثة أيـام بالإيـوان الشمالي.

قال: ولما رأيت المعظم قد بلغ به الحال مابلغ تكلمت في أول يوم، فلما انقضى العزاء عتبني المعظم و قال: ياسبحان الله أنت صاحب العزاء إيش كان حاجة إلى كلامك مع ابن الحنبلي؟ وكان الناصح قد تكلم في ذلك اليوم فقلت: لابد من الكلام، فقال: إذا كان ولابد فليكن في اليوم الثالث، ولايتكلم معك أحد، فامتثلت ماأمر.

وعمل له العزاء في جميع البلاد، ونودي ببغداد من أراد الصلاة على الملك العادل الغازي المجاهد في سبيل الله فليحضر إلى جامع القصر، فحضر الناس، ولم يتخلف سوى الخليفة وصلوا عليه صلاة الغائب وترحموا عليه وتقدم إلى خطباء الجوامع بأسرهم ففعلوا ذلك بعد صلاة الجمعة، قال: وفوض إلى الملك المعظم تربة بدر الدين حسن في اليوم الثالث.

قلت: هو بدر الدين حسن أحد أولاد الداية هو وأخوته من أكابر أمراء نور الدين بن زنكي رحمه الله، وتربته هي التي على نهر ثورا عند جسر كحيل في طريق الجبل قريب من المدرسة الشبلية، وكان أبو المظفر يسكنها ويدرس بالمدرسة الشبلية، ومنها يصعد إلى الجبل، وينزل إلى دمشق كل يوم بسبب مجلس الوعظ وماأكثر ماكنت أراه جالسا في شباك التربة أو في الصفة الخارجة في النهر ومعه كتاب يطالع فيه أو ينسخ، فما أطيب ماكانت تلك الأيام وماأرغد عيش تلك الأعوام.

قال أبو المظفر: وكان للعادل عدة أولاد منهم، شمس الدين مودود والد الجواد يونس، والكامل محمد، والأشرف موسى، والمعظم عيسى، والأوحد أيوب، والفائز ابراهيم، والمظفر شهاب الدين غازي، والعزيز عثمان، والأمجد حسن وهما شقيقا المعظم، والمغيث محمود، والحافظ رسلان، والصالح اسماعيل، والقاهر اسحاق، ومجير الدين يعقوب ، وقطب الدين أحمد، وخليل أصغرهم وتقي الدين عباس.

قلت: وهو آخر من بقي منهم، وهو الآن في سنة تسع وخمسين وستمائة حي بدمشق.

قال: وكان الصالح اسماعيل، وقطب الدين أحمد بدمشق لما مات العادل، فأمر المعظم الصالح فتوجه إلى بصرى، وأحمد فتوجه إلى مصر، وكان للعادل عدة بنات أفضلهن ضيفة صاحبة حلب أم الملك العزيز ابن الظاهر.

قال: ولما دخل رجب رد المعظم المكوس والخمور وماكان أبوه أبطله، فقلت له: قد أخلفت سيف الدين غازي ابن أخي نور الدين، فإنه كذا فعل لما مات نور الدين، فاعتذر بقلة المال ودفع الفرنج.

قال: وسار المعظم إلى بانياس، وأرسل الصارم التبنيني وهو بتبنين في تسليم الحصون فأجابه فأخرب بانياس، وسار إلى تبنين فأخربها وهدمها، وكانت قفلا للبلاد وملجأ للعباد، وأعطى جميع بلاد شركس، لأخيه العزيز عثمان، وزوجه ابنة شركس، ونزل الصارم وولده وأصحابه من الحصون فأكرمهم وأحسن إليهم وأظهر أنه ماأخرب بانياس وتبنين إلا خوفا من استيلاء الفرنج عليهما.

قال: وبعث الكامل إلى المعظم بالخلع، وقال: ادركني، وجاءت الفرنج فنزلوا على شارمساح (٧٧) فأخلى لهم المسلمون الخيام فطمعوا، ثم رجع عليهم الكامل فكسرهم وقتل منهم خلقا كثيرا فعادوا إلى دمياط.

وفيها: توفي ملك الروم كيكاوس ولقبه عز الدين وكان جبارا، ظالما، سفاكا للدماء، ولما عاد إلى بلده من كسرة الأشرف له بحلب إتهم قوما من أمراء دولته أنهم قصروا في قتال الحلبيين، فسلق بعضهم في القدور، وجعل آخرين في بيت فأحرقهم فأخذه الله بغتة فمات فجأة سكران، وقيل ابتلي في بدنه، فتقطع، وكان أخوه علاء الدين كيقباذ محبوسا في

قلعته، وقد أمر بقتله، فبادر الأمراء فأخرجوه، وأقاموه في الملك وكانت وفاة كيكاوس في شوال، وهو الذي أطمع الفرنج في دمياط.

وفيها: توفي نجم الدولة نجاح بن عبد الله، شرابي الخليفة، مملوك الإمام الناصر، وكان جوادا سمحا عاقلا دينا كثير الصدقات حسن المحضر، محسنا إلى الناس يحب المساكين، ويعظم أهل الدين ويأخذ للضعيف من القوي،وكان يسمى سلمان دار الخلافة، وكان ملازما للخليفة لايغيب عنه ساعة واحدة، وكان أسمر اللون جميل الصورة فحلا، ولما توفي في هذه السنة أمر الخليفة أن لايتخلف عن جنازته أحد لاوزير ولاغيره، وصلى الخليفة عليه تحت التاج، وحزن عليه حزنا كثيرا، وأخرج تابوته من البدرية، ومشى العالم بين يديه إلى جامع القصر، وكان بين يدي جنازته مائة بقرة، وألف شاه، ومائة قوصرة تمر ومائة حمال على رؤوسهم الخبز، وعشرون حمالا على رؤوسهم ماء الورد، ومماليكه قد جزوا شعورهم ولبسوا المسوح، والضجيج والبكاء قد ملأ بغداد، ولم ير في الاسلام مثل ذلك اليوم، وعبروا به إلى الجانب الغربي إلى تربة أم الخليفة، ودفن بين يدي القبة التي فيها أم الخليفة، وتصدق عنه الخليفة من مال نجاح بعشرة آلاف دينار على المشاهد، مشهد علي، والحسين، وموسى بن جعفر رضي الله عنهم، وبعث بمثلها إلى مكة، والمدينة، واعتق الخليفة مماليكه، وكانت له خمسمائة مجلد فوقفها في تربة أم الخليفة وكتب عليها اسم الشرابي.

ذكر الشيخ عز الدين بن الأثير في تاريخه الكبير في حوادث سنة سبع وستين وخمسمائة أن الأمير العباسي أحمد بن الخليفة يعني المستضيء، وأحمد هو الإمام الناصر لدين الله، قال ابن الأثير: وهو الذي صار خليفة بعده سقط من قبة عالية إلى أرض التاج ومعه غلام له اسمه نجاح فألقى نفسه بعده وسلم ابن الخليفة ونجاح، فقيل لنجاح: لم ألقيت؟ فقال: ماكنت أريد البقاء بعد مولاي فرعى له الأمير أبو العباس ذلك،

فلما صار خليفة جعله شرابيا، وصارت الدولة جميعها بحكمه، ولقبه الملك الرحيم عز الدين، وبالغ في الإحسان إليه والتقديم له وخدمه جميع أمراء العراق والوزراء وغيرهم(٧٨).

وفيها: توفي القاهر صاحب الموصل وترك ولدا صغيرا اسمه محمود، وكان طفلا فأخرج بدر الدين لؤلؤ زنكيا أخا القاهر من الموصل واستولى عليها، واسم القاهر عز الدين مسعود بن نور الدين أرسلان شاه بن عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي، ثم ثبت ملك بلاد الموصل لبدر الدين لؤلؤ وتسمى بالملك الرحيم، ثم أولاده من بعده إلى الآن، وبلغني أن لؤلؤ سقى القاهر سما فمات، ثم أدخل ابنه محمود بعد ذلك حماما حاميا وأغلق عليه الباب فاستكربه وعطشه فاستغاث أخرجوني واسقوني ماء ثم اقتلوني، فأخرج وقد تغيرت خلقته، وكان من أحسن الناس صورة فأسقى ماء ثم خنق بوتر.

قلت: كان اسم ولده الذي ولي بعده نور الدين أرسلان شاه وكان قد سماه أبوه عليا فلما مات جده نور الدين أرسلان شاه في سنة سبع وستمائة سموه باسم جده أرسلان شاه، وأقام قليلا ومات في سنة خمس عشرة ايضا، وتولى أخوه محمود، وكان تقدير عمره يوم مات عشر سنين، واستمر محمود والأمير بدر الدين لؤلؤ أتابكه إلى أن مات جده لأمه السلطان مظفر الدين صاحب إربل في شهر رمضان سنة ثلاثين وستمائة، فانقطع خبر محمود واستبد بدر الدين بالأمر.

قال أبو المظفر: قدم الصاحب صفي الدين عبد الله بن علي المعروف بابن شكر وزير العادل، كان العادل قد نقم عليه فنفاه إلى الشرق فمضى إلى آمد، فأقام بها فلما مات العادل كتب ابنه الكامل من مصر إليه يطلبه، فقدم دمشق في هذه السنة ونزل بظاهرها ببيت رانس(٧٩) في

دار المؤيد العقرباني، فخدمه المؤيد. وكان قد قل نظره فأقام أياما ثم توجه إلى مصر.

قلت: وقيل إن قدومه من المشرق كان بعد هذه السنة، وقرأ بهاء الدين بن أبي اليسر بين يديه مقامة ببيت رانس، في مدحه من إنشاء الشيخ أبي الحسن البخاري رحمه الله سماها« محاورة الفقهاء ومحاضرة العلماء في أوحد الكبراء وسيد الوزراء» وهي مقامة جليلة حسنة لفظا ومعنى، وكان خليقا بالوزارة لم يأت بعده فيها مثله، وكان متواضعا يسلم على الناس الذين يمر بهم وهو راكب، ويكرم الفقهاء ويحترمهم، ويعمر أوقافهم ويثمرها، ويوسع لهم في الجامكيات، وفي أيامه بنيت العمارة بفوارة جيرون، والمسجد، والبركة والشاذروان وغير ذلك رحمه الله، وتوفي سنة ثلاثين وستمائة كذا ذكر سبط ابن الجوزي[٨٠] وهو وهم، وإنما توفي سنة اثنتين وعشرين كما سنذكره.

وذكر العز بن تاج الأمناء: أنه في سنة تسع وستمائة عزل الوزير الصفي بن شكر وزير السلطان بمصر في غضون غضب أظهره ادلالا على السلطان، وسعى العادل فيه، وتحرر أمره والزامه بيته، ثم ورد كتاب الكامل من مصر إلى أخيه المعظم بالحوطة على أملاك الوزير ابن شكر بها سابع جمادى الأولى من السنة.

قال: وفي سابع عشرين رمضان من السنة عزل ابن الوزير ابن شكر من ديوان دمشق وقد كان مستمرا به في نيابة والده، وتولاه الشمس بن النفيس مستقلا بأموره، بكتاب عادلي وصل من مصر.

قال: وفي رابع شعبان ورد الخبر من مصر بإخراج الصفي بن شكر من القاهرة موكلا به واعتقاله بظاهر بلبيس في دار الجاولي، ثم إرساله إلى دمشق.

قال: ووصل عاشر ربيع الآخر من سنة أربع عشرة منفيا من الديار المصرية إلى الكسوة، فأقام بها بقدر ماقضيت له أشغاله بدمشق، وتولى المعتمد القيام بها، وكان تقدم من العادل كتاب إلى المعتمد بأن لايمكنه من المقام بدمشق أكثر مما يقضي أشغاله، فلما تحقق ذلك لم يدخل البلد ورحل من الكسوة نهار الأحد سادس عشر الشهر فبات ببلدا من الغوطة ورحل منها إلى القصير في الغد، ومن القصير إلى جهة الفرات على طريق البرية، وخرج إليه جماعة من أعيان البلد سرا وجهرا إلى الكسوة وإلى القصير، ولما قطع الفرات لم يمكنه الأشرف من المقام ببلاده، فرجع إلى سلمية والتجأ إلى صاحب حماة فآواه وأحسن إليه فأنكر السلطان ذلك عليه، وأمره بابعاده عنه فلم يمكنه مخالفته، وتولى قاضي العسكر خليل الرسالة في إخراجه من حماة، فأخرج موكلا به إلى أن عاد قطع الفرات قاصدا صاحب آمد، فتلقاه بنفسه وبالغ في إكرامه.

ثم دخلت

سنة ست عشرة وستمائة

ففي أول المحرم وقيل في سابع المحرم أخرب المعظم أبراج القدس وسوره خوفا من استيلاء الفرنج عليه، فاضطرب الناس، وخرجوا منه متفرقين في البلاد، وهان عليهم مفارقة ديارهم وضياع أموالهم، وقد كان القدس يومئذ على أتم الأحوال من العمارة، وكثرة السكان.

قال أبوالمظفر: كان المعظم قد توجه إلى أخيه الكامل إلى دمياط، وبلغه أن طائفة من الفرنج على عزم القدس فاتفق الأمراء على خرابه وقالوا: قد خلا الشام من العساكر فلو أخذه الفرنج حكموا على الشام، وكان بالقدس أخوه العزيز عثمان، وعز الدين أيبك استاذ الدار، فكتب المعظم اليهما بخرابه، فتوقفا وقالا: نحن نحفظه، فكتب إليهما المعظم لو أخذوه لقتلوا كل من فيه، وحكموا على دمشق وبلاد الشام، فألجأت الضرورة إلى إخرابه فشرعوا في السور أول يوم من المحرم، ووقع في البلد ضجة مثل يوم القيامة، وخرج النساء المخدرات، والبنات، والشيوخ، والعجائز، والشبان، والصبيان إلى الصخرة والأقصى، فقطعوا شعورهم ومزقوا ثيابهم بحيث امتلأت الصخرة ومحراب الأقصى من الشعور، وخرجوا هاربين وتركوا أموالهم وأثقالهم وماشكوا أن الفرنج تصبحهم وامتلأت بهم الطرقات فبعضهم إلى مصر، وبعضهم إلى الكرك،وبعضهم إلى دمشق، وكانت البنات المخدرات يمزقن ثيابهن ويربطنها على أرجلهن من الحفا، ومات خلق كثير من الجوع والعطش، وكانت نوبة لم يكن في الاسلام مثلها، ونهبت الأموال التي كانت لهم في القدس، وبلغ قنطار الزيت عشرة دراهم، ورطل النحاس نصف درهم، وأكثر الشعراء في ذمهما ودعوا عليهما فقال بعضهم:

في رجـــــب حلـــــل الحميـــــا
وأخـــــرب القـــــدس في المحـــــرم

قال: وأنشدني قاضي الطور مجد الدين محمد بن عبد الله الحنفي لنفسه:

مـــررت على القـــدس الشريـــف مسلما
على مـــا تبقـــى مـــن ربـــوع كـــأنجـــم
ففـــاضـــت دمـــوع العين منـــي صبـــابـــة
على مـــا مضـــى مـــن عصرنـــا المتقـــدم
وقـــد رام علـــج أن يعفـــي رســـومـــه
وشمـــر عـــن كفـــي لئيـــم مـــذمـــم
فقلـــت لـــه شلـــت يمينـــك خلهـــا
لمعتبر أو ســـــائل أو مسلـــــم
فلـــو كـــان يفـــدى بـــالنفـــوس فـــديتـــه
بنفسي وهـــذا الظـــن في كـــل مسلـــم

وفيها: نفى الملك المعظم الأمير عماد الدين بن المشطوب من مصر إلى الشرق، وكان قد اتفق مع الملك الفائز بن العادل على أخيه الملك الكامل، واستحلف للفائز العساكر، وعرف الكامل فرحن إلى أشمون وعزم على التوجه إلى اليمن من البلاد، وعلم أخوهما المعظم فقال للكامل: لابأس، وركب آخر النهار وجاء إلى خيمة ابن المشطوب وقال: قولوا لعماد الدين يركب حتى نسير، فأخبروه فخرج من الخيمة بغير أخفاف صباغات، ولحق المعظم فأبعد به عن العسكر، وقال له: أخي الملك الأشرف قد طلبك وهو محتاج إليك فتسير إليه الساعة، فقال: مافي رجلي صباغات ولامعي أحد من غلماني ولاقماشي، فوكل به جماعة وأعطاه خمسمائة دينار وقال: كل مالك يلحقك، والله مايضيع لك خيط

واحد، وسار به الموكلون ورجع المعظم إلى خيمته، وجاء إليه الكامل فقبل الأرض بين يديه وخاف الفائز خوفا عظيما.

أما ابن المشطوب فاجتاز دمشق ومضى إلى حماة فأقام بها، فبعث إليه الأشرف منشوزا بأرجيش من بلاد خلاط مع الخلع، فسار إلى الأشرف فأكرمه وأحسن اليه، وصار يركب بالشبابة، ويعمل له سلطنة أعظم من الأشرف، وتجبر وطغى وبغا، وخامر على الأشرف وكاتب صاحب الروم، فبعث له مائة ألف وأربعة آلاف درهم، وطلع إلى ماردين، ثم قصد ناحية سنجار، ثم جرى عليه مما سنذكره إلى أن مات في حبس الأشرف بحران هو وابن خشترين الأزكجي.

وفيها: في شعبان سحر يوم الثلاثاء الخامس والعشرين من شعبان استولى الفرنج على دمياط، وكان المعظم قد جهز إليها ابن الجرخي الناهض في خمسمائة راجل، فهجموا على الخنادق فقتل ابن الجرخي ومن كان معه، وصفوا رؤوس القتلى على الخنادق، وكانوا قد حموا الخنادق وضعف أهل دمياط ووقع فيهم الوباء والفناء، وعجز الكامل عن نصرتهم، فراسلوا الفرنج على أن يسلموا إليهم البلد، ويخرجوا منه بأهاليهم وأموالهم، فاجتمع الأقساء، وأحلفوهم على ذلك، فركبوا في المراكب وزحفوا في البر والبحر وفتح لهم أهل دمياط الأبواب فدخلوا ورفعوا أعلامهم على السور، وغدروا بأهلها ووضعوا فيهم السيف قتلا وأسرا، وباتوا تلك الليلة يفجرون بالنساء وأخذوا المنبر وكان من أبنوس، والمصاحف ورؤوس القتلى وبعثوا بها إلى الجزائر، وجعلوا الجامع كنيسة، وكان الشيخ أبو الحسن بن قفل بدمياط فسلمه الله تعالى منهم، فسألوا عنه فقيل هذا رجل صالح من مشايخ المسلمين يأوي إليه الفقراء فما تعرضوا له بعد، وقد رأيته أنا بعد ذلك بثغر دمياط في سنة ثمان وعشرين وستمائة، وهو يحكي للناس صورة ماجرى على البلد من الفرنج خذلهم الله تعالى، ووقع على المسلمين كآبة عظيمة وبكى الكامل،

والمعظم، بكاء شديدا، ثم تأخرت العساكر عن تلك المنزلة، ثم قال الكامل للمعظم لما رأى أعلام الفرنج على دمياط وقد سقط في يده، قد فات ماذبح، وجرى القدر بما هو كائن، ومافي مقامك هنا فائدة والمصلحة أن تنزل إلى الشام تشغل خواطر الفرنج، وتستجلب العساكر من المشرق.

قال أبو المظفر سبط ابن الجوزي: فكتب إلي المعظم، وأنا بدمشق: قد جرى على دمياط ماجرى وأريد ان تحرض الناس على الجهاد فإني كشفت ضياع الشام، فوجدتها ألفي قرية منها ألف وستمائة أملاك لأهلها، وأربع مائة سلطانية، وكم مقدار ماتقوم به هذه الأربعمائة من العساكر، وأريد أن يخرج الدماشقة ليذبوا عن أملاكهم.

فجلست بجامع دمشق، وقرأت كتابه عليهم فتقاعدوا فكان تقاعدهم[٨٢] سببا لأخذه الثمن والخمس من أموالهم، وكتب إلي إذا لم يخرجوا فسر أنت إلينا، فخرجت إلى الساحل وهو نازل على قيسارية فأقمنا حتى فتحها عنوة، ثم سرنا إلى الثغر ففتحه وهدمه وعاد إلى دمشق.

وفيها: في يوم الأربعاء السابع والعشرين من شهر ربيع الأول ألبس الملك المعظم قاضي القضاء زكي الدين أبا العباس الطاهر بن محيي الدين القباء والكلوتة بمجلس الحكم من داره بباب البريد.

قال أبو المظفر: كان في قلبه منه حزازات يمنعه من إظهارها حياؤه من والده العادل، وخوفه من الشناعات وكان يشكو إلي من القاضي مرارا ويقول: إنه لاينفذ الأحكام، ولايقيم معالم الاسلام، واتفق موت العادل ومرض أخته ست الشام عمة المعظم وكانت قد أوصت بدارها مدرسة، وأحضرت القاضي الزكي والشهود وأشهدتهم عليها، وأوصت إلى

القاضي، وبلغ المعظم فعز عليه قال: يحضر إلى دار عمتي من غير إذني ويسمع كلامها هو والشهود، ثم اتفق أن القاضي أحضر جابي المدرسة العزيزية وطلب منه حسابها فأغلظ له في القول، فأمر بضربه فضرب بين يديه كما يفعل الولاة، فوجد المعظم سبيلا إلى إظهار ماكان في نفسه، وكان الجمال المصري وكيل بيت المال عدو القاضي فجاء فجلس عند القاضي في مجلس الحكم والشهود حاضرون والناس، فبعث المعظم ببقجة فيها قباء وكلوتة، وأمره أن يحكم بين الناس وهما عليه، فقام من خوفه فلبسهما وحكم بين اثنين.

قلت: جابي المدرسة المضروب هو السديد خطيب عقربا واسمه: سالم ابن عبد الرزاق بن يحيى بن عمر بن كامل أخو الجمال والمؤيد العقرباني، وكانت الخلعة إشارة إلى أنك تفعل فعل والي الشرطة، فألبس لبس من يفعل ذلك.

وسمعت الذي ألبسه الخلعة وهو بعض أجناد الأمير عماد الدين بن موسك يعرف بالشمس صادف عقيب إياها في ذلك اليوم فإنه دخل الجامع وجاء يسلم على شيخنا علم الدين السخاوي رحمه الله وحدثه بالقضية، فتأوه الشيخ وضرب بإحدى يديه على الأخرى، وكان مما حكى أن قال: أمرني السلطان أن أقول له: السلطان يسلم عليك ويقول لك: الخليفة سلام الله عليه إذا أراد أن يشرف أحدا من أصحابه خلع عليه من ملابسه، ونحن نسلك طريقه وقد أرسل إليك من ملابسه وأمر أن تلبسها في مجلسك وأنت تحكم بين الناس، وكان المعظم أكثر مايلبس قباء أبيض وكلوتة صفراء.

وفتح البقجة فلما نظر إليها وجم، فأعدت الكلام بأن يلبسها وأمرته أن يترك التوقف في ذلك، وكنت قد أمرت بأن ألبسه إياها بيدي إن

امتنع أو توقف فمد يده فوضع القباء على كتفيه ونزع عمامته ووضع الكلوتة على رأسه، ثم قام ودخل بيته.

قلت: ومن لطف الله تعالى أن كان مجلس الحكم في داره وإلا والعياذ بالله لو كان في مكان آخر لتكلف المرور في الطرقات بذلك الزي الشنيع في حق مثله إلى بيته، اللهم عفوك وعافيتك.

ثم إن القاضي لزم بيته بعدها ولم تطل مدة حياته فمرض مرضة رمى كبده فيها قطعا ومات في الثالث والعشرين من صفر سنة سبع عشرة وستمائة، ودفن بمقبرة أبيه بالجبل وتأسف الناس لما جرى عليه، وكان رحمه الله يحب أهل الخير ويزور الصالحين في أماكنهم والمرء مع من أحب، وقد ذكره القوصي في معجمه وقال: كان متورعا، متثبتا، ناظرا في مصالح اليتامى:

وإذا رأيت أسى أمره أو صبره
يوما فقد عاينت صورة عقله

ولم يخرج عن الرضى والتسليم في حالتي ولايته وعزله رحمه الله، وبقي نوابه يحكمون بين الناس منهم: شمس الدين بن الشيرازي، وكان يجلس بالجامع في حافة الرواق الملاصق لخزانة الشريف موضع المقصورة الغربية، وتارة يجلس في شباك مشهد علي، ومنهم: شمس الدين بن سني الدولة، وكان يجلس بشباك الكلاسة المحاذي للتربة الصلاحية، ومنهم: شرف الدين الموصلي وكان يجلس بالشباك الكمالي وهو الذي يصلي فيه القضاة الجمع في هذه الأزمان.

قال أبو المظفر سبط ابن الجوزي: وكانت حركة شنيعة وواقعة قبيحة لم يجر في الاسلام أقبح منها، وكانت من غلطات المعظم، ولقد قلت له: ما فعلت إلا بصاحب الشرع، ولقد وجبت عليك دية القاضي، فقال: هو

الذي أحوجني إلى هذا، ولقد ندمت، واتفق ان المعظم بعث إلى الشرف ابن عنين الشاعر حين تزهد خمرا ونردا وقال سبح بهذا إشارة إلى أن هذا ليس له صحة فكتب إليه ابن عنين:

يا أيها الملك المعظم سنة
أحدثتها تبقى على الآباد
تجري الملوك على طريقك بعدها
خلع القضاة وتحفة الزهاد(٨٣)

قال: وأخبرني الشرف بن كلاب قال: كنت حاضرا ذلك المجلس وكان القباء والكلوتة لونا واحدا أحمر ملطي، ومن أعجب الأمور أن الذي أتاه بالخلعة طلب من غلمان القاضي ماجرت به العادة من إعطاء من يأتي بخلعة سلطانية إلى حاكم أو غيره، فأخرجوا له من وراء القاضي خمسين درهما، وما زال قاعدا على باب القاضي بعد دخوله بالخلعة حتى أخرجوا له الدراهم فقبضها.

وحج بالناس في هذه السنة من العراق آقباش الناصري، ومن الشام مملوك المعظم يقال له شقيفات، وفي هذه السنة حج والدي رحمه الله، وأبو المظفر سبط ابن الجوزي، وعز الدين بن القيسراني، والصفي بن مرزوق.

وفيها: توفي الشيخ أبو البركات داود بن أحمد بن محمد بن ملاعب البغدادي الملقب بالزبيب، سمع الكثير من بغداد من أبي الوقت، وأبي الفضل الأرموي، وأبي الكرم الشهرزوري وغيرهم، وسكن في دمشق وأسمع بها الكثير، وتوفي بها في جمادى الآخرة، ودفن بجبل قاسيون، وكان أحد الوكلاء بمجلس الحكم، سمعت عليه صحيح البخاري وغيره، وكان ثقة متحرزا.

وفيها: في ذي القعدة توفيت بدمشق ست الشام بنت أيوب بن شاذي، أخت الملوك صلاح الدين والعادل، ذكر الحافظ زكي الدين أنها

توفيت في سادس عشر ذي القعدة من السنة، وزاد غيره: آخر نهار الجمعة، وهي التي تنسب إليها المدرستان بدمشق إحداهما: قبل البيمارستان النوري، والأخرى: ظاهر دمشق بمحلة العوينة، وتعرف أيضا بالحسامية نسبة إلى ابنها حسام الدين بن لاجين، وكانت دفنته بها ودفنت هي بالقبر الذي هو فيه، وهو الذي يلي باب القبو من القبور الثلاثة، والقبلي هو قبر أخيها تورانشاه المذكور، والأوسط قبر ابن عمها ناصر الدين محمد بن شيركوه بن شادي، وكان تزوجها بعد لاجين.

قال أبو المظفر سبط ابن الجوزي: كانت سيدة الخواتين، عاقلة، كثيرة البر والصلات والإحسان والصدقات، وكان يعمل في دارها من الأشربة والمعاجين والعقاقير في كل سنة بألوف من الدنانير وتفرقها على الناس، وكان بابها ملجأ للقاصدين ومفزعا للمكروبين، ووقفت على المدرستين أوقافا كثيرة، وكانت لها جنازة عظيمة(٨٤).

قلت: والملوك بنو أيوب إلى آخر من ولي منهم السلطنة في بلد من البلاد المشهورة كلهم محارمها، لأنهم إما أخوتها وإما بنو إخوتها وهم إلى الآن خمسة وثلاثون ملكا، إخوتها الأربعة المعظم، وصلاح الدين ، والعادل، وسيف الاسلام، وأولاد صلاح الدين العزيز، ثم ابنه المنصور، والأفضل، والظاهر، وابنه العزيز، وابن ابنه الناصر يوسف ، وأولاد العادل: الكامل، وأولاده الثلاثة: المسعود، والصالح، والعادل، وأبناء الصالح: المعظم المقتول بمصر، والموحد صاحب حمص، وابن العادل بن الكامل المغيث صاحب الكرك الآن، والمعظم بن العادل الأكبر، وابنه الناصر داود، والأشرف بن العادل، والصالح بن العادل، والأوحد ، والحافظ، والعزيز، وابنه السعيد، وشهاب الدين غازي، وابنه الكامل محمد، وابن سيف الاسلام اسماعيل الذي ادعى الخلافة باليمن،

وفرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب، وابنه الأمجد صاحب بعلبك، وتقي الدين وابنه المنصور، ثم ذريته ملوك حماة إلى اليوم.

وفيها: في ربيع الآخر توفي ببغداد الشيخ أبو البقاء العكبري النحوي الحنبلي، واسمه: عبد الله بن الحسين بن عبد الله، ولد سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة وقرأ القرآن على أبي الحسن البطائحي، والنحو على أبي محمد الخشاب. واللغة على ابن العصار، وسمع الحديث منهم ومن غيرهم، وقرأ الفقه والأصول وصنف عدة مصنفات منها: إعراب القرآن، واللباب في النحو، وحواشي على المقامات، وديوان المتنبي.ومفصل الزمخشري، ومقدمات في النحو، والحساب وغير ذلك ، ودفن بباب حرب رحمه الله، وكان صالحا دينا.

وفيها: توفي بحلب الشريف مختار الدين عبد المطلب بن الفضل العلوي البلخي المدرس بمدرسة الحلاوية، كان عارفا بمذهب أبي حنيفة، وشرح الجامع الكبير وغيره، وكان يروي كتاب الشمائل للترمذي وغيره، وكان سيدا، فاضلا، ورعا، دينا.

وفيها: توفي ببغداد عماد الدين علي بن الحافظ أبي محمد القاسم بن الحافظ الكبير أبي القاسم علي بن الحسن العساكري، قدم بغداد وسمع بها، ثم توجه إلى خراسان وسمع بها، واستجاز لطائفة كثيرة من الدمشقيين وغيرهم لعموم من أدرك ذلك الوقت من جميع من اجتمع به من مشايخ تلك البلاد، شكر الله سعيه، ثم عاد إلى بغداد فوقع عليه قطاع الطريق فأخذوا ماكان معه وجرحوه فأقام ببغداد يعالج الجراحات فمات بها يوم السبت ثالث جمادى الآخرة ودفن بالشونيزية، وخلف ولدين مات بعده أحدهما المسمى باسم جده بهاء الدين القاسم، كان في صحبته فرجع إلى دمشق بعد موت أبيه، والآخر أبو حامد الحسين ولم يبق من نسله إلا ولد صغير من ابنه الأصغر أبي حامد.

وفيها: توفي ببغداد محمد بن جميل صاحب مخزن الخليفة ومولده بهيت، وكان فاضلا بارعا، وقدم علينا دمشق ابن ابنته وهو شاب فاضل يلقب فخر الدين، وله خط حسن وصورة جميلة، ونزل عندنا بالمدرسة العزيزية، ثم توجه إلى الحجاز مع جماعة فضلاء: شرف الدين المرسي، ومحب الدين بن هلال، وشرف الدين بن الزيات، وفخر الدين بن المالكي وغيرهم فجاوروا.

وفيها: توفي صاحب سنجار المنصور محمد بن عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي، وأبوه كان ختن نور الدين محمود بن زنكي على ابنته، وكان هذا المنصور ملكا عادلا، وهذا الذي حصره العادل أبو بكر بن أيوب، ثم رحل عنه بشفاعة الخليفة الإمام الناصر، وخلف المنصور عدة أولاد: سلطان شاه، وزنكي، ومظفر الدين وغيرهم، وحج بعضهم معنا في سنة إحدى وعشرين وستمائة.

ذكر الحافظ زكي الدين في الوفيات مامثاله: وفي الثامن من صفر سنة ست عشرة وستمائة توفي قطب الدين محمد بن زنكي بن مودود صاحب سنجار، وملك ولده عماد الدين شاهنشاه.

وفيها: توفي محمد بن محمد بن محمود الكشميهني، وكان صالحا صاحب رياضات ومجاهدات، وأوصى ان يكتب على كفنه طلبا لاصلاح حاله:

يكون أجاجا دونكم فإذا انتهى
إليكم يلقى نشركم فيطيب

وفيها: توفي ببغداد في رمضان أبو بكر زكريا بن يحيى بن القاسم بن المفرج التكريتي، ولي القضاء بتكريت، ثم ولي تدريس النظامية ببغداد،

ودفن بالشونيزية وكان فاضلا وأنشد أبو المظفر من شعره:

كـــم يـــأمـــل المرء آمـــالا وتخلفـــه
وكـــم يـــرى آمنـــا والموت يـــردفـــه
وطـــا لما سلـــك الإنســـان شـــاكلـــة
يظـــن فيهـــا نجـــاة وهـــي تقتلـــه

obeikandl.com